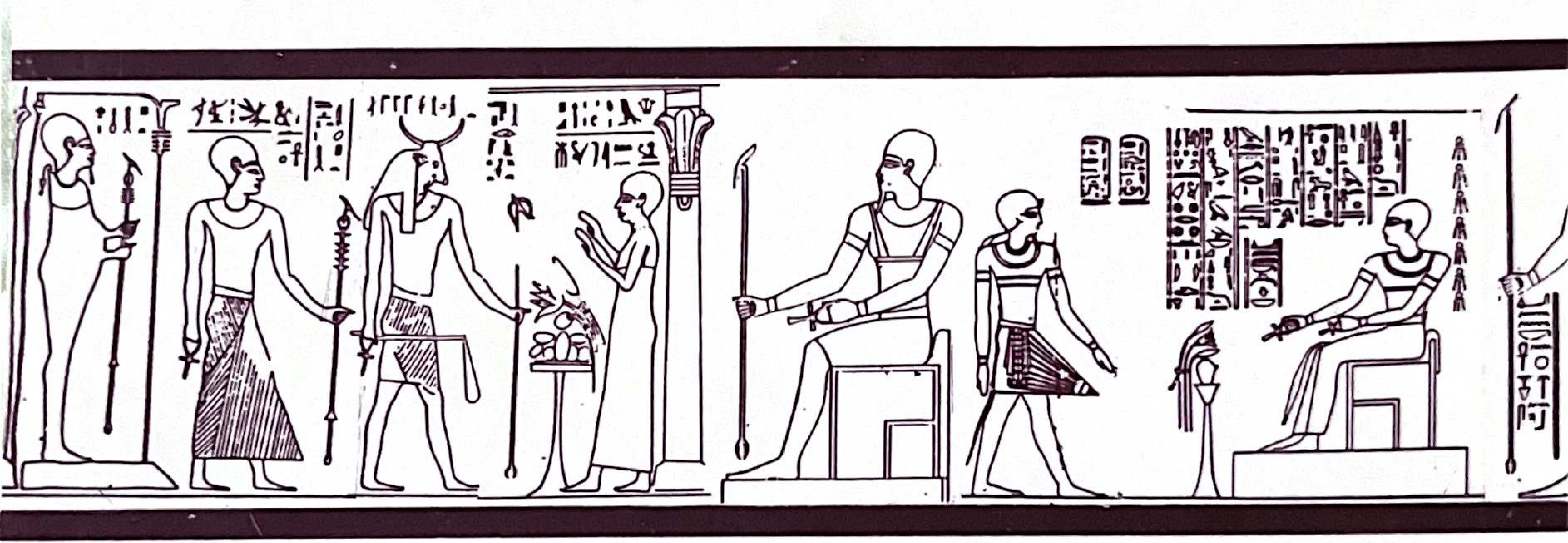
نحو وعى حضارى معاصر
سلسلة الثقافة الاثريه والتاريخية
مشروع المائة كتاب
١٢

إيمحتب
إله الطب والهندسة

تأليف : ج . هارى

ترجمة : محمد العزب موسى



مراجعة : د. محمود ماهر طه

نحو وعى حضارى معاصر
سلسلة الثقافة الاثريه والتاريخية
مشروع المائة كتاب

١٢

إيمحتب

إله الطب والهندسة

تأليف : ج . هارى

ترجمة : محمد العزب موسى

مراجعة : د. محمود ماهر طه

ترجمة كتاب

IMHOTEP

The Vizier and Physician of KING ZOSER and afterwards THE EGYPTIAN GOD OF MEDICINE

BY

JAMIESON B. HURRY, M.A., M.D.

Second and Revised Edition

OXFORD UNIVERSITY PRESS
HUMPHREY MILFORD



تمهيد

هذه الدراسة مكرسة لذكرى طبيب ساحر وحكيم متميز يظهر لأول مرة على مسرح التاريخ المصرى فى حكم الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، ثم يعاود الظهور فى فترات متقطعة على مسرح ذلك التاريخ خلال حقبة تمتد لأكثر من ثلاثة آلاف عام ، أى أن قصته تستغرق شطراً كبيراً من تاريخ مصر القديمة .

وسوف نحاول أن نتقصى مصير إيمحتب أثناء فترة نشاطه البشرى كمعاصر للفرعون زوسر ، وكذلك خلال الفترات التالية حيث نُظِر إليه أولا كنصف إله وأخيرا كإله كامل فى مجمع الآلهة المصرية . وسوف نحاول أيضا أن نحلل الأسباب التى أدت إلى هذه الظاهرة النادرة فى تاريخ مصر ، وهى تأليه شخص عادى ، أى شخص لم يكن ملكا على الاطلاق .

وهذه السيرة من النوع الذى يثير اهتمام مجموعات مختلفة من القراء ، فهى أولا تروق لمحب الآثار الذى يأسره التاريخ المبكر لجنسنا البشرى ، ويبحث عن أى تفاصيل تلقى الضوء على تطوره ، فهناك سحر خاص تنطوى عليه دراسة الصفحات الأولى للحضارة منذ كتبت هذه الصفحات .

كما أن هذه الدراسة سوف تستهوى عدداً متزايداً من المثقفين الذين تهزهم قصة مصر القديمة وهى تتكشف تدريجياً ، فإن أرض الفراعنة لها سحر لا يكاد يدانيه سحر أى بلد آخر ، وهذا السحر يتزايد باطراد كلما فهمنا على نحو أفضل ذلك التاريخ الاستثنائى لمصر ، وليست هناك حضارة قديمة أخرى يمكن أن نفهمها ونعيد تركيبها بهذه الدرجة من التحقق واليقين .

وأخيراً ، فإن قصتنا لها أقوى جاذبية لمهنة الطب ، تلك المهنة التى كرست نفسها فى كل انحاء العالم لتخفيف آلام المرضى وعلاجهم مما يشكون ، ولا شك أن هذه المهنة سوف تشعر باهتمام فريد نحو حياة إيمحتب وهو واحد من أقدم الأطباء المعروفين وكان له تأثير عميق على مواطنيه ، بحيث ظلت ذكراه عالقة فى أذهانهم قرونا كثيرة إلى أن رفعوه فى النهاية إلى مصاف إله الطب المصرى .

كذلك فإن من أهداف هذه الصفحات أن تؤكد أحقية إيمحتب فى أن يُعتبر معبودا راعيا لمهنة الطب ، كما كان ينظر إليه الأطباء المصريون القدامى ، وهى مرتبة ذهبت دون وجه حق لمنافسه الإغريقى نصف الأسطورى «اسكلبيوس Asklepios» فى حين أن إيمحتب يبدو هو الجدير بهذا الشرف والمكانة لعدة أسباب ، أولا : لأنه أقدم من «اسكلبيوس» بلا مراء ، وثانيا : بفضل الخدمات البارزة التى أداها لبلاده كوزير للفرعون «زوسر» ، وثالثا : لشهرته الطويلة كمبرئ من الأمراض ، وهى الشهرة التى أدت إلى تأليهه فى النهاية .

والمؤلف لا يزعم أنه وقع على اكتشاف لم يسبقه اليه أحد ، بل ربما يكون عمله هو الأكثر تواضعاً ، ولكنه الاكثر نفعاً من حيث أنه استطاع أن يجمع سوياً الخيوط العديدة التى غزلها الآخرون ، ثم نسج منها رقعة متكاملة تحمل صورة لهذا الطبيب العظيم أقرب إلى الحياة بقدر المستطاع تعتمد على التفاصيل الشحيحة التى وصلتنا ، وأن بحثه هذا مؤسس جزئياً على كتابات كبار علماء الآثار المصرية ، انجليزا وأجانب ، وجزئيا على فحص الآثار المصرية فى مختلف المتاحف سواء فى هذه الدولة (انجلترا) أو غيرها من الدول ، وجزئياً على زيارتين قام بهما المؤلف لمصر لجمع الأدلة والشواهد من مصادرها الأولى ، وان ذكرى تلك الأيام السعيدة التى قضاها على ضفاف النيل لتجعل من هذا العمل مهمة بالغة الرضا والحبور .

ولاشك أنه فى مثل هذه الدراسات التاريخية فى علم المصريات ، كما فى أى فرع آخر من فروع المعرفة المتطورة ، كثيرا ماتحدث اختلافات فى الرأى حتى بين المتخصصين ، وأكثر من ذلك فان مايبدو كأنه الحقيقة اليوم قد تغيره غدا اكتشافات جديدة فى المعابد والمقابر وأوراق البردى ، ولذا فان المؤلف وجد أن أحكم وسيلة تبدو جديرة بالاتباع هى أن يذكر مراجعه ومصادره على أوسع نطاق حتى يتزود القارئ بمستند على النتائج التى يصل اليها الكاتب .

لقد قدمنا ملخصاً عن هذه الدراسة إلى المؤتمر الدولى الخامس لتاريخ الطب المنعقد فى جنيف عام ١٩٢٥ ، ونظرا لضيق الوقت المتاح للمساهمات الفردية والذى لم يسمح إلا بتقديم ذلك الجزء اليسير ، لذا فقد رأينا أنه قد يكون من الأصوب نشر هذا العمل كاملاً .

وهذه الطبعة الثانية من الكتاب روجعت بعناية وأضيفت اليها مواد جديدة وصور كثيرة حديثة ، ومن المأمول أن هذه الاضافات سوف تعطى القارئ خدمة أفضل للموضوع الذى يتناوله الكتاب .

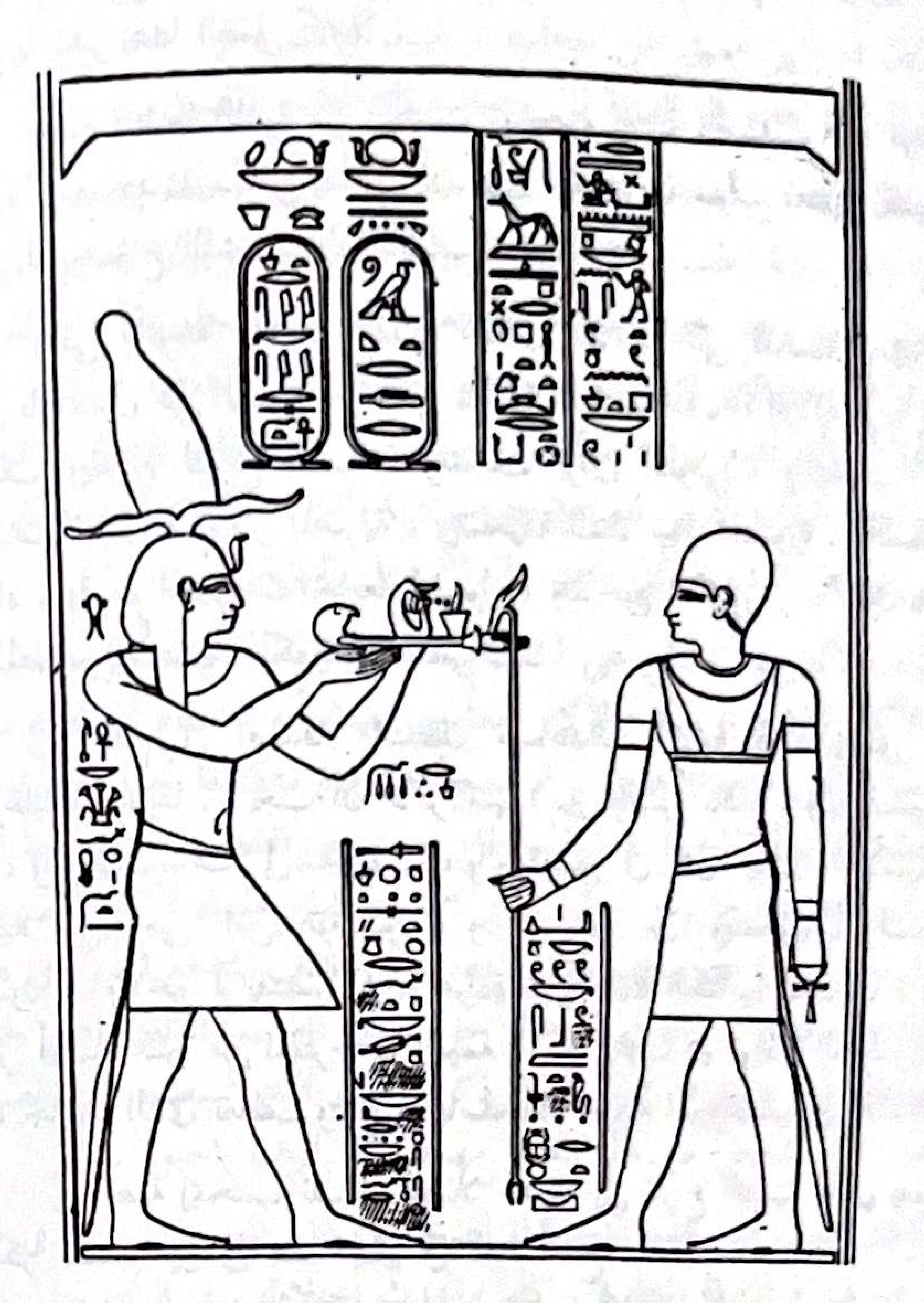
واننى لأتوجه بالشكر القلبى لمختلف الهيئات التى قدمت تسهيلات فيما يتعلق بالحصول على الصور ، وأخص بالذكر مدير متحف الآثار المصرية بالقاهرة ، ومتحف ويلكوم لتاريخ الطب ، ومتحف برلين القومى ، والمتحف البريطانى ، وحوليات مصلحة الآثار المصرية ، وصحيفة لندن نيوز المصورة ، والسادة ميثوين وشركاه ، وقسم المصريات بجامعة ليفربول ، والمرحوم الدكتور ر. كاتون ، بالاضافة إلى المصادر الأخرى المذكورة فى النص .

كما قدم لى أصدقاء مختلفون مساعدات كريمة فيما يتعلق بالقراءات الهيروغليفية وغيرها . يجب أن أذكر منهم سير واليس بادج ، والبروفيسور كورت زيته ، والبروفيسور ف. ل. جريفث ، والبروفيسور تى. اى. بيت ، والآنسة ماراى والسيد سى. جى. اس. تومبسون ، ودكتور اى. تى. ويتنجون ، والسيد و. ر. داوسون . والأخير لم يقتصر كرمه بقراءة «بروفات» الكتاب فحسب ، وانما بإثراء النص أيضا بكثير من المقترحات القيمة . كما أرغب فى توجيه الشكر إلى دكتور آلان جاردنر الذى تعطف وسمح لى باستخدام حروفه الهيروغليفية فى هذا الكتاب .

إن قصة إيمحتب تضيف فصلا جديدا إلى تاريخ الطب الذى ينمو باطراد فشكرا للمساهمين فى هذا المجال فى العالم أجمع .

جاميسون ب . هارى

هيثلاند
١٢ طريق جروف
بورتموث
مارس ١٩٢٨



الامبراطور الرومانى « تيبريوس » يبخر أمام الإله « إيمحتب » – فيله .

مقدمة المترجم

عميد الطب العالمى

ينتابنى شعور بالبهجة والأسى كلما قرأت عن فضل لمصر يعرفه الأجانب ونحن عنه غافلون .. ولا أدرى هل تجتمع البهجة مع الأسى كحالة من حالات النفس ؟ ولكن هذا ما أشعر به حقا كلما عرفت أفضالا مصرية من مصادر أجنبية .

اننا لايمكن أن نغمط فضل العلماء والمؤرخين والباحثين الأجانب فى اكتشاف تاريخنا القديم وتنوير جنباته المظلمة واعطائه حقه كأساس للحضارة العالمية . وكلما قرأت كتابا أجنبيا جيدا عن امجادنا القديمة ، أو شاهدت عنايتهم البالغة بآثارنا ، أنتابنى ذلك الشعور .

وقد انتابنى هذا الشعور بالتحديد وانا أقرأ النص الاصلى لهذا الكتاب الذى وضعه طبيب انجليزى يدعى دكتور جاميسون هارى عن « إيمحتب » وزير الملك « زوسر » مؤسس الأسرة الثالثة الذى عاش فى مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد . كان « إيمحتب » هذا وزيرا ومهندساً وساحرا وكاتبا وفلكيا وحكيما وكاهنا ، وهو بانى مجموعة هرم سقارة المدرج ، تلك التحفة المعمارية التى ليس لها مثيل فى عالم الآثار ، وعندما مات أصبحت مقبرته مزاراً للمرضى والمتألمين ، وبنيت له المعابد ، ورفع إلى مرتبة « البطل » أو « نصف الاله » فى عهد الاسرة الرابعة ، ثم إلى مرتبة إله الطب الكامل فى أواخر العصور الفرعونية .

وهذه حالة من الحالات الفريدة التى رفع فيها شخص عادى ، ليس فرعوناً إلى مرتبة التأليه فى مصر القديمة ، ومن أشهر الحالات الأخرى الحكيم أمنحتب بن حابو من الأسرة الثامنة عشرة .

والكتاب دراسة اكاديمية ممتعة استقاها المؤلف من مصادرها الأولية ، أى من المعابد والنقوش والتماثيل والمخربشات على الجدران والكتابات القديمة . والطريف ان المؤلف لم يكن أصلا من رجال الآثار ، وانما هو طبيب مثقف ، ولفرط انبهاره بشخصية ايمحتب درس العلوم الأثرية والكتابة الهيروغليفية واللغات القديمة وتفرغ عدة سنوات لوضع هذا الكتاب الفريد .

ولكن ليس هذا ما أثار لدىّ ذلك الشعور بالبهجة الممزوجة بالأسى ، فالكثيرون من المثقفين الأوربيين فعلوا مثل ذلك أعرف منهم شخصيا زوج المؤرخة المستشرقة الشهيرة سيجريد هونكه وهو دبلوماسى ألمانى غربى درس أيضا علم الآثار ووضع كتاباً بالغ الروعة والدقة عن الملكة حتشبسوت . وانما هزنى على وجه التحديد هو مطالبة جاميسون هارى والحاحه الشديد على زملائه الأطباء فى جميع أنحاء العالم للاعتراف بايمحتب المصرى عميدا لهم دون سواه .

* * *

وبفضل جاميسون هارى ، ومن قبله بعض علماء الآثار الآخرين ، نفض الغبار عن إيمحتب وظهر أمامنا واضحاً من وراء الضباب الأثرى ، انه رجل من لحم ودم ، وليس شخصية خرافية أو أسطورية كاسكلبيوس إله الطب لدى الاغريق ، ولكن اسكلبيوس سلب فضل إيمحتب فاعترف به العالم المتمدين عميدا لفن الطب ، مع أن هذه المكانة وهذا الشرف من حق إيمحتب بلا منازع .

يقول جاميسوت هارى :

« أن هذا الرجل يستحق اسمى اجلالنا .. يجب أن ينظر اليه الاطباء فى كل أنحاء العالم باعتباره المنشىء العبقرى لفن الطب ، انه الاله الرمزى لعلم الشفاء . ان اسمه يجب أن ينقش على رأس قائمة قديسينا ، وصورته يجب أن تكون شارة لمهنتنا » ويضيف :

« من الأفضل أن يكون على رأس مهنتنا رجل من لحم ودم ، شخصية شهيرة متعددة الجوانب ، بدلا من شخصية غامضة المنشأ تنتسب إلى عالم الأساطير .. أننا لانعرف شيئا عن اسكلبيوس وأعماله فى حين انه يتبقى من إيمحتب على الأقل تحفته المعمارية الجبارة المعروفة بالهرم المدرج بسقارة ، كما يبقى شاهداً عليه كثير من التماثيل والتصاوير الجدارية تشهد بأنه قضى حياة حافلة انفق بعضها فى الخدمة العامة ، وبعضها الآخر فى علاج المرضى وتخفيف آلام الانسانية »

ويمضى جاميسون هارى قائلا :

« ان مهنة الطب إذا وضعت إيمحتب على رأسها فسوف تجد فيه من يمثلها خير تمثيل وسوف ترد الفضل السليب إلى هذا الطبيب المصرى الشهير الذى ظل يُنظر إليه قرونا طويلة قبل عصر المسيح على أنه إله الطب المعبود فى كل أنحاء العالم المتحضر آنذاك .. إن إيمحتب يجب أن يتربع على عرش الطب اكثر من منافسة الخرافى اسكلبيوس . إنه الأجدر بلقب عميد الطب العالمى ، إن اسمه يستحق أن يظل خالدا فى ذاكرة البشرية كواحد من كبار العباقرة الانسانيين .. إنه يتلألأ كأحد النجوم الثوابت فى سماء مصر الصافية ، وقد ظل نفوذه مهيمنا لمدة طويلة بعد أن اجتازت الحضارة المصرية نقطة ذروتها وبدأت منحنى أفولها الطويل حتى أصبحت بلاد النيل والمعابد والاهرامات تابعة لليونان ثم الرومان ، وحتى خلال تلك الفترة المتأخرة كان أثرياء اليونان والرومان يزورون أطلال معابده فى مصر التماساً للشفاء ، ويتركون على جدرانها مخربشات تشهد بذلك الاله الطيب ..

هذا بعض ما قاله طبيب انجليزى حديث عن طبيب مصرى قديم .. أليس شيئا يدعو للبهجة ؟!

* * *

ولفرط حماستى لهذا الكتاب اقترحت ترجمته على هيئة الآثار للنشر فى سلسلة المائة كتاب ، وهى سلسلة رفيعة المستوى من مآثر الهيئة الخالدة ، ووافقت اللجنة المشرفة على النشر على هذا الاقتراح وعهدت إلى الدكتور محمود ماهر طه بمراجعة الترجمة .

وقد بذل الدكتور محمود ماهر طه جهدا حميداً فى مراجعة الترجمة مراجعة دقيقة ، وكثيرا ماكنا نتحاور فى تغيير كلمة واحدة أو طريقة كتابة اسم معين ، حتى جاء النص العربى غاية ما يمكن من الدقة والتطابق مع النص الانجليزى كلمة بكلمة .

ولا يقتصر فضل الدكتور المراجع على ذلك ، وانما أضاف كثيرا من الهوامش على النص لشرح أى غموض واضافة كل جديد أسفرت عنه الدراسات والأبحاث التالية لعل أهمها رسالة الدكتوراه لعالم الآثار الألمانى فيلدونج :

Dietrich Wildung, **Imhotep und Amenhotep, MÄS,** Heft 36, München-Berlin 1977.

وكذلك كتابه

Dietrich Wildung, **Egyptian Saints,** Deification in Pharaonic Egypt, New York 1977.

وعلاوة على كل ذلك قام الدكتور المراجع بانتقاء عشرات الصور والرسوم التوضيحية التى تزيد من ثراء الكتاب بالاضافة إلى صوره الأصلية .

كما تعاون المراجع والمترجم تعاونا وثيقا فى مراجعة بروفات الكتاب حتى يأتى خاليا من الأخطاء ، وصبرت السيدة آمال صفوت مديرة مطبعة هيئة الآثار صبراً جميلاً للانتهاء من الجمع والتصحيح والتوضيح والصور كى يخرج أول كتاب بالعربية عن إمحتب جديرا بعظمة هذه الشخصية الفريدة ، وجديرا بالقراءة المتأنية من القارئ الجاد .

والله ولى التوفيق

محمد العزب موسى

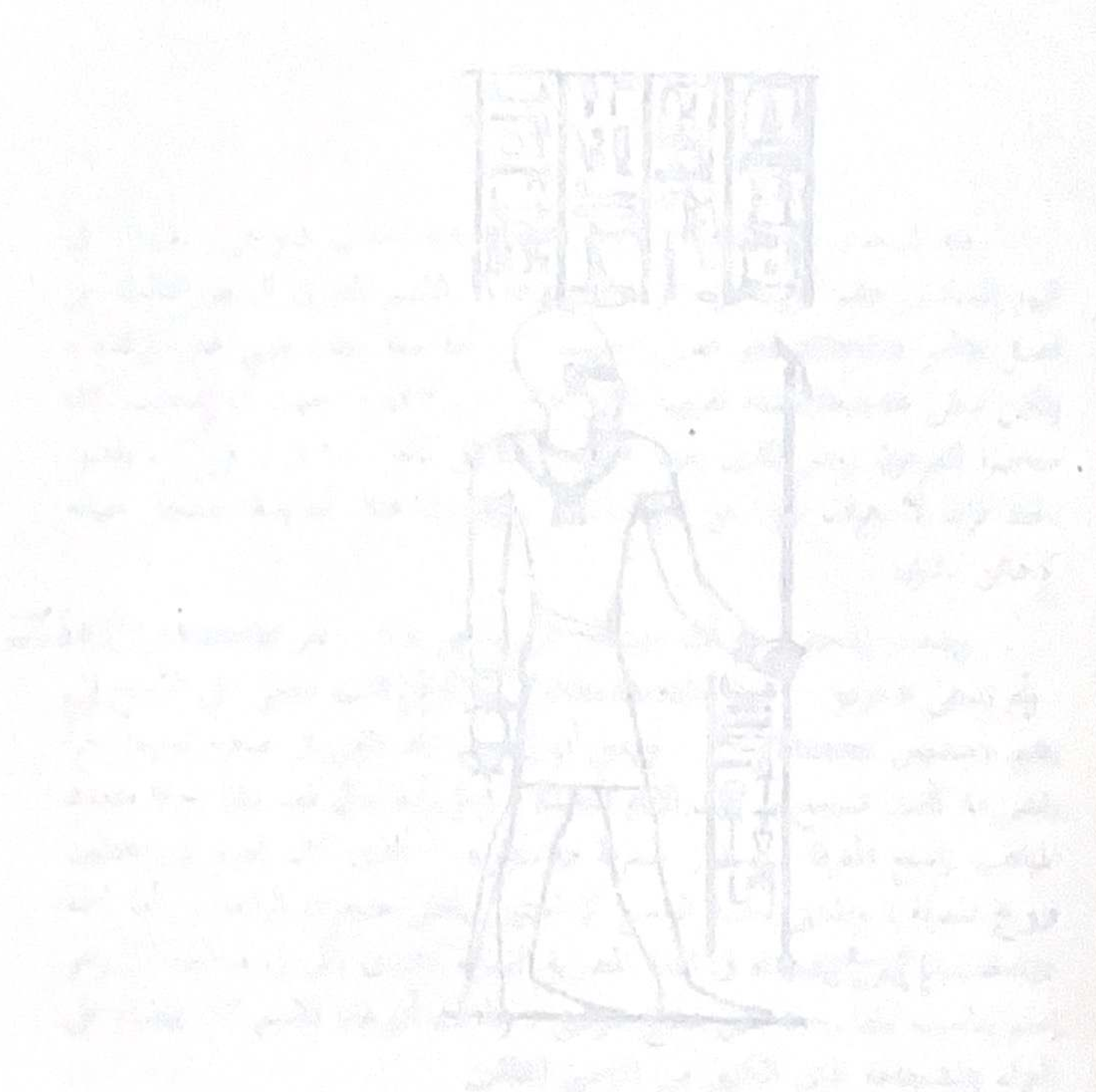
الفصل الأول

مقدمة

فى طفولة هذا العالم ، كانت مصر رائدة فى تطوير الطب ، واليها يرجع الفضل فى رفع العلاج إلى مستوى لم يبلغه أحد فى أى مكان آخر . فقد أحرزت تقدماً مدهشاً سواء فى تشخيص الأمراض أو علاجها ، حتى علم أسباب وأعراض الأمراض (الباثولوجى) أثار اهتماماً واسعاً لديها وتدلنا «بردية إدوين سميث Edwin Smith Papyrus» [1] على أن تشريح الجسم البشرى كان يزاول بصفة منتظمة فى تلك الأزمنة القديمة .

وأحرزت المدارس الطبية التى كانت ملحقة التحاقا وثيقاً بكهانة مصر ومعابدها شهرة كبيرة واسعة ، فكان أطباؤها المتخصصون يستدعون لعلاج الملوك والأثرياء فى بلاد بعيدة كما يحدثنا بذلك «هيرودوت Herodotus» [2] ، وكان تلقى أى طبيب أجنبى تعليماً فى مصر بمثابة جواز للنجاح ، وهذه الشهرة يعترف بها «هوميروس Homer» إذ يقول فى الأوديسة : «فى مصر الرجال ماهرون فى الطب أكثر فى أى جنس بشرى آخر» .

وخصصت معظم الأجناس القديمة فى العالم مكانا فى أساطيرها الدينية لواحد أو أكثر من آلهة الطب الذين عزت إليهم قوى سحرية فى شفاء المرضى وهم على شفا الهلاك ، فمثل هؤلاء الآلهة كانوا يعبدون بين الفرس والهنود والصينيين والبابليين والأزتيك والفينيقيين وغيرهم . وكثير من هؤلاء كانت لهم مقاصير يلجأ اليها الرجال والنساء الذين يعانون من الآلام العقلية أو الجسمية .



الفصل الثانى

إيمحتب كمعاصر للملك زوسر (حوالى ٢٩٨٠ ق.م.) [1]

والمصريون القدماء ، كغيرهم من الشعوب ، كانت لهم آلهة عديدة يعزون اليها اختراع مختلف الفنون والعلوم بما فيها الطب ، ومن هؤلاء الذين يشار اليهم فى هذا الصدد الإله «تحوت Thoth» [3] ذى رأس الإيبس والذى اشتهر باختراع الكتابة والحساب وتأليف كتب دينية وعلمية منها رسائل فى الطب ، وكذلك إله الشمس «رع Re» [4] ذى رأس الصقر ، والإلهة «إيزيس Isis» [5] صانعة المعجزات وابنها «حورس Horus» [6] ، والإله «بتاح Ptah» [7] إله منف القديم ، ومن آلهة الطب الأقل أهمية فى محفل الآلهة المصرى الإله «خنوم Khnum» ذو قرنى الكبش ، والإلهة «سخمت Sekhmet» [9] ذات رأس اللبؤة ، وكانا يعبدان فى بعض الأقاليم كإلهين للحمل والولادة [10] . ولكن كل هذه الآلهة ربما لم تكن أكثر من مخلوقات أسطورية من نسج الخيال ، وحتى إذا كان البعض منها مؤسسا على نموذج بشرى فى الأصل فإنها تظل رغم ذلك مفتقرة إلى فتنة الارتباط بشخصية بشرية معروفة ومحدده .

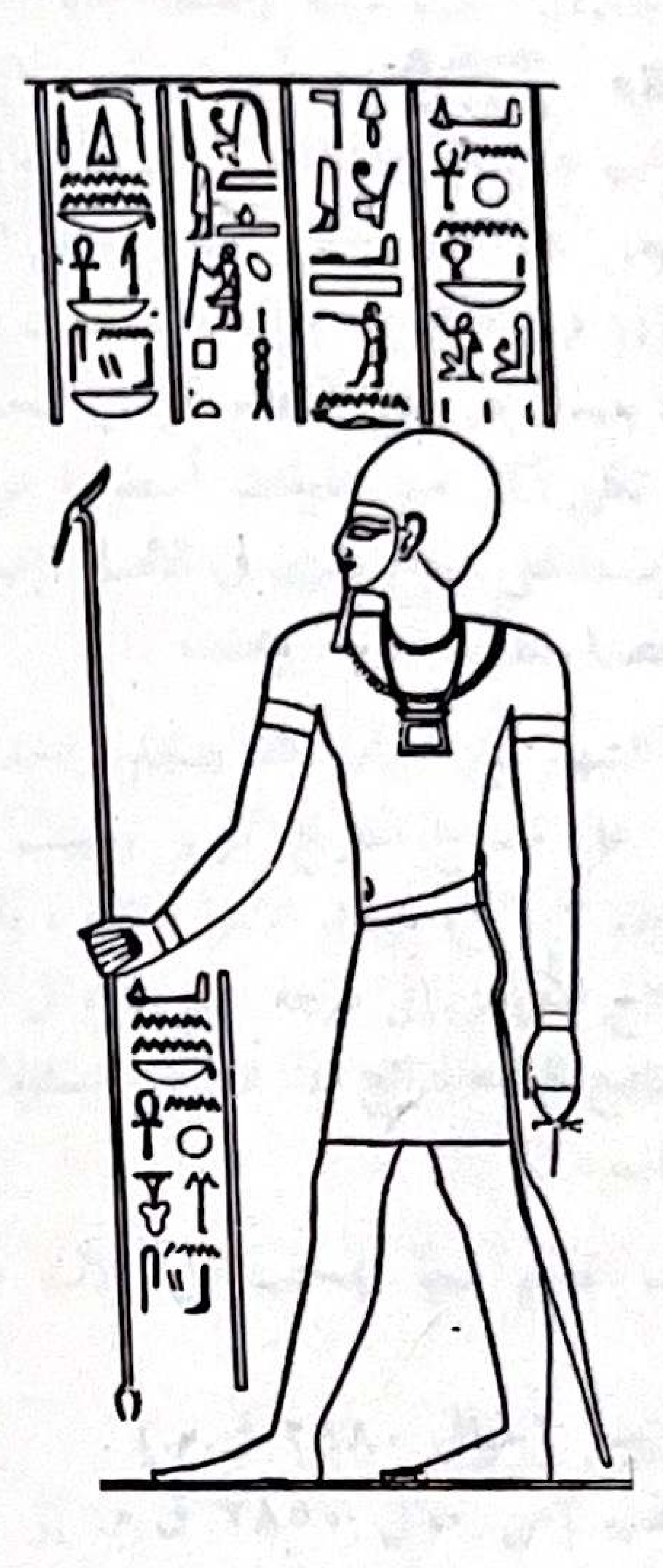
ولذلك ، فإن إيمحتب الشهير يثير اهتماما فائقاً يتجاوز الحد (صورةرقم ١ ، ٢) ، فهو قد ظهر لأول مرة على مسرح التاريخ كوزير وطبيب للملك «زوسر Zoser» (صورة رقم ٣ ، ٤) فرعون الأسرة الثالثة ، واستطاع أن يؤثر بشدة فى مواطنيه بمهارته فى علاج الأمراض إلى درجة أنهم رفعوه فى النهاية إلى مرتبة الإله الكامل للطب ، وسوف نتتبع تقدمه الرائع منذ أن كان مسئولا كبيراً فى بلاط الفرعون حتى تأليهه كرب للطب .

وقد يكون من المناسب تقسيم سيرة إيمحتب إلى ثلاث مراحل نبحثها تباعاً ، وهى :

١ – إيمحتب كمعاصر للملك زوسر [حوالى ٢٩٨٠ ق.م.] .

٢ – إيمحتب كنصف اله للطب [من حوالى ٢٨٥٠ ق.م. إلى حوالى ٥٢٥ ق.م] .

٣ – إيمحتب كاله كامل للطب [من حوالى ٥٢٥ ق.م. إلى حوالى ٥٥٠م] .



ولد إيمحتب فى «عنخ - تاوى Ankhtowe» إحدى ضواحى منف [٢] فى اليوم السادس عشر من شهر «أبيب Epiphi» [٣] الاسم المصرى للشهر الثالث من فصل «شمو Shomu» وهو فصل الحصاد [٤] . أما سنة مولده فهى غير مؤكدة ، ولكن يمكن تحديدها بصفة تقريبية بحوالى عام ٣٠٠٠ ق.م. حيث أن إيمحتب كان معاصرا للفرعون زوسر الذى يعود حكمه عادة إلى عام ٢٩٨٠ ق.م. [٥] ، ولسوء الحظ فإننا لا نعرف شيئا عن تاريخه المبكر ، وليست هناك أية وثيقة تسجل حياته ككائن بشرى .

وينحدر إيمحتب من أب مهندس بارز يدعى «كا - نفر Kanofer» [٦] وأم تدعى «خردو - عنخ Khreduonkh» [٧] كانت تنتمى على الأرجح إلى إقليم «منديس Mendes» [٨] . ويبدو أن إيمحتب قد تلقى فى صغره تعليما حرا بقدر ما كانت تسمح به تلك الأيام البعيدة ، وعلى أية حال فقد نشأ رجلا متعدد المواهب راسخ المعرفة من طراز عبقرية «أرسطو» [٩] الذى كان يجمع بين مختلف فروع المعرفة ، واشتهر بعلمه الواسع كما اشتهر ببعض منجزاته الرائعة . أما اسمه «إيمحتب» فمعناه فى اللغة المصرية القديمة «الذى يأتى فى سلام» [١٠] وهو إسم يناسب تماما رجلا يمتهن علاج المرضى ، ولاشك أن هذا الاسم كان يبعث على العزاء والشجاعة لدى الكثير من المرضى القلقين .

وقد كرس إيمحتب حياته لنشاطات مختلفة يمكن ادماجها تحت هذه العناوين : ١ - الوزير ٢ - المهندس ٣ - كبير الكهنة المرتلين أى الذين يقيمون الشعائر الدينية ٤ - الحكيم والكاتب ٥ - الفلكى ٦ - الطبيب الساحر .

وسوف نبحث هذه النشاطات تباعاً ، وهى النشاطات التى كان يقوم بها إيمحتب فى حياته البشرية كمعاصر للملك زوسر .

أولا : إيمحتب الوزير

إن منصب الوزير [١١] للفرعون الحاكم كان منصباً ينطوى على أعلى درجات الاحترام والمسئولية ، ومن يشغل هذا المنصب كان يشبه «يوسف» [١٢] الذى يمتد اشرافه ليشمل مختلف ادارات الدولة [١٣] . وبالرغم من أنه لم تصل إلينا أى واجبات محددة لمنصب الوزير فى عصر الملك زوسر [١٤] إلا اننا نعرف كثيرا من التفاصيل عن واجبات الوزراء فى عهد فراعنة مصر اللاحقين ، ويمكننا بلا تعسف أن نستنتج أن إيمحتب كان مكلفا بواجبات مشابهة [١٥] .

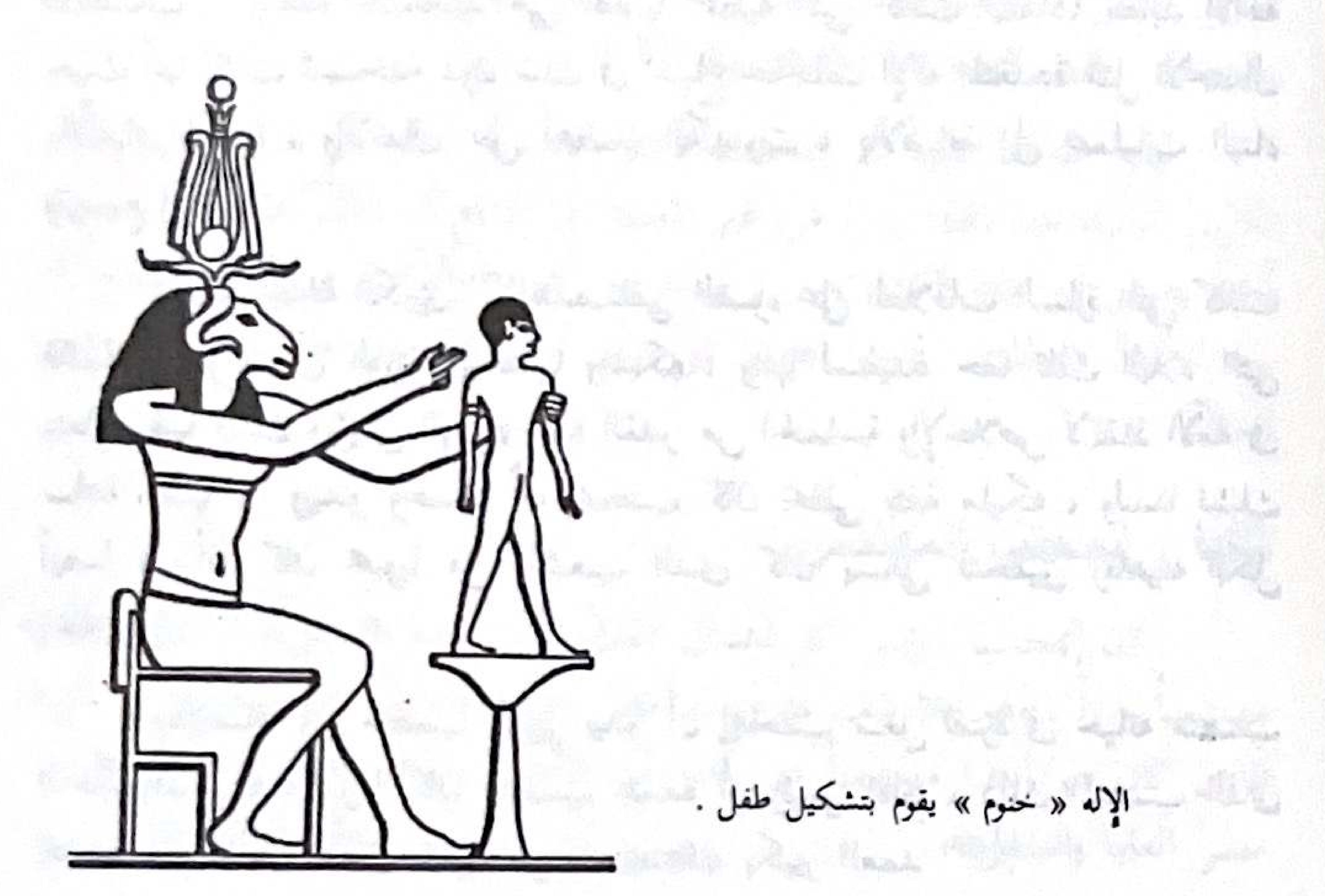
والقائمة التالية من الألقاب تدل فى حد ذاتها على تعدد مسئوليات من يشغل منصب الوزير ، فهو «كبير القضاة» و«المشرف على سجلات الملك» [١٦] ، و«حامل الخاتم الملكى» [١٧] و«رئيس كل أعمال الملك» و«المشرف على ما تأتى به السماء وما يخرج من الأرض وما يجلبه النيل» و«المشرف على كل شىء فى كل البلاد» . ومن الادارات التى يضمها منصب الوزير يمكننا أن نعد القضاء ، والخزانة ، والحرب (الجيش والبحرية) والداخلية ، والزراعة ، والسلطة التنفيذية العامة ، ولا شك أن قدراً كبيراً من الكفاءة كان مطلوبا للقيام بمثل هذه الواجبات المتعددة [١٨] .

وكان اسم الوزير تعقبه أحيانا صيغة التمجيد الملكى «له الحياة والرفاهية والصحة» ، وكان الناس يقبلون قضاءه كواحد ممن لايمكنهم ارتكاب الأخطاء . وقد شغل منصب الوزير فى عهد الدولة القديمة ثلاثة من كبار الحكماء وواضعى الأمثال الحكيمة وهم «إيمحتب ،وكاجمنى Kagemni [١٩] ، وبتاح حتب Ptah-Hotep [٢٠]

وهناك حادثة جديرة بالاهتمام تتعلق بوزارة إيمحتب فى عهد الملك زوسر مسجلة فيما يعرف بأسطورة «السنوات السبع العجاف» [٢١] . وهذه الأسطورة تصف فترة من المجاعة الشديدة حدثت بسبب قصور النيل لمدة سبع سنوات متعاقبات فى الوصول إلى مستوى فيضانه المعتاد ، وبالتالى عدم قدرته على رى الأرض

بالقدر الكافى للزراعة [٢٢] . وكانت النتيجة أن شحت الغلال وانقطعت تقريباً كل امدادات الطعام ، وقد عزيت هذه المجاعة إلى اهمال الملك فى تقديم واجبات العبادة والاحترام اللائق للإله «خنوم» [٢٣] ، إله الشلال الأول وأحد الآلهة الرئيسية التى تتحكم فى منابع النيل [صورة رقم ٥] .

وامتلأ الملك زوسر بالغم والهم لهذه الكارثة التى حاقت بالبلاد ، وطلب العون من وزيره الثقة إيمحتب ، وسأله عن المكان الذى يولد فيه النيل ، والإله الذى يتحكم فى ذلك المكان ، ولم يستطع إيمحتب إجابة مليكه على الفور فطلب أن يرحل فى أجازة قصيرة ليطلع على لفائف البردى الموجودة فى مكتبة كبار الكهنة . وبعد فترة وجيزة عاد إيمحتب وأطلع الملك على «العجائب الخفية التى لم يعرفها ملك من قبله منذ عصور بعيدة» . وعندما تلقى زوسر هذا التقرير ، كتب على الفور إلى نائب الملك فى النوبة طالبا نصيحته ومساعدته فى التغلب على الآثار المدمرة للمجاعة ، وسطر فى رسالته هذه الكلمات : «إن ذهنى ليعود إلى الأيام القديمة ، إلى زمن الآلهة التى حدثنى عنها ناصحى إيمحتب الإله ذى رأس الإيبس ، والوزير الأكبر ابن بتاح القائم فى سوره الجنوبى» [٢٤] .



الإله « خنوم » يقوم بتشكيل طفل .

وعلى أثر ذلك قام نائب الملك فى النوبة بالاستقصاء عن الإله الذى يتحكم فى النيل ، من أجل أن تُملأ خزائنه بالغلال ويُزار ويُسترضى (صورة رقم ٦) .

وفيما بعد قام الملك بزيارة شخصية إلى معبد «الإله خنوم» ليقدم له الصلوات والقرابين ويسترضيه بالمعطيات . واستجاب «خنوم» لرجاء الملك فظهر له فى الحلم ووعده بأن النيل سوف يرتفع ولن يهبط مرة أخرى ، وقال له :

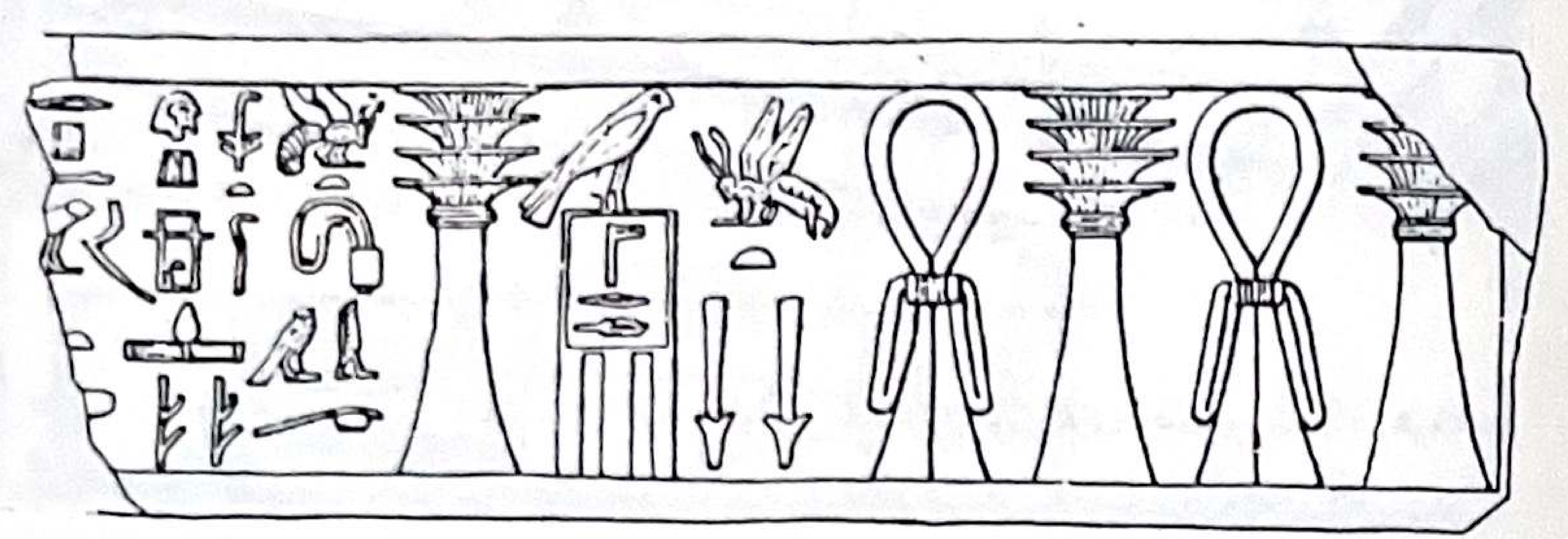
«سوف ينشر النيل مياهه
ويغطى كل الأرض حتى الإرضاء
سوف تنحنى النباتات تحت ثقل ما تحمل (من الثمار) ...
وتنتهى المجاعة
ولن تعود صوامع الغلال خالية مرة أخرى»[٢٥] .

واعترافا بفضل «خنوم» الذى جاء تدخله فى الوقت المناسب ، أصدر الملك «زوسر» مرسوماً بعد أخذ مشورة وزيره إيمحتب ، بإهداء الإله شريطا من الأرض طوله أكثر من سبعين ميلا على جانبى النيل ، مع كل دخله وضرائبه ، كما منح معبد الإله هدايا ثمينة جميعها من الذهب والعاج والأبنوس والتوابل والأحجار الكريمة و الأخشاب . وهذه بالتحديد هى الهدايا النمطية التى كانت تتلقاها معابد الآلهة حيث أنها كانت تستخدم دون شك فى اشباع حاجات الإله المتعددة مثل الاحتفال بالأعياد الكبيرة ، والانفاق على أعضاء الكهنوت ، بالاضافة إلى عمليات البناء وتوسيع المنشآت[٢٦] .

وقصة المجاعة الكبرى[٢٧] هذه تلقى الضوء على العلاقات السارة التى كانت قائمة بوضوح بين الوزير إيمحتب ومليكه ، وانها لسعيدة حقا تلك البلاد التى يتعاون فيها الملك ورئيس الوزراء بهذا القدر من الحماسة والإخلاص لانقاذ الأمة فى ساعة محنتها . ويبدو واضحا أن إيمحتب كان يحظى بثقة مليكه ، ولسنا نشك أيضا فى أنه كان محبوبا من الشعب الذى كان يسعى لتحقيق رفاهيته بكل إخلاص .

وبالإضافة إلى منصب الوزير يبدو أن إيمحتب شغل لفترة فى حياته منصب «حاكم إقليمى» ، وربما كان منصب عمدة أو رئيس اقليم ، ذلك المنصب الذى يحدده عالم الآثار الألمانى «بروجش Brugsch» بكبير العمد[٢٨] .

فى يناير ١٩٢٦ عُثر على تمثال للملك زوسر [صورة رقم ٧] بالقرب من هرمه المدرج يبدو أنه مرتبط بالوزير إيمحتب ، فعلى قاعدة التمثال ، التى كانت محطمة للأسف إلى عدة قطع ، نقشت سلسلة من الألقاب يتلوها اسم صاحبها «إيمحتب» الذى أهدى فيما يبدو هذا التمثال للملك .



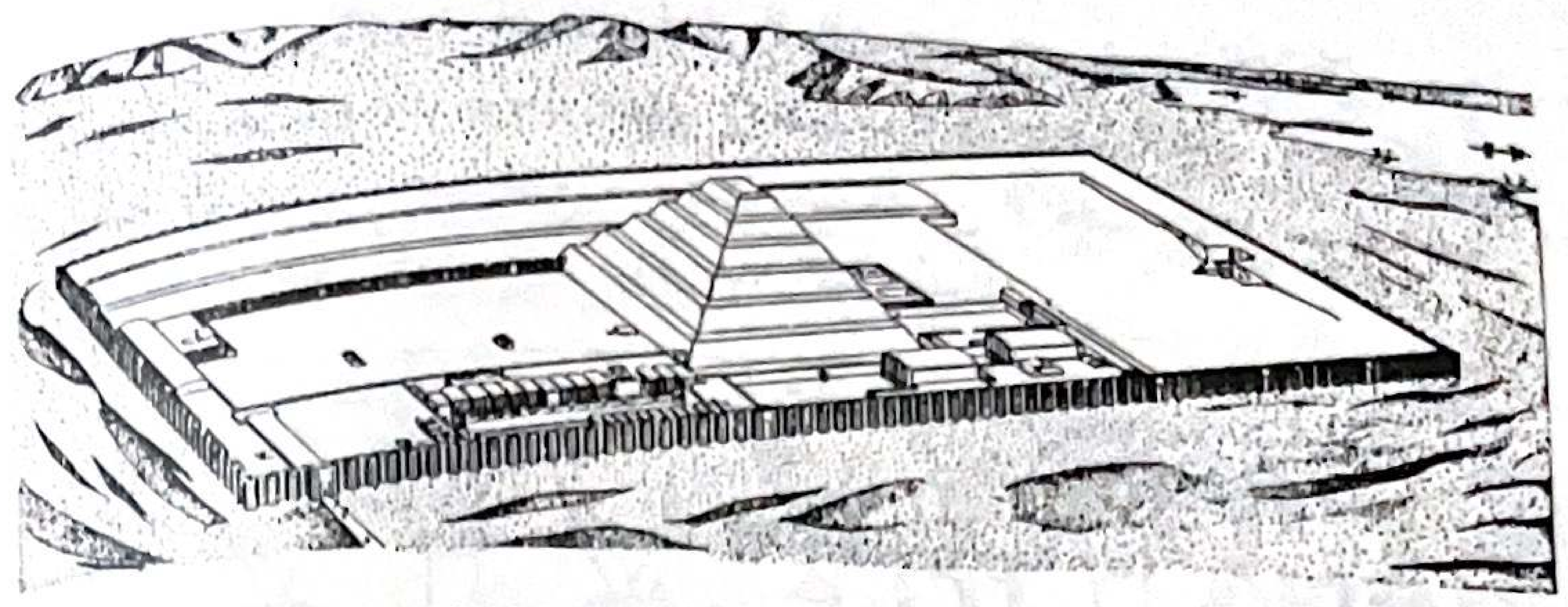
قاعدة تمثال للملك « نترخت » (زوسر) – المتحف المصرى .

وقد قام عالم المصريات «ب. جن B.Gunn» الذى أعاد تركيب القاعدة ونشر مقالة قيمة عن التمثال بقراءة هذه الألقاب على النحو التالى : «مستشار ملك مصر السفلى . أكبر رجال ملك [مصر العليا ؟] مدير البيت الكبير . النبيل بالوراثة . كبير كهنة أون : إيمحتب»[٢٩] .

ومن المؤكد تقريباً أن إيمحتب المشار اليه فيما سبق هو نفسه الوزير الذى نكرس لذكراه هذا المجلد ، إذ من غير المعقول فى الواقع أن يكون هناك «إيمحتب» آخر يعيش فى أيام الملك زوسر ، ويبلغ من البروز والأهمية درجة أن يسمح له بإهداء تمثال للملك . وبهذا نحصل على دليل ثمين آخر يدل على معاصرة إيمحتب للملك زوسر .

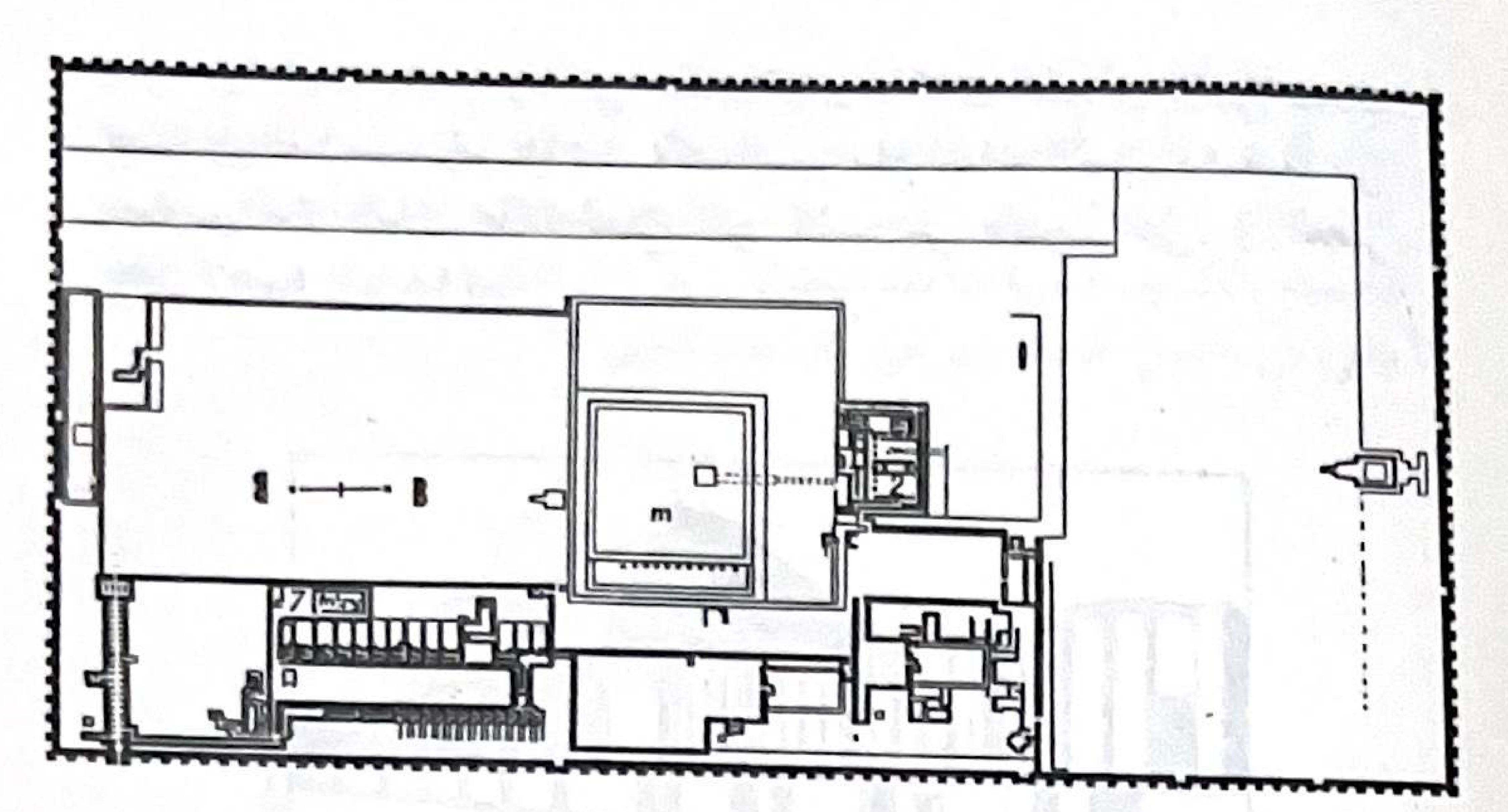
ثانيا : إيمحتب المهندس

كان إيمحتب «رئيس كل أعمال الملك لمصر العليا والسفلى»[٣٠] مهندساً بارزاً ، وهو بلا شك قد ورث بعض خبرته الهندسية عن أبيه «كا – نفر» الذى كان هو أيضا مهندساً على قدر من الامتياز ، وكان يحمل لقب «مهندس مصر العليا والسفلى» .



منظر تخيلى لما كانت عليه مجموعة الملك « زوسر » بسقارة .

والاحتمال قوى للغاية فى أن يكون إيمحتب هو الذى صمم لمليكه هرمه المدرج الشهير بسقارة [صورة رقم ٧ ، ٨] بالقرب من منف والمألوف لكل زائر لبلاد النيل [٣١] ، وهذا الهرم بمثابة خطوة انتقالية بين مقابر المصطبة التى كان يستخدمها الملوك السابقون ، والهرم الكامل الذى نقابله فى الأسرة التالية [الرابعة] ، وقد أنشىء بوضع خمس مصاطب متصاغرة فوق المصطبة الكبيرة الحجم [٣٢] ، ولم تكن له مطلقا الكسوة الحجرية الخارجية التى تصنع منه هرماً كاملا ، ويبلغ طول ضلعيه الشرقى والغربى ٣٩٦ قدماً وطول الضلعين الشمالى والجنوبى ٣٥٢ قدماً بينما يبلغ ارتفاعه نحو ١٩٥ قدماً . وارتفاع المصاطب الست تباعاً ٣٨ ، ٣٦ ، ٣٤ر٥ ، ٣٢ ، ٣١ ، ٢٩ر٥ قدما ، فى حين أن عرض العتبات التى تحيط بالمصاطب يتراوح بين ٦ ، ٧ أقدام . ولقد أقيم البناء بكتل من الحجر الجيرى جُلبت من التلال المجاورة ، أما القاعات والدهاليز التى فى الداخل فقد كسيت بقوالب من القاشانى المصقول الأزرق والأخضر تحمل أسماء الملك وألقابه [٣٣] [صورة رقم ٩ ، ١٠] . وتلتقى الدهاليز المتعددة فى بئر ضخم أخفى تحته مكان حفظ جثمان الفرعون الميت وأثاثه الجنائزى الثمين [٣٤] . ويقال عادة أن هذا الهرم هو أقدم بناء حجرى ضخم معروف فى التاريخ ، وجرت العادة على تسميته بهرم زوسر المدرج [٣٥] .

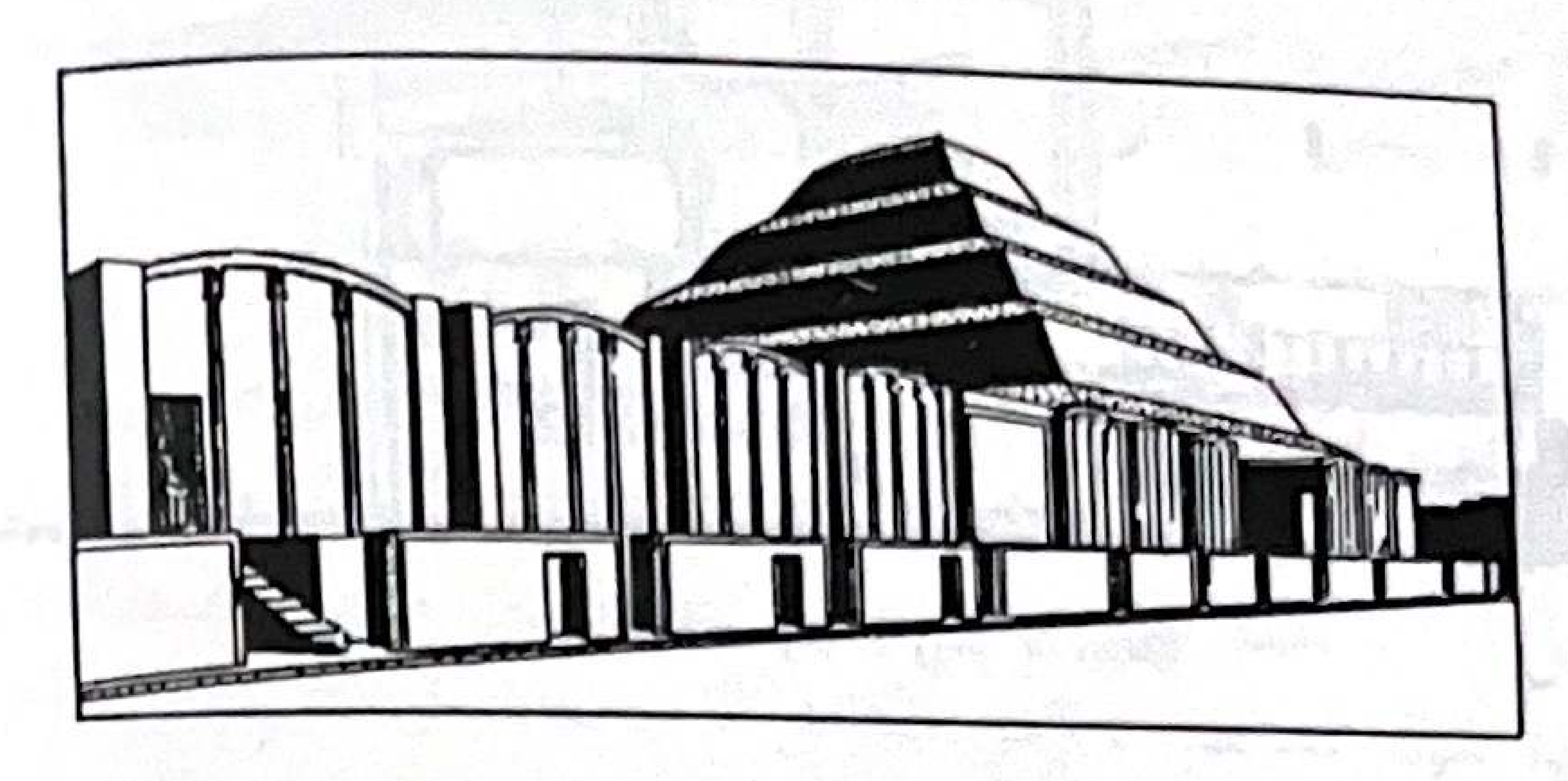


مسقط مجموعة « زوسر » بسقارة .

ويدل الهرم المدرج بسقارة [٣٦] على مستوى عال من المدنية ، فلابد أن كان هناك ثراء كبير فى خزانة الفرعون ، وحكومة مستقرة بفضل هذا الوزير وغيره من المسئولين ، وخبرة فى تنظيم العمل ، وقدرة على الاحتفاظ بحسابات معقدة ، ومهارة فنية فى قطع الأحجار من المحاجر ، وتشذيبها ونقلها . وفى كل هذه الدلائل على الرخاء الاقتصادى يمكننا أن نرى جزئياً على الأقل عبقرية الوزير إيمحتب ، ولسنا نشك فى أن نجاح المصريين فى إقامة هذا الهرم الأول ، الذى ربما كان أقدم بناء فى التاريخ من الحجر المنحوت ، قد مهد الطريق لظهور الأهرامات الضخمة التى أعقبته [٣٧] .

وقد كشفت الحفريات الحديثة التى أجرتها مصلحة الآثار المصرية [٣٨] فى سقارة عن بعض المبانى البارزة الأخرى التى ربما أقامها إيمحتب أيضا فى وقت بناء الهرم المدرج [٣٩] [صورة رقم ١١ ، ١٢] ، وتتكون من سور ضخم محيط بالهرم طوله ٥٠٠ ياردة وعرضه ٣٠٠ ياردة ودهليز جميل من الأعمدة يبلغ طوله ٨٥ ياردة ويبدو أنه كان المدخل الرئيسى للمجموعة الهرمية [الصور من ١٣ - ١٦] وضم ٤٨ عمودا من الحجر الجيرى الأبيض منسقة على الجانبين زوجين اثنين ، ونحت كل

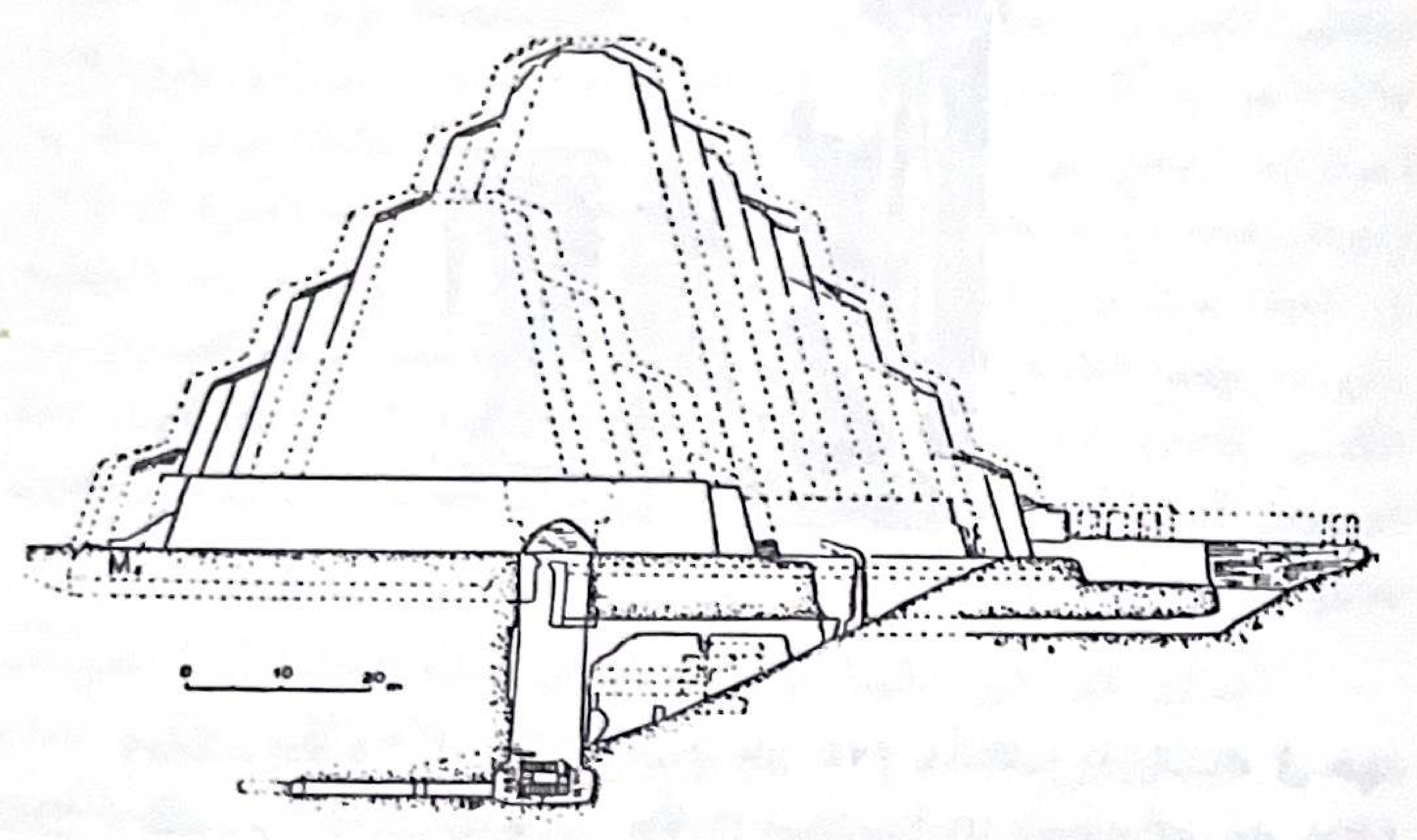
عمود منها بحيث يشبه حزمة من سيقان البردى ، كانت تعلوه فى الأصل تيجان البردى وأوراقه [صورة رقم ١٧] . وكان السور يبلغ ارتفاعه الأصلى ٢٣ قدماً بنى بأسلوب الغائر والبارز محاكاة للقلاع التى كانت تبنى بالطوب النيء فى العصر العتيق [صورة رقم ١٨] .



المقصورات الغربية فى معبد اليوبيل – مجموعة « زوسر » بسقارة .

وتقدم مجموعة سقارة المعمارية نموذجاً طيباً للظاهرة المميزة التى كانت شائعة فى الفن المصرى القديم ، وهى محاكاة الأشياء المصنوعة من مادة ما بأشياء مصنوعة بمادة أخرى . وهكذا نجد أن الخشب يحاكى بالحجر ، وهناك أعمدة قائمة فى الفواصل الرقيقة تنبعث منها الأشعة الضوئية كى تحاكى الأبواب . ومن التفاصيل التى تدعو للدهشة ذلك التقليد المتبع فى معالجة الأبواب نفسها ، فكلما كانت هناك فتحة مؤدية إلى غرفة صغيرة كانوا يصنعون بابا حجريا كى يشبه الباب الخشبى بالرغم من عدم وجود نية لتحريك ذلك الباب ، فهذه المحاكاة ليس لها سوى غرض معمارى بحت [صورة رقم ١٩] . والأبواب نفسها تختلف فى أشكالها فالبعض يبدو مفتوحاً على اتساعه ، وأبواب أخرى مفتوحة جزئياً كى تسمح فقط بالمرور [٤٠] . ومن الواضح أن هذه المبانى العظيمة تمثل تقدماً فى أسلوب معمارى كانت له من قبل بدايات متواضعة ، واستمر فيما بعد فى العمارة المصرية [صورة رقم ٢٠] .

وقد دلت الاكتشافات الحديثة على أن الهرم المدرج كان فى الأصل مغطى بكسوة من الحجر الجيرى الناعم تبرز مدرجاته المتعاقبة ، أى أن الهيكل المدرج الذى نراه حاليا كان مجرد القلب الخشن الذى أقيم على هذا النحو كى تجرى تكسيته بالكسوة الحجرية الناعمة البيضاء . ولا تزال التنقيبات جارية فى هذا الموقع والتى من المحتمل أن تكشف عن آثار هامة أخرى [٤١] .



مراحل بناء الهرم المدرج بسقارة .

ويثير هرم سقارة والمعابد الملحقة به اهتماماً خاصاً عندما نتذكر أنه مقبرة عملاقة بنيت كى تكون المقر الأبدى للملك «زوسر» عندما تنتهى حياته الأرضية بالموت . حيث تضافرت المهارة التكنولوجية والفن فى انسجام رائع من أجل تقديم مقر للجزء الخالد من الملك ليمكن تزويده بالحياة والعناية [٤٢] [صورة رقم ٢١ ، ٢٢] .

كما يرتبط اسم إيمحتب بمعبد مبكر فى «إدفو» لم يبق منه شىء الآن ، ولكن قيل أنه أُنشىء طبقا لخطة أنزلت من السماء إلى الأرض بالقرب من مدينة منف . فهناك نقش فى «معبد إدفو» الحالى يقول «إن سيد البنائين إيمحتب ابن بتاح ، إله

منف العظيم ، وقد وحد الأب والابن قواهما وأقاما المعبد الأول فى إدفو فى مرحلة مبكرة من تاريخ مصر» [٤٣] . ومن المحتمل أن كان هناك معبد قديم فى نفس مكان «معبد إدفو» الحالى أقامه إيمحتب فى أيام الملك «زوسر» [٤٤]



معبد إدفو

و«معبد إدفو» الرائع الحالى [صورة رقم ٢٣] بدأ العمل فى إنشائه فى عهد الملك «بطلميوس الثالث يورجيتس الأول Ptolemy III Eurgetes I» عام ٢٣٧ ق.م. وتم بناؤه فى عام ٥٧ ق.م. [٤٥] ويوجد نص فى المعبد يصف إيمحتب بأنه «الكاهن الأكبر إيمحتب ابن بتاح الذى يتحدث أو يحاضر» . وبالرغم من أن عمر هذا المعبد يصل إلى أكثر من ألفى عام إلا أنه لا يزال فى حالة جيدة ويبدو كتحفة معمارية ، وهو دليل على المعاملة الكريمة التى كانت تلقاها الديانة المصرية من ملوك البطالمة الذين أقاموا مثل هذه المبانى العظيمة فى مختلف أنحاء البلاد والتى كان بعضها له علاقة بإيمحتب ، كمعابد إدفو وفيلة ودير المدينة [٤٦] .

ويبدو أن إيمحتب كان العضو الثانى من شجرة نسب طويلة من المهندسين العظام تبدأ بأبيه «كا – نفر» وتنتهى بـ «خنوم – إب رع Khnum-ib-Re» الذى كان وزيرا للأشغال العامة فى كل البلاد ، ومهندسا لمصر العليا والسفلى من العام ٢٧ إلى العام ٣٠ خلال حكم الملك «دارا الأول» [حوالى ٤٩٠ ق.م.] [٤٧] .

ثالثا : إيمحتب كبيرا للكهنة المرتلين .

كان الكهنوت المصرى ينقسم إلى طبقتين رئيسيتين من الكهنة : الطبقة العليا وتضم المتنبئين أو خدام الآلهة «حمو – نتر hmw-ntr» [٤٨] والطبقة الدنيا التى تضم الكهنة العاديين «وعب» [٤٩] . وكان البعض من الكهنة موظفين دائمين فى المعبد ، فى حين أن آخرين يخدمون بصفة دورية فيأخذون اجازة ثلاثة أشهر بين كل فترتى خدمة ، وكان كبير الكهنة المرتلين ، أى الذى يقوم بتلاوة الصلوات ، ينتمى إلى الطبقة العليا ويلتحق بالمعبد بصفة دائمة حيث تناط به واجبات هامة ، أحد هذه الواجبات حضور مراسم العبادة اليومية [صورة رقم ٢٤] فى المعبد حيث يرش تمثال الإله بالماء ، ويبخره بالبخور ، ويلبسه ثيابه ، ويطيبه بالزيت ، ويضع الكحل فى عينيه ، ويزينه بالحلى . وكان عليه أن يتلو الصلوات من الكتب المقدسة عند ممارسة الطقوس الدينية فى المعبد [٥٠] . ولما كانت هذه النصوص الدينية طبقا للعقيدة المصرية لها قوة سحرية ، لذا كان الناس العاديون يعتبرون الكاهن ساحراً .

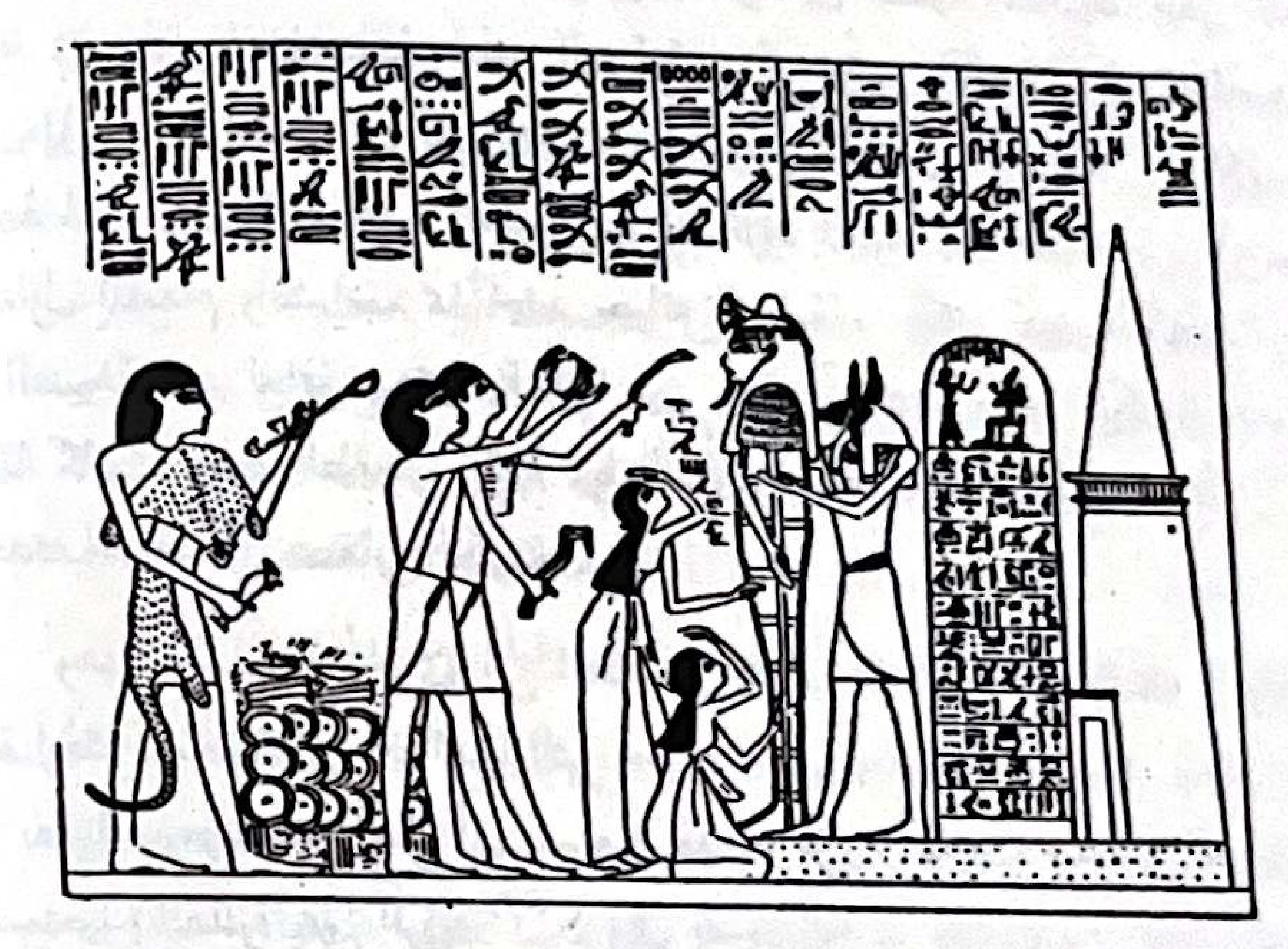
وكذلك كان كبير الكهنة المرتلين يشارك فى عملية التحنيط ويقرأ التعويذات المناسبة فى المراحل المختلفة لهذه العملية ، ثم يرأس الاحتفالات الخاصة بتقديم القرابين إلى روح الميت ، والتى سميت «بطقوس القرابين الجنازية» [٥١] وكان المقصود بالصيغة التى تقرأ أثناء هذه الطقوس ، أن تزود الميت بعد قيامه من الموت بالقدرة على تناول الطعام والشراب مما يجدد حياته البدنية . وكان كبير الكهنة المرتلين يقرأ هذه الصيغة من لفافة بردى يحملها بين يديه ويرددها وراءه الكهنة المساعدون ، وأحيانا كانت هذه الطقوس يقوم بها الكاهن الملقب بـ «سم Sem» [٥٢] تساعده جوقة من صغار الكهنة .

وهناك سلسلة أخرى من الطقوس تعرف باسم «فتح الفم» ، والهدف منها اعادة الجثة الهامدة إلى وظائفها التى حرمت منها بالموت والتحنيط ، وفيها يجرى فتح الفم بطريقة رمزية من أجل أن يستعيد قدرته على الكلام ، وتلمس العينين من أجل أن تستعيدا القدرة على الرؤية [٥٣] ، وفى نفس الوقت يجرى ذبح عجل للحصول على طعام ، وتجرى احتفالات أخرى تمكين الميت من ارتداء الملابس والتدهن بالطيب الخ

حتى يشبه من جميع الوجوه الجسم البشرى الحى ، وتنتهى الطقوس بتلاوة النصوص المناسبة ولمس صندوق المومياء بصولجان يشبه حرف بالهيروغليفية [صورة رقم ٢٥] وعندما تنتهى هذه المراسم جميعا يدلى الجسد إلى القبر وتغلق فتحته . وفى نفس الوقت تبدأ حفلة جنازية سخية فى الغرفة الداخلية للقبر حيث يقبل المعزون على الأكل والشراب بينما يسليهم الموسيقيون والراقصات ، وبمصاحبة ألحان القيثارات وغيرها من الآلات الموسيقية تنشد المدائح فى مناقب الميت ، والأغانى التى تتحدث عن الحياة والموت [٥٤] .

وفى طقوس «فتح الفم» أيضا يُعد كبير الكهنة المرتلين مسئولا عن سير المراسم [٥٥] ، وبالرغم من أن له عديدا من المساعدين وبوجه خاص الكاهن الذى يحمل لقب «سم» وهو يقوم بالدور الرئيسى فى كثير من المراحل [٥٦] .

ومن المؤكد أن كبير الكهنة المرتلين «خر – حب Kher-heb» [٥٧] كان ينظر اليه باحترام بالغ فى كل أنحاء مصر . وبالطبع فإنه من الناحية النظرية كان الملك هو الكاهن الوحيد ، وهو الذى يقوم متقمصا «حورس» بكل مراسم الجنازة للشخص الميت المتجسد فى أبيه «أوزيريس» ، ولكن فى نظر الناس العاديين كان



طقوس فتح الفم .

كبير الكهنة المرتلين يمثل الملك ، ويملك قوى سحرية ترفعه فوق مستوى البشر ، وكان كل شخص يتوقع الموت يبنى آماله على الخلود والسعادة فى الدار الثانية ، وعلى كفاءة التعاويذ والكلمات السحرية التى تستخدم أثناء مراسمه الجنائزية [٥٨] .

رابعا : إيمحتب الحكيم والكاتب

اشتهر إيمحتب بأنه «واحد من أعظم الحكماء المصريين» [٥٩] وقد تركت شهرته بالحكمة انطباعاً لدى مواطنيه ظل حياً فى أذهانهم كتراث وطنى لعدة قرون .

وفيما يتعلق بنشاطه التأليفى يقال أنه وضع كتباً فى الطب والهندسة وفى بعض الموضوعات العامة الأخرى ، وظلت بعض مؤلفاته موجودة حتى فجر العصر المسيحى . وكانت أمثاله التى تجسد خبرته فى الحياة يجرى تناقلها من جيل إلى جيل وهى تمتاز بسحرها وأسلوبها الشاعرى ، حتى أن الناس كانوا يصفون مؤلفها – أى أيمحتب – بأنه «رب الشعر» .

وهناك أغنية ، أو بالأحرى ترنيمة جنائزية ، تعرف بأنشودة «عازف القيثار» [٦٠] نجت من براثن الزمن ووصلت الينا ، تربط بين اسمى إيمحتب و«حرددف Hardedetf» [٦١] . وفى هذه الأنشودة يتحدث هذان الحكيمان بإسهاب عن قصر الحياة ولا أدريتها [صورة رقم ٢٦] ويدافعان عن النظرية التى تقول : حيث أن الإنسان سوف يمضى عاجلا ويذهب إلى عالم النسيان فعليه أن يتمتع بحياته حتى الثماله ، وهى فلسفة يرددها الكثيرون فى كل عصور العالم ، [٦٢] ومنطوقها «فلنأكل ونشرب ونمرح فغداً سوف نموت» . وهذه القصيدة كانت فيما يبدو محببة للغاية لأجيال المصريين حيث وصلت الينا نسخ عديدة منها تفصل بينها قرون عديدة ، وأقدم نص لدينا منها وُجد منقوش فى مقبرة «انتف Intef» [٦٣] أحد ملوك طيبة ، وبجانبه رسم لعازف القيثار . والمؤكد أنها كانت تُغنى بواسطة منشد للترويح عن الضيوف فى الاحتفالات الجنائزية ، وهدفها أن تذكرهم بقصر الحياة حتى وهم يتمتعون بها . وهكذا فإن فكرة الموت لا تستخدم هنا لجلب الحزن ، وانما للحث على المزيد من التمتع بالحياة [٦٤] .

وفيما يلى ترجمة لهذه الأنشودة التى تعطى إنطباعاً قوياً وتعكس قوة المشاعر والإيقاع فى الأدب المصرى بالرغم من عدم وجود أبيات شعرية متوازية :

«أغنية بيت الملك المبارك انتف Intef
مكتوبة أمام عازف القيثار
ياله من سعيد هذا الأمير الطيب
إن مصيره الحسن قد آل للإنتهاء ..

★ ★ ★

أجساد تذهب
وأخرى تجىء
هكذا الحال منذ زمن الأجداد
منذ زمن الآلهة الغابرة
الذين يستقرون الآن فى أهراماتهم
والنبلاء والعظماء الذين رحلوا ودفنوا فى مقابرهم

★ ★ ★

هؤلاء الذين شيدوا لأنفسهم الأهرامات والمقابر
إن ديارهم لم يعد لها وجود
ترى ما الذى جرى لهم ؟ !

★ ★ ★

لقد سمعت أقوال «إيمحتب وحرددف»
تلك الأقوال التى جرت مجرى الأمثال
ترى أين ديارهما (الآن) ؟

لقد تداعت جدرانها
ولم يعد لها أثر
كأن لم تك بالأمس ! [٦٥]
إن أحدا لم يأت من هناك
ليخبرنا ماذا يفعلون
أو ماذا يحتاجون
كى نريح قلوبنا
قبل أن نرحل نحن الآخرون
إلى المكان الذى رحلوا إليه

★ ★ ★

عش حياتك سعيدا
حتى ينسى قلبك مصيرك المحتوم
حين يأتى رجال يشيعونك إلى مثواك الأخير
وانشد المتعة باشباع رغباتك
طالما أنت على قيد الحياة
ضمخ رأسك بطيب الراتنج [٦٦]

وارتد الكتان الرقيق
واسعد بالمتع الحقيقية التى منحتها الآلهة

★ ★ ★

ضاعف مما يبهجك
ولا تدع قلبك يذبل
اتبع رغباتك ، وبر نفسك
وافعل كل مابدا لك على الأرض

ولا تحيّر نفسك
إلى أن يأتى يوم العويل عليك
ولكن ذا «القلب الهادئ» [٦٧] لن يسمع عويلهم
ولن يعيد البكاء أحداً من القبر

* * *

إقض يومك فى سعادة
وابعد القلق عن قلبك
أنظر .. إن أحدا لا يأخذ أمواله معه
ولا أحد يعود من حيث رحل .

ليس من الإنصاف بالطبع أن نحكم على فلسفة إيمحتب بناء على هذا الأساس الواهى الذى تقدمه لنا أنشودة «عازف القيثار» ، فالمؤكد بالنظر إلى خلود شهرته أن كانت له حكم وأمثال تحوى حضا على الفضائل العليا ، كما أن إسمه يرتبط أحيانا باسمى حكيمين شهيرين آخرين فى مصر ، هما «كاجمنى Kagemni» [٦٨] الذى عاش فى عهد الملك «حونى Huni» آخر ملوك الأسرة الثالثة ، و«بتاح حتب» وزير الملك «إسيسى» من الأسرة الخامسة [٦٩] ، وكل منهما له حكم بالغة الجمال .

ويمكن هنا أن نقتبس دُرة من «تعاليم بتاح حتب» التى تحض على فضيلة التواضع كمثال يبين الفضائل العليا للمصريين :

«إذا أصبحت عظيماً، بعد أن كنت متواضع الشأن ، وأصبحت تملك الثروة بعد أن كنت محتاجاً فى المدينة التى تعرفك ، فلا تنس كيف كان حالك فى الزمن الماضى ، لا تغتر بالثراء الذى جاءك كمنحة من الإله ، (فأنت لست أفضل) من أى شخص آخر يماثلك ثم حدث له ما حدث (أى الفقر بعد الغنى)» [٧٠] .

وانه لمن الممتع حقا أن نسمع عبر إمتداد الزمن أصواتا تردد هذه الفلسفة التى ابتدعها حكماء أمة قديمة زالت عظمتها الآن [٧١] .

وكان إيمحتب يشغل منصب «الكاتب الملكى» ، وهو منصب مرموق ، إذ أن أعمال الحكومة كانت تجرى عبر المكاتبات ، وقد وصل إلينا العلم بهذا المنصب من نقش على معبد «دابود Dabud» بالنوبة [٧٢] [صورة رقم ٢٧] يعود إلى زمن الملك النوبى «أزخير – آمون Ezekher- Amun» وهو معاصر للملك «بطلميوس الخامس Ptolemy V» ، [٧٣] وفيه يوصف إيمحتب بأنه «كبير كتاب الغلال لمصر العليا والسفلى» . ومما لا شك فيه أنه عن طريق هذا المنصب كان يمثل حلقة الوصل بين الملك زوسر والمسئولين الحكوميين . وسوف نرى فى الفصل التالى أنه أصبح معترفا به كـ «رب للكتاب Patron of scribes» [٧٤] .



الإله « تحوت » .

خامساً : إيمحتب الفلكى

إذا كنا لنأخذ الإشارات التى وردت عن إيمحتب فى الآداب السحرية على أنها جديرة بالتصديق لقنا أن إيمحتب كان مهتما أيضا بالفلك والتنجيم ، رغم عدم وجود أية ملاحظات خاصة فى هذا الصدر مرتبطة بإسمه . وعلى أية حال ، ربما كان ممن يعتقدون فى تأثير الأجرام السماوية فى مصائر البشر ، جرياً على ما كان عليه الاعتقاد فى العصر الفرعونى .

فقد أُشتهر عن إيمحتب إرتباطه بالإله «تحوت Thoth» (هرمز Hermes باليونانية) [٧٥] فيما يتعلق بالملاحظات الفلكية . والمعروف أن الإله «تحوت» تعزى إليه معرفة خاصة بالفلك ، وبكثير من العلوم الأخرى [٧٦] .

وكان الاعتقاد بتأثير النجوم فى المصير البشرى شائعا عالميا ، وهذه العقيدة أدت إلى الاهتمام بدراسة حركة الأجرام السماوية وخسوف وكسوف الكواكب وطول السنة النجمية [٧٧] ، كما أدت إلى الربط بين الشمس والقمر والنجوم وبين الآلهة الرئيسية فى محفل الآلهة المصرى [صورة رقم ٢٨] . وكان أعضاء الأسرة الحاكمة والنبلاء يعبدون الشمس والقمر كأرباب رئيسية فى مجمع الآلهة المصرية ، ولذا فليس مما يدعو إلى الدهشة أن يكتشف هؤلاء القدماء بعض القوانين الأساسية فى الفلك ، ويربطون بينها وبين الأحداث الخطيرة ذات الأهمية القومية أو تلك التى تقع فى حياة الناس العادية .

ولاشك أنها درجة عالية من الدقة فى مراقبة النجوم تلك التى سمحت للمصريين بمعرفة أن المدار البيضاوى للنجم «سوتيس Sothis» (نجم الكلب) [٧٨] (سيريوس Sirius : الشعرى) يعطيهم سنة محددة بشرط إضافة ربع يوم إلى كل سنة ، ولا يعرف بالتحديد متى توصل المصريون إلى ذلك ، ولكن المؤكد أنها معرفة بالغة القدم تضرب فى أعماق التاريخ المصرى ، كما أن توجيه الأهرامات حسب الجهات الجغرافية يدل كذلك على مهارة فنية فى مراقبة السماوات [صورة رقم ٢٩] . وقد حصلوا على هذه المهارة فى الألف الثالث قبل الميلاد ، فكل الأهرامات مبنية بحيث يكون لها قواعد مربعة منهما جانبان يواجهان الشرق والغرب ، وآخران يواجهان الشمال والجنوب . والهرم المدرج هو الوحيد الذى لا تواجه جوانبه هذه الجهات

الأصلية بالضبط ، إذ أن الواجهة الشمالية تنحرف بمقدار ٣٥ ٤° عن الشمال الحقيقى .

كتب «ديودور الصقلى Diodorus Siculus» يقول : «لا توجد دولة رصدت فيها مواقع النجوم كمصر ، وكانت سجلات هذا الرصد يحتفظ بها عبر العديد من السنين» .

سادسا : إيمحتب الطبيب الساحر

من المرجح أن إيمحتب كان يتمتع أثناء حياته بشهرة عالية كساحر وطبيب [٧٩] . وسوف نناقش هنا باختصار وظيفتى الساحر والطبيب تاركين مناقشة الموضوع بالتفصيل إلى البحث الخاص بالطب المصرى .

كان السحر والطب مرتبطين إرتباطا وثيقاً فى زمن الفراعنة ، فالسحر هو أب للطب الذى لم يفقد ولايته عليه . والمفروض أن الأفعال السحرية يمكن أن تفيد صاحبها أو الآخرين ، ولكنها تتطلب قوى خارقة خاصة للقيام بها ، وطبقا للعقائد الفرعونية يستطيع السحر الإتيان بكل أنواع العجائب التى يستحيل الإتيان بها بطرق أخرى [٨٠] .

وكان فعل السحر يمتد إلى كل شئون الحياة اليومية بما فى ذلك أبسط الأعمال المنزلية ، كما أنه يلبى كل احتياجات المتوف ، فالسحر يمكن أن يزيل أثر الشر ، ويعالج المرض ، ويتوق الكوارث ، وكما يكون مفيدا فى بعض الأحيان لأشخاص معينين يكون ضاراً فى أحيان أخرى . ومن الصفات الشائعة فى كل أنواع السحر استخدام لغة خرفة غامضة غير مفهومة لتوحى بوجود حكمة وراءها . ومن الصعب رسم خط محدد فاصل بين الدين والسحر ، إذ أن السحر بشكل عام نوع من الديانة التطبيقية ، وكان السحرة يحتفظون بصندوق يحوى أدوات ومواد سحرهم جاهزا دائما لممارسة فنهم حسب ما يطرأ من ظروف [٨١] .

وفى «بردية وستكار Westcar Papyrus» [٨٢] اشارة إلى عمل سحرى رائع قام به كبير الكهنة المرتلين للملك «زوسر» ، والذى لم يكن على الأرجح شخصا آخر غير إيمحتب . وللأسف فان تفاصيل هذا العمل السحرى غير واردة فى

البردية ، ولكن هذه الإشارة ترد فى حديث موجه إلى الملك «خوفو» من أحد أبنائه الذى كان يحدثه عن فنون السحر المستخدمة أيام الملك «زوسر» بواسطة كبير كهنة المرتلين .

وبالرغم من أن إيمحتب كان ساحراً بارزاً إلا أن الطب فيما يبدو كان شغفه الأكبر ، ولاشك أن بروزه كطبيب معالج هو الذى أكسبه شهرته الخالدة وأدى إلى تأليهه فى النهاية . ومن المحتمل أنه كان فى وقت ما طبيب البلاط ووزير الملك «زوسر» ، ومن الواضح أنه كان يتحرك فى أرفع الدوائر الاجتماعية .

وكما سنرى فيما بعد ، كان السحر والطب مرتبطين إرتباطا وثيقا بالعلاج ، وكان يجرى اختبار كل طريقة منهما حسب الحالة الناتجة من نوع المرض ، ونجد أن البرديات السحرية مليئة بالوصفات الطبية كما أن البرديات الطبية مثل بردية «إيبرس Ebers» (٨٣) ، تضم نصوصاً وصيغاً سحرية .

ولسوء الحظ فإننا لا نعرف سيئا عن عمل إيمحتب كطبيب أثناء حياته ، ولكن لاشك أن منصب الوزارة الرفيع الذى تقلده كان يضفى على اسمه الهيبة والاحترام ، ويبث الثقة فى نفوس مرضاه ، وأكثر من ذلك فإن المكانة المقدسة التى بلغها فيما بعد ، والتى لا يكاد يتمتع بها سوى الفرعون – تثبت أنه كان رجلا من طراز نادر يجمع بين الأستاذية النظرية والمهارة العملية فى العلاج ، وكان فى مقدوره أن يقدم خدماته الجليلة لأبدان المرضى ونفوسهم على السواء .

سابعا : جبانة منف

ليست لدينا معلومات عن العمر الذى عاشه إيمحتب ، وان كنا نستطيع أن نحكم فى ضوء ما لدينا من قرائن أنه عاش إلى سن متقدمة ، وهذه القرائن هى منصب الوزارة الرفيع الذى بلغه إيمحتب ، ومشروع الهرم المدرج الضخم الذى هندسه ، والمناصب الأخرى التى شغلها . كل هذه قرائن تشير إلى أن وفاته لم تأت مبكرة ، وان كنا لا نعرف سنة الوفاة فإننا نعرف اليوم ، فطبقاً لنص على قاعدة عمود موجود الآن فى «المتحف البريطانى» نعرف أنه مات فى اليوم السابع عشر من الشهر المصرى «مسرى Mesore» (يعادل أول يوليو) ، ودفن فى اليوم الثالث والعشرين من

نفس الشهر (٧ يوليو) (٨٤) ، وهذين التاريخين كان يحتفل بهما إحتفالاً واسعاً فى العصر البطلمى بعد تأليه إيمحتب .

لقد كان إيمحتب فيما يبدو رجلا ذا شخصية رفيعة فاضلة ، له نظرة واسعة تشمل الحياة بأسرها ، وقلب يرق لمتاعب البشرية (٨٥) ، كان يملأ منصبه الرفيع كوزير بكل واجباته الكثيرة الهامة بما فى ذلك اللقاء اليومى بالفرعون الحاكم ، إلى جانب إشرافه على ذلك المشروع الضخم ، وهو إنشاء الهرم المدرج وملحقاته . وفى نفس الوقت فإنه كطبيب ساحر يعالج المرضى ، ويواسى المتألمين ، ويدخل العزاء والراحة إلى نفوس المحتضرين بفضل كلماته وصيغة السحرية التى تضمن لهم أن كل شيء سوف يسير على مايرام فى العالم الآخر . وعلى ذلك يمكننا أن نثق من أنه بعد هذه الحياة الطويلة المكرسة للخدمة ولمساعدة اخوانه البشر كان عليه هو نفسه أن يهجع للراحة فى النهاية ، ولابد أنه قد اجتمع حوله فى حفل كبير العديد من المعزين والمشيعين ، منهم النبلاء وكبار رجالات الدولة ، شاركوا جميعا فى موكبه الجنائزى وصحبوا جثمانه إلى مثواه الأخير . بل إننا لنستطيع فى ضوء ما نملكه من معلومات عن المواكب الجنازية فى الأسرات المبكرة ، وبقليل من الخيال ، أن نرسم صورة لمختلف المراحل التى قطعتها جنازة إيمحتب إلى جبانة منف الواسعة الأرجاء .



الإله « أنوبيس » يقوم بالتحنيط .

بعد الانتهاء من عملية تحنيط الجسد التى تستغرق عدة أسابيع ، كانت الجثة تلف بأربطة من الكتان الرقيق وتزود بالطلاسم حول الرقبة والصدر ، ثم توضع فى تابوت خال من الزخارف له أربعة جوانب ، وتغطيه الزهور وينقل عبر النيل فى قارب مزود بالزينات تحف به قوارب الأصدقاء والأقارب ، وفى نفس الوقت يقوم الكاهن الجنازى «خر – حب Kher- heb» الجديد الذى خلف المتوفى [فى حالة إيمحتب] بتقديم القرابين والصلوات للآلهة ، ويُحرق البخور أمام الجثمان مع التراتيل والأناشيد المعتادة [٨٦] .

وبعد أن يتم اجتياز النهر بأمان ، الصندوق بقاربه على زحافة تجرها الثيران إلى المصطبة المقامة كمأوى أخير ، وكانت كل مرحلة فى هذه الرحلة تصحبها مراسم معقدة ، ويعبر المشيعون عن حزنهم تعبيراً قوياً . وفى حالة إيمحتب كان هناك دون شك عويل مشبوب من الأصدقاء والأقارب ، وكذلك من المرضى والمصابين الذين سبق أن عالجهم الطبيب العظيم ، ولا شك أيضا أن النساء كن أكثر اظهارا للحزن ، يسرن بصدور عارية ، وهن يصحن ويلطمن وجوههن ويلطخن بالطين رءوسهن . فكل شىء يجب أن يفعل لتعظيم ، المتوفى واظهار مدى الخسارة والواحدة اللتين لحقتا بمن عاش بعده من الأحياء .

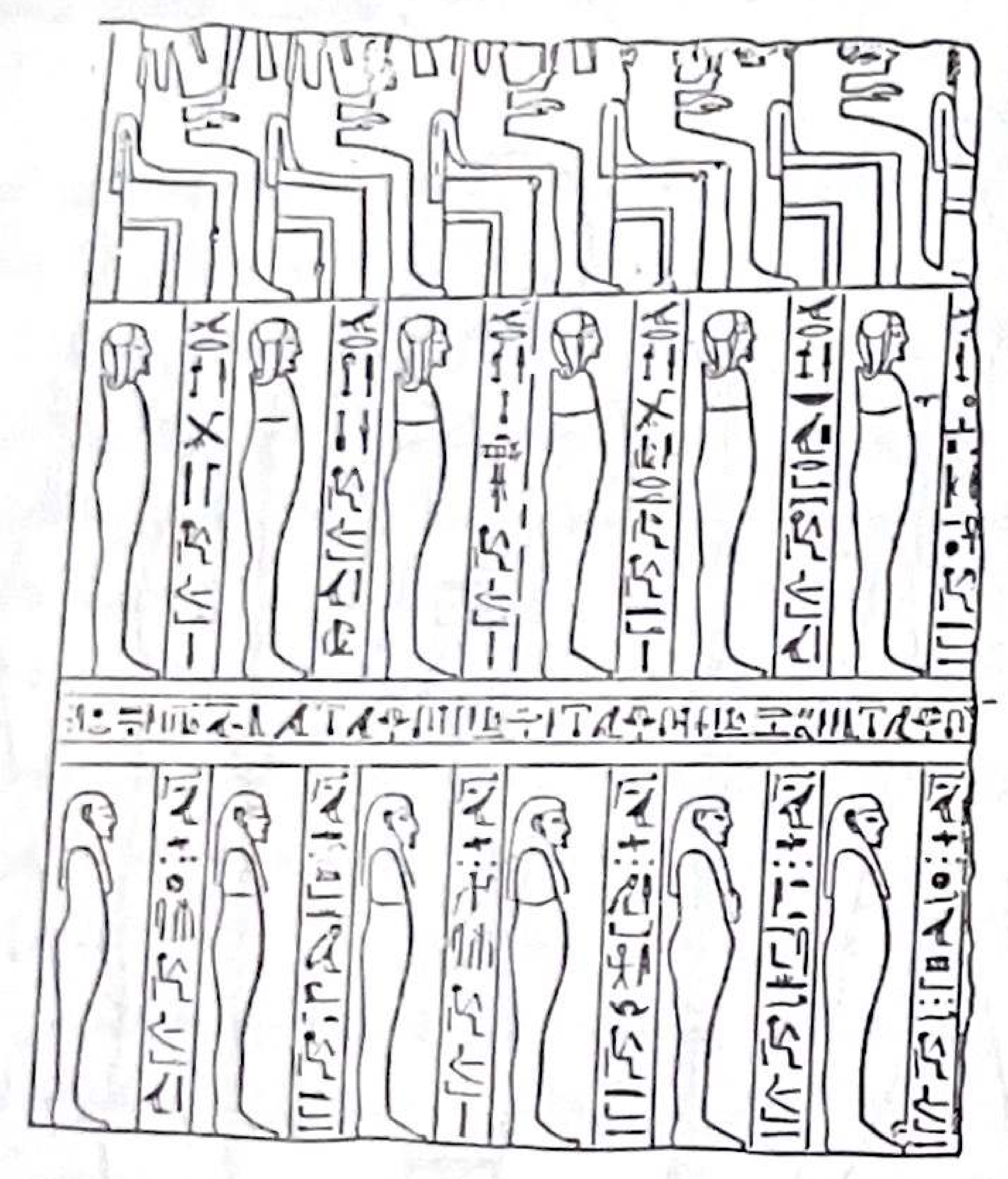
ونحن لا نعرف مكان مصطبة إيمحتب ، وربما يكشف عنها الثرى يوما ، ولكن من المحتمل أنها كانت قائمة فى «عنخ – تاوى Ankh-towe» على مشارف مدينة منف بالقرب من «السيرابيوم» وقرية أبو صير الحديثة [٨٧] وبذلك كانت على مقربة من الهرم الذى بناه المتوفى لسيده ومولاه الملكى زوسر ، وبالقرب من هذه البقعة أقيم فيما بعد «معبد إيمحتب ابن بتاح» [بر – إيمحتب – سا – بتاح] الذى أسماه الأغريق الاسكليبيون Asklepieion [٨٨] .

وفيما يتعلق بأقارب إيمحتب لم تصل الينا سوى تفاصيل قليلة ، فنحن نعرف أن أباه كان مهندساً شهيراً فى القصر الملكى أو سيد بنائيه ويدعى «كا – نفر Ka-nfr» من نقش فى وادى الحمامات الذى يؤدى من قفط إلى البحر الأحمر . وهذا النقش يعطى شجرة نسب تضم خمسة وعشرين مهندساً تبدأ بوالد إيمحتب المدعو «كا – نفر» وتنتهى بالمهندس «خنوم – إيب – رع Khnum-ib-Re» [٨٩] .

وكانت أمه تدعى «خردو – عنخ» [٩٠] ، وزوجته تدعى «رنبت – نفرت Rnpt-nfrt» [٩١] ويبدو أن كان له ولد واحد يدعى «رع – حتب Re-hotep» إذا صدقنا ما ورد فى شجرة النسب المشار اليها آنفا ، وقد أصبح «رع – حتب» هذا بدوره مهندساً شهيراً وحاكماً لأحد الأقاليم .

لقد عرضنا تباعاً حتى الآن لمختلف المناصب والنشاطات التى ملأت حياة إيمحتب النشطة . والصورة التى تبدو بوضوح كاف أنه كان رجلا على درجة عالية من الذكاء ، بالإضافة إلى تمتعه بتكوين خلقى قوى ، مما يجعل من حقنا أن نعده واحداً من أعظم المصريين عبر التاريخ [٩٢] .

وسوف نرى فى الفصول التالية أن رجلا من طراز إيمحتب لم يكن مصيره لينسى داخل واحدة من المطاطب العديدة التى تضمها جبانة منف ، والتى تأوى كثيرا من النبلاء المصريين الذين نسيهم الزمن ، بل كانت تنتظره شهرة أعظم من

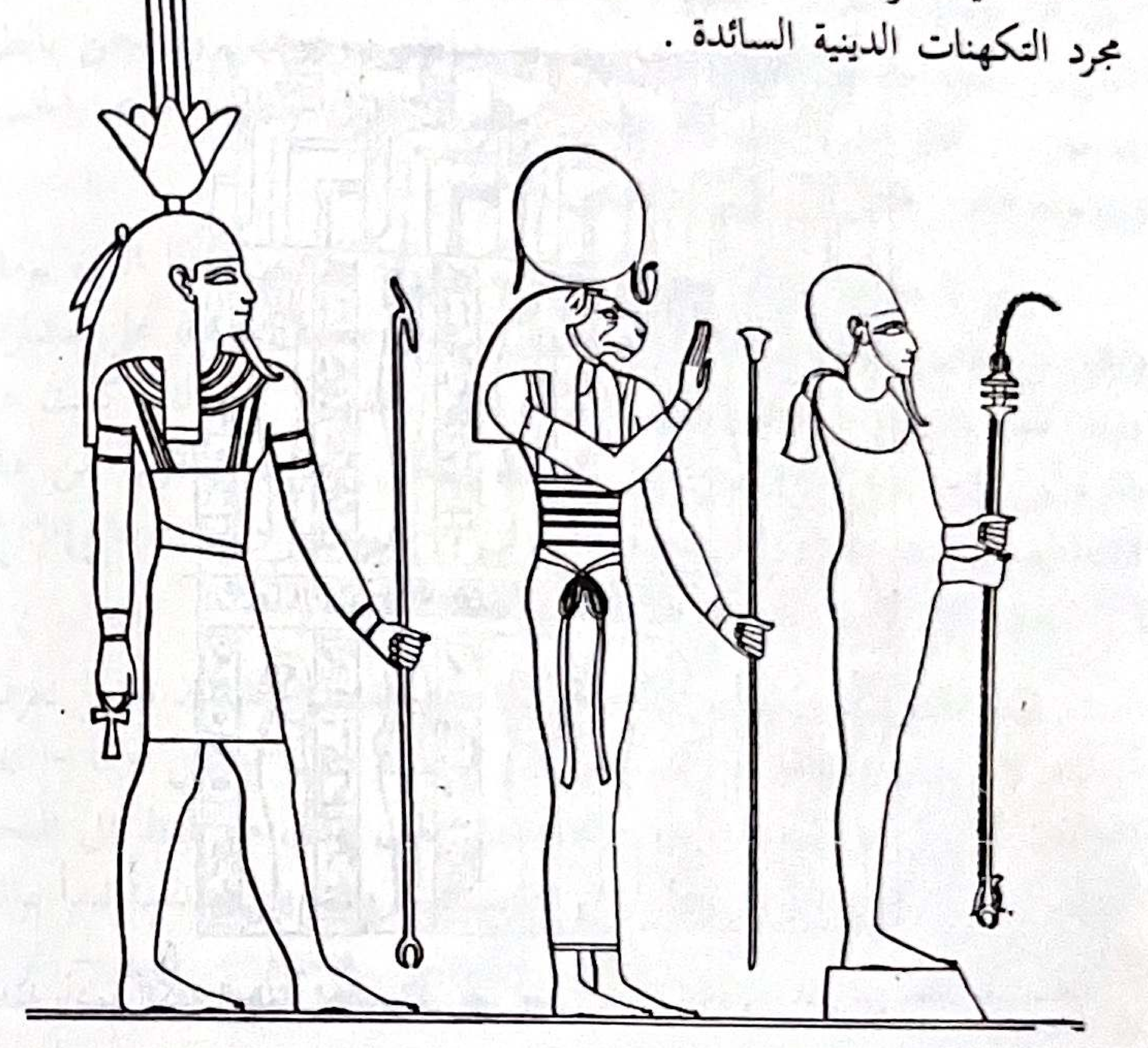


قائمة بأشهر الكتبة العظماء الخالدين فى مصر ومن أهمهم « إيمحتب» نقش على حائط مقبرة بسقارة

أن يحصل عليها أى فرعون ، إذ أنه فى حياته الثانية رُفع إلى درجة «إله الطب المصرى» ومنح مكانا بين الخالدين يجلل إسمه بالشرف الدائم ، فلا يقدر الموت أن يمحو ذكراه الحية .

ثامنا : معاصرة إيمحتب للملك زوسر

قبل اختتام هذا الفصل يحسن أن نشير إلى أن مسألة معاصرة إيمحتب للملك زوسر [حوالى ٢٩٨٠ ق.م.] قد قبلت مؤخراً فقط كحقيقة تاريخية من جانب علماء المصريات [٩٣] . فحتى وقت قريب يعود إلى عام ١٨٩٠ كان عالم المصريات الألمانى «بروجش» يعتقد أن إيمحتب ينتمى إلى المراحل المتأخرة من التاريخ المصرى ، ولم يكن يوجد حتى السنوات الأخيرة تفسير مقنع يفسر كيف ظهر إيمحتب فجأة فى أواخر التاريخ المصرى ، ومع ذلك فإنه يحتل مكانة عالية بين الآلهة القديمة ، وكانت التفسيرات المختلفة التى قيلت لحل هذا الإشكال تعتمد على مجرد التكهنات الدينية السائدة .



ثالوث منف الإله « بتاح » وزوجته الإلهة « سخمت » وابنهما « نفرتم » .

فمثلا ، اقترح «بروجش» أن الإله «نفرتم Nefertem» [٩٤] وإيمحتب هما نفس الشخص ، بمعنى أن إله منف القديم «نفرتم» قد أصبح فيما بعد يدعى إيمحتب . وقال آخرون أن إيمحتب جاء نتيجة انقسام إله أكثر قدما إلى شخصيتين مختلفتين كان لكل منهما وظائف مختلفة ، كما حدث مثلا فى حالة «ماعت Maet» [٩٥] اذ يفترض أنها انبثقت عن «تحوت Thoth» [٩٦] . وطبقا لهذا الرأى فإن إيمحتب كان انبثاقا عن «بتاح» أو بتعبير آخر إبناً لبتاح ، ويرى عالم المصريات «بيير Pierret» أن إيمحتب إله منف ، كان بمثابة بعث جديد «لبتاح» تماما كما كان «نفر – حتب بعث لأوزيريس» . وحتى إلى وقت أقرب من ذلك يعود إلى عام ١٩٠٢ كان الأستاذ «سايس Sayce» يعتقد أن لقب الإله يمكن أن يُجسَّم ويصبح شخصاً قائما بذاته ، وعلى ذلك فإن إيمحتب كان لقبا للإله «بتاح» تحول إلى ذات مستقلة أو إبن له ، فان اسم إيمحتب يعنى «القادم فى سلام» وكان هذا لقباً من ألقاب «بتاح» ثم أصبح إبنا له ، وأقنوماً ثانيا فى الثالوث المنفى [٩٧] .

أما الاشارات المبكرة إلى إيمحتب مثل شجرة نسب المهندسين التى تشير إلى أنه كان يعيش فى زمن مبكر جدا يرجع إلى الأسرة الثالثة ، فقد كان ينظر إليها على أنها مجرد أساطير ، أو ربما أختلافات من الكهان لأغراض خاصة ، وقالوا أن «أنشودة عازف القيثار» التى تشير إلى إيمحتب إنما ترجع إلى وقت لاحق بكثير على حكم زوسر ، وهو زمن أحد الملوك المسمين «بأنتف» . وحتى اكتشاف برديات البهنسا [٩٨] فى عام ١٩٠٣ ظل المصدر الوحيد لمعرفتنا بأن إيمحتب كان يعد «سيداً للكتاب» ونصف إله يرجع فقط إلى الدولة الحديثة [١٥٨٠ – ١٣٥٠ ق.م.] ، بينما أن «أسطورة السنوات السبع العجاف» المنقوشة فى جزيرة سهيل [٩٩] بالقرب من أسوان والتى تشير إلى إيمحتب كشخص محدد كان مهندساً ووزيرا للملك زوسر فإنها أكثر حداثة إذ ترجع إلى العصر البطلمى [٣٢٣ – ٣٠ ق.م.] . أما الأوراق السحرية التى تربط بين اسم إيمحتب وعلم الفلك فإنها أحدث من ذلك جميعاً إذ ترجع إلى القرن الثالث أو الرابع الميلاديين . ولم تبذل أية محاولة للربط بين هذه الاشارات المتفرقة والتنسيق بينها .

ويرجع الفضل إلى عالم المصريات الشهير «أدولف إرمان» فى أنه أول من أقترح أن إيمحتب كان شخصاً حقيقياً من لحم ودم ، وأنه عاش فى زمن الملك «زوسر» واشتهر كوزير ومهندس وطبيب - ساحر ، وأنه ارتفع بعد ذلك إلى مرتبة نصف إله ثم إلى مرتبة الإله الكامل . وقد أيد هذا الرأى بقوة العالم الألمانى «زيته» فى دراسته المستفيضة عن إيمحتب ، والتى جمع فيها الأدلة الدامغة على أنه مر فعلا بهذه المراحل المشار إليها ، ومنذ إن نشرت دراسات «زيته» أيد جميع علماء المصريات تقريباً وجهة نظره التى تحل كثيرا من المشاكل ، والتى تأكدت أخيرا باكتشاف تمثال للملك «زوسر» منقوش عليه اسم إيمحتب [١٠٠] .

ولكن ، لا يزال هناك عدد قليل من علماء المصريات غير مقتنعين بأن إيمحتب عاش حقيقة فى أيام الملك زوسر ربما يكون أبرزهم «ج . فوكار» [١٠١] والذى يرى أن أسطورة «السنوات السبع العجاف» ليست لها حجية الوثيقة التاريخية ، وأن «أنشودة عازف القيثار» كانت مجرد أغنية شعبية ، وأن «شجرة نسب المهندسين» مشكوك فى صحتها . والنتيجة التى يصل إليها «فوكار» باختصار أنه كان هناك ملك يدعى إيمحتب ينتمى إلى الأسرة السادسة وان كنا لا نعرف عنه شيئا تقريبا ، وأن هذا الملك تحول بعد وفاته إلى إله ، وهى عملية يعتقد أنها لا تثير أية صعوبة خاصة فى مصر حيث كان كل ملك يجرى تأليهه مع الزمن [١٠٢] .

وهذه بالطبع نظرة تختلف تماما عن النظرة التى يقوم عليها هذا الكتاب ، ونعتقد أن القراء سوف يوافقوننا على أن نظرية «فوكار» تخلق من المشاكل أكثر مما تحل .

الفصل الثالث

إيمحتب .. نصف إله للطب

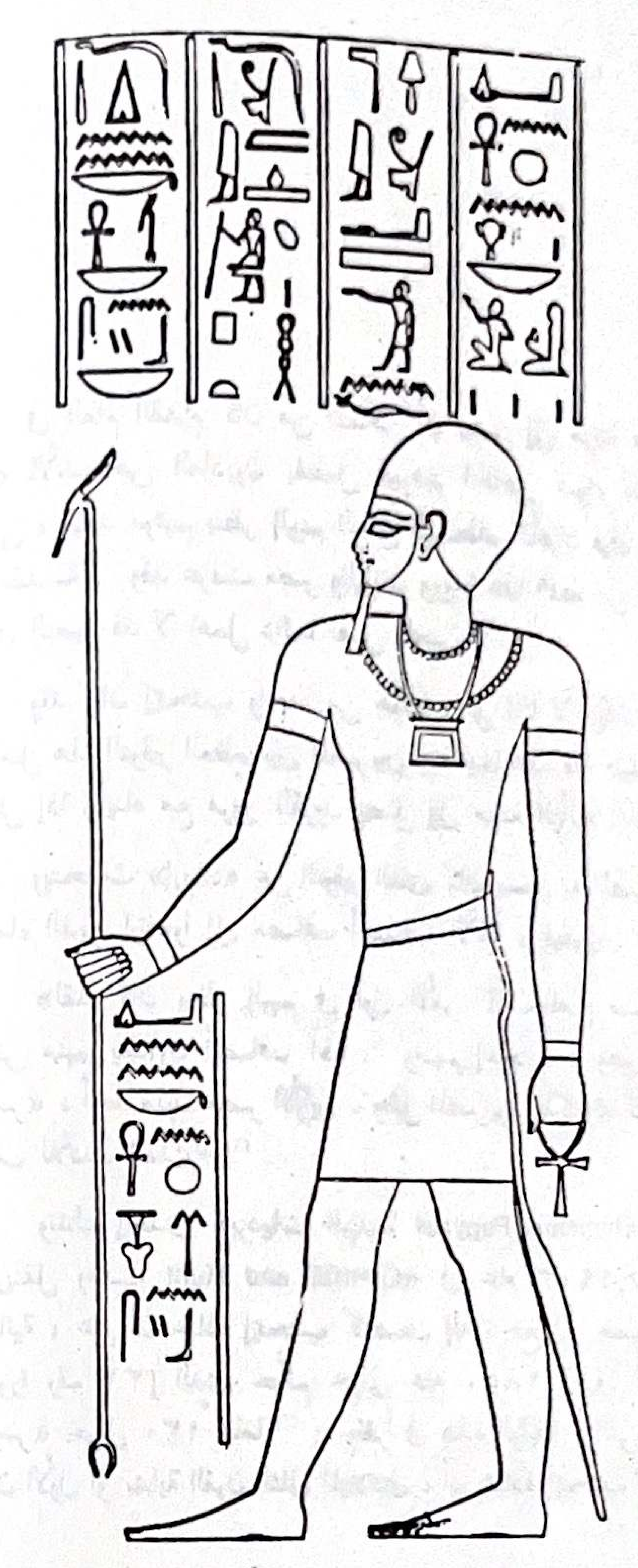
فى العالم القديم كان من الممكن أن يصل إلى مرتبة «البطل» أو «نصف الإله» الأشخاص العاديون بفضل تميزهم الخاص سواء البدنى أو الخلقى أو الذهنى ، فبعد موتهم ينظر إليهم الناس البسطاء كأفراد فوق البشر وينزلونهم منزلة شبه مقدسة . وقد عرفت مصر واليونان وروما هذا النمط من أنصاف الآلهة بالرغم من أن التعبير قد لا يحمل دائما نفس المعنى [١] .

وقد كان إيمحتب واحدا من هؤلاء ، بل اننا لا نكاد نجد له نظيرا حصل على مثل هذا التوقير العظيم بين المصريين ربما فيما عدا قلة قليلة جداً ، ولذا فإننا لا ندهش إذا رأيناه مع مرور القرون يصل إلى مرتبة التأليه الكامل .

ويتحدث «إرمان» عن التوقير الذى كان يشعر به المصريون نحو زعماء أمتهم القدماء الذين ارتفعوا إلى مصاف أنصاف الآلهة ، فيقول :

«لقد كان ينظر إليهم فى أول الأمر كأشخاص متميزين ، والآن أصبح البعض منهم يعتبرون أنصاف آلهة . ومنهم إيمحتب ، وهو رجل كان فى بلاط «زوسر» ، أحد ملوك مصر الأولين ، وظل المصريون يذكرونه كمهندس ملكى شهير ومؤلف للأدب القديم» [٢] .

وتدلنا إحدى «برديات البهنسا Oxyrhynchus Papyrus» التى اكتشفها «جرينفل وهنت Grenfell and Hunt» فى عام ١٩٠٣ ، وهى مكتوبة باللغة اليونانية ، على أن عبادة إيمحتب كنصف إله ترجع إلى عصر الملك «منكاورع» [صورة رقم ٣١] الذى حكم حوالى عام ٢٨٥٠ ق.م. أى بعد حكم الملك «زوسر» بحوالى ١٣٠ عاما [٣] . ونقرأ فى هذه الوثيقة ، التى يحتمل أنها كتبت فى القرن الأول أو بداية القرن الثانى الميلادى ، أن عبادة إيمحتب كانت قد تدهورت فى



الإله إيمحتب – معبد بتاح بالكرنك .

الأزمنة العصيبة التى سبقت حكم الملك «منكاورع» [٤] وأصبح معبده مهجورا إلى حد كبير . وعندما جاء ذلك الملك أعاد عبادة إيمحتب ، وأوقف أراضى واسعة على معبده . ونعلم أيضا من هذه الوثيقة أن معبد إيمحتب كان يزوره المرضى والمتوجعون حيث تزاول فيه ظاهرة النقاهة [٥] .

ولقد نحتت لإيمحتب فيما بعد تماثيل كثيرة تقدسه كنصف إله ، لايزال بعضها موجودا فى متاحف العالم . وعلى ذلك ، فإننا سنتناول تباعا فى هذا الفصل الموضوعات التالية :

أولا : عبادة إيمحتب كنصف إله .

ثانيا : النوم الشفائى (النقاهة) .

ثالثا : تماثيل إيمحتب كنصف إله .

أولا : عبادة إيمحتب كنصف إله .

مما لاشك فيه أن عبادة إيمحتب نشأت أصلا فى مقبرته التى لم تكن تبعد كثيرا عن الهرم المدرج الذى أقامه لمليكه «زوسر» ، وأصبحت مصطبة الطبيب الساحر الشهير رويدا مكانا يقصده الحجيج ، خاصة من المرضى والمتوجعين ، وكما يتضح من «بردية البهنسا» التى أشرنا اليها آنفا شيدت بعض المعابد تكريما لإيمحتب [٦] .

وسوف نتناول تفاصيل عبادته كنصف إله من المبحث الخاص «بالنوم الشفائى» حيث سنقرأ عن بعض المعجزات التى كانت تحدث فى معبد إيمحتب وتؤدى إلى الشفاء من الأمراض ، ولاشك أن الكهنة كانوا يلجأون إلى أشد الطقوس تأثيرا فى مخيلات المرضى مع أقوى طرق الإيحاء المؤثرة لإحداث الأثر المطلوب .

وأخذت شهرة إيمحتب – ككائن فوق البشر له قدرة على شفاء الأمراض – تنتشر حثيثا . وهذه الشهرة لم تتجاوز فى أول الأمر المنطقة المحيطة بمصطبته ، ثم لم تلبث أن انتشرت فى طول البلاد وعرضها . ولسنا نعرف بالتحديد إلى أى مدى

كانت عبادة أنصاف الآلهة تختلف عن عبادة الآلهة الكاملة ، ولكن يبدو على أية حال أن الآلهة الصغار كانت عبادتهم أبسط وأكثر محلية [7] .

وخلال مرحلة عبادة إيمحتب كنصف إله نشأت عند الكتبة المصريين عادة إراقة قطرات ماء من محابرهم تكريما لروح إيمحتب «أشهر الكتاب» . وهذه العادة ، التى كان أول من أشار إليها العالم «شيفر» [8] ، نبعت دون شك من رغبة الكاتب فى أن يزدهر فى مهنته ، كما أننا كثيرا ما نجد عبارة مكتوبة على صفحة البردية الموضوعة فى حجر تماثيل إيمحتب كنصف إله تقول «فليسكب كل كاتب قطرات من قارورته تكريما لروحك يا إيمحتب» كما أن الكاتب المصرى كان معتادا أن يطلب ممن تؤول إليه أدوات الكتابة من بعده أن يصلى من أجله كى يُمنح ألف رغيف وابريق من الجعة فى العالم الآخر . والمقصودة بهذه القرابين الجنازية إقامة أود المتوفى أثناء رحلته فى العالم السفلى .

« هيرودوت » المؤرخ الاغريقى .

وقد عثر «جاردنر Gardiner» على إشارة أكثر وضوحاً إلى هذا الموضوع وردت فى لوحة جنائزية تعود إلى عصر الملك «أمنحتب الثالث Amenophis III» (١٤١١ - ١٣٧٥ ق.م.) حيث جاء على هذه اللوحة ما نصه «فليسكب الكهنة الماء على الأرض تكريما لك ، يا إيمحتب ، إلى أن تنتهى قارورة الماء» . وهكذا يبدو واضحا أنه فى زمن الأسرة الثامنة عشرة كان إيمحتب قد تميز عن غيره من مشاهير المصريين بطقس خاص يُؤدى له كنصف إله .

ومما يبعث على الدهشة ما قاله «هيرودوت» من أن المصريين يختلفون عن الإغريق فى أنهم لا يحفلون بتكريم الأبطال . ويبدو أن «هيرودوت» كان يقصد أن مصر لم تعرف الأبطال بنفس المعنى الذى كان يعرفه الإغريق . إذ لا شك على الاطلاق فى أن مصر عرفت تكريم الأشخاص كأبطال أو أنصاف آلهة . وفى عصر البطالمة كانت هناك مدينة فى مصر تسمى «مدينة الأبطال» ومكانها الآن «تل المسخوطة Tell el-Maskhuta» [بيثوم Pithom] .

والمعروف أن عملية مماثلة من الرفع التدريجى إلى مرتبة نصف إله ، ثم إلى مرتبة الإله الكامل حدثت فى حالة حكيم شهير آخر هو «أمنحتب بن حابو Amenophis the son of Hapu» الذى كان وزيرا للملك «أمنحتب الثالث» .

ثانيا : النوم الشفائى (النقاهة) .

يقصد بالنوم الشفائى أن ينام الشخص أو أن يقضى الليل فى بعض البقاع المقدسة ، كساحة المعبد ، على أمل أن يتلقى رسالة مقدسة أو وحياً يستفيد بهما المؤمن المريض . وهذه العادة كانت تمارس بكثرة فى الأزمنة القديمة ولا يزال يلجأ إليها حتى اليوم فى بعض الدول شبه المتمدينة .

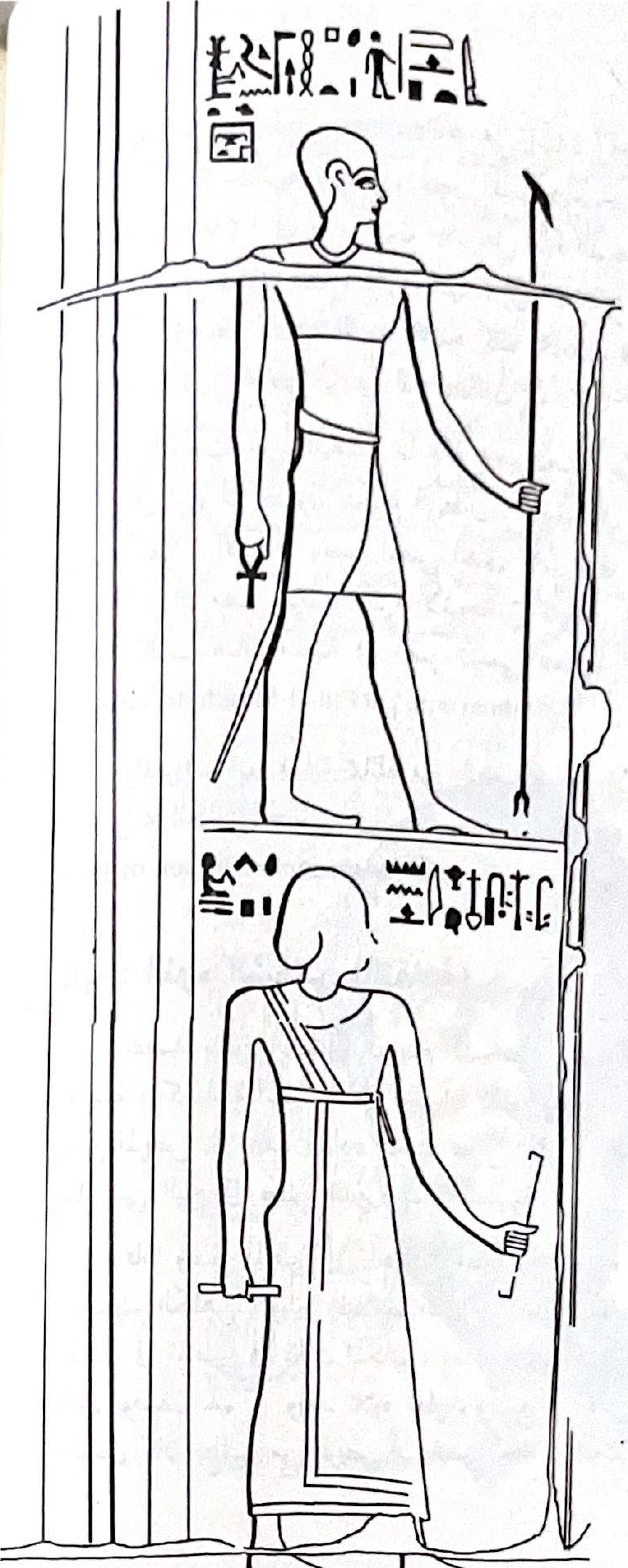
فاذا وصل المرضى إلى الضريح منجذبين بشهرة صاحبه فى شفاء الأمراض يستقبلهم الكاهن ، ويثير مخيلاتهم القابلة للاستهواء بقصص معجزات الشفاء التى حدثت فى الماضى فى ذلك المكان ، وما ينتظرهم من شفاء أكيد إذا اتبعوا العلاج الذى يوصف لهم . وبعد تلاوة تعاويذ وصيغ تساعد على وضع الذهن فى حالة استقبال كان يطلب من المريض أن يقضى ليلته فى المعبد حيث من المؤكد أن تأتيه

إشارة من الإله . وفى أثناء الليل كان ياتى الكاهن وهو يرتدى زى الإله فيعرض نفسه أمام المريض إذا كان مستيقظاً ويعطيه نصيحة شفوية . أما إذا كان المريض نائما فإن الإله يظهر له فى الحلم [٩] ويعطيه تعاليم العلاج ، وهذه التعاليم أو رموز الحلم ، فى حالة غموضها ، يفسرها بالطبع الكاهن فى الصباح . وفى بعض الحالات تؤدى قوة الإيحاء مع الشعور القوى بقداسة المكان إلى شفاء المريض عصبيا ، فيتمكن من الرؤية أو السمع أو الحركة بعد الشلل ، مما لا يمكن أن يتأتى له فى الأوقات العادية مع بلادة الحواس . ومثل هذه الحاسية الزائدة تهيىء ذهن المريض لاستقبال الرؤى ، وحتى فى حالة تعرض المريض النائم لكوابيس بأشباحها المرعبة ، وهى ظاهرة سيكلوجية يمكنها تفسيرها الآن بسهولة ، فإن الحالم الجاهل المضطرب يعدها بمثابة ظهور حقيقى للأشباح ويفسرها بأن الأرواح الخبيثة غادرت جسده .

ويمكننا أن نتصور بسهولة كيف أنه خلال الليل الطويل الصامت كانت تمتلىء ساحة المعبد بالمتألمين من الرجال والنساء ، وهم يتقلبون من جانب إلى جانب من شدة الألم ، ويعبدون فى صمت إيمحتب العظيم الذى تتركز فيه جميع آمالهم ، متمثلين فى ذلك النصيحة المصرية العظيمة التى حفظتها لنا «بردية آنى Papyrus of Ani» [١٠] إذ تقول : «عندما تعبد إلهك ، إفعل ذلك بهدوء وبدون تباه فى محراب الإله ، فانه لا يحب الجلبة والضجيج .. صلى له بقلب مشتاق ، صلاة تختفى فيها الكلمات ، من أجل أن يستجيب لدعائك ، ويسمع ما تقول ، ويتقبل قربانك» .

فى «بردية البهنسا» التى أشرنا إليها آنفا نجد أن الكاتب الذى يدعى «نيخاوتيس Nechautis» وكان فيما يبدو كاهناً ، والذى وجد البردية فى معبد إيمحتب [١١] يخبرنا بقصة بديعة عن رؤيا ظهر فيها إيمحتب للمريض ، وتلقى هذه القصة ضوءا ساطعا على أسلوب النوم الشفائى الذى تحدثنا عنه توا .

تحكى القصة أن والدة «نيخاوتيس» هذا قد أصيبت بالحمى الرباعية [١٢] ، فنصحها الأصدقاء بأن تلجأ إلى معبد إيمحتب لطلب المساعدة ، وظهر إيمحتب للسيدة المريضة فى الحلم وشفاها «بأدوية بسيطة» ، ومن أجل ذلك قدمت الأم والابن القرابين إلى إيمحتب عرفانا له [١٣] .



نقش « لإيمحتب » يعلو
على « أمنحتب بن حابو »
جدران معبد آمون رع بالكرنك .

وبعد ذلك سقط «نيخاوتيس» نفسه مريضاً ، حيث كان يعانى من ألم شديد فى جانبه الأيمن ، وحمى عنيفة ، وانقطاع وصعوبة فى التنفس ، وسعال مصحوب بزيادة الآلام فى جانبه . وسارع هو بدوره تصحبه والدته إلى معبد إيمحتب حيث سقط فى حالة شبه من النعاس ، وبينما كانت أمه متيقظة إلى جواره تراءى لها الإله فى هيئة فوق بشرية وهو يرتدى ثيابا زاهية ويحمل فى يده كتابا ، ففحص المريض بدقة من رأسه إلى قدميه ثم اختفى . وعندما أفاقت الأم من دهشتها بعد الرؤيا أيقظت ابنها المريض فوجدت أن الحمى قد زايلته ، وأصبح يتنفس تنفساً عميقاً . وما أن أصبح المريض قادرا على الكلام حتى بدأ يحكى ما شاهده فى الحلم ، وهو نفس الرؤيا التى شاهدتها والدته حال يقظتها [لاحظ أن المريض كان شبه نائم ولابد أنه شاهد الكاهن المتخفى فى زى الإله وهو يفحصه كما شاهدته الأم] وسرعان ما اختفت آلام جانبه أيضا إذ أعطاه الإله «دواء ملطفاً» .

وعلى الفور شرعت الأم والإبن فى التعبير عن عرفانهما بالجميل بتقديم القرابين المعتادة إلى كاهن المعبد الذى يمثل الإله فى الإحتفالات ، ولكن إيمحتب أوضح أن هذه القرابين ليست هى علامات الشكر التى يطلبها ، وبدلا من ذلك طلب من «نيخاوتيس» أن يبر بوعده الذى قطعه منذ عدة سنوات مضت بأن ينقل إلى اللغة الاغريقية أحد الكتب المصرية القديمة تكريما لإيمحتب .

وعلى الفور ، شرع «نيخاوتيس» فى أداء تلك المهمة ، وقال مخاطبا إيمحتب : «إن أية هدية من النذور أو الأضحيات سوف تفنى حالاً ، ولكن السجل المكتوب له أجر لا ينقطع من العرفان ، إن شبابه يتجدد فى الذاكرة ، وكل لسان ينطق الإغريقية سوف يتحدث بقصتك ، وكل رجل سوف يعبدك يا إيمحتب يا ابن بتاح» .

وتنتهى مخاطبة «نيخاوتيس» لإيمحتب بهذه العبارات : «تجمعوا يا كل الأشخاص الطيبين المحبين للخير ! تفرقوا يا كل الأشرار والملحدين ! تجمعوا جميعا يا من شفيتم من الأمراض بفضل منة الإله .. ياكل من جربتم فن الشفاء ، يا كل من يتوقون للحياة الفاضلة ، يا من تمتعتم فى الماضى ببركات الأشياء الطيبة ، يا من نجيتم من أخطار البحر ! لأن كل مكان قد شملته رحمة الإله» [١٤] .

ثم يمضى النص بعد ذلك ليحكى تاريخ «اسكلبيوس (إيمحتب) ابن هيفايستوس «Asklepios (Imhotep), son of Hephaistos» [١٥] ، وكيف أنه أبلغ «منكاورع» أن يشغل نفسه بقبره . ومن الواضح أنه بالرغم من أن إيمحتب لم يعترف به حتى الآن كإله كامل ، إلا أنه ألى حد ما كان يعبد بنفس الطريقة التى يعبد بها الإله .

ويبدو أن مرحلة عبادة إيمحتب كنصف إله قد أمتدت من حكم «منكاورع» إلى بداية العصر الفارسى ، إذا قبلنا وجهة نظر «زيتة» التى سنعرض لها فى الفصل القادم . وبذلك تكون هذه المرحلة قد امتدت أكثر من ثلاثة وعشرين قرنا [من ٢٨٥٠ – ٥٢٥ ق.م.] وبعد ذلك بلغ إيمحتب مرتبة التأليه الكامل .

ثالثا : تماثيل إيمحتب كنصف إله .

فى معظم متاحف المصريات يمكننا أن نشاهد تمثالا أو أكثر من البرونز يمثل شخصاً رقيق الحجم ، مستطيل الرأس ، فى مقتبل العمر ، ذا مظهر أرستقراطى ، يبدو بوضوح أنه كاتب متعلم ، يبسط عادة على ركبتيه لفافة من ورق البردى يقرأ فيها بإمعان [١٦] .

وتبدو على صاحب هذه التماثيل [الصور من ٣١ – ٣٢] إمارات واضحة تدل على أصله البشرى ، فنراه فى صورة رجل عادى ، يرتدى ملابس بسيطة تعود إلى العصور البدائية ، بدون صولجان أو علامة «عنخ» أو اللحية المميزة التى يرتديها الآلهة . وهذه التماثيل تتراوح فى الارتفاع بين ١٢ ، ٢٠ سنتيمتراً ، وتمثل إيمحتب كنصف إله ، وينتمى معظمها إلى طراز الفن المصرى الذى كان سائدا فى العصر الصاوى أو ما يعرف بعصر النهضة (الرينيسانس) فى الفن المصرى ، أى ما يتوافق تقريباً مع الأسرة السادسة والعشرين [٦٣٣ – ٥٢٥ ق.م.] . ومعظم هذه التماثيل مصنوعة بدقة بالغة ورشاقة غير معتادة ، فالوجه معبر وجميل ، والملابس والزينة مصرية الطابع . ومن أجمل هذه التماثيل ما هو موجود فى «متحف القاهرة ،

والمتحف البريطانى ، ومتحف ويلكوم لتاريخ الطب فى لندن» ، وتوجد أيضا نماذج ممتازة أخرى فى «باريس وبرلين وتورين وليدن» . وكثير من هذه التماثيل مطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وفى حالات أخرى طعمت نقوشها بالذهب .

وبالرغم من أن معظم هذه التماثيل مصنوع من البرونز الصلب ، إلا أن البعض منها مصنوع من الخزف المزجج أو الحجر الصابونى أو الحجر اللازوردى أو الالكترون أو البازلت [١٧] أو الرخام . ويوجد فى «متحف القاهرة» تمثالان لإيمحتب من البرونز على قاعدتين خشبيتين [من شجر السنط والأرز] وهناك أيضا بعض تماثيل التمائم فى «متحف ويلكوم لتاريخ الطب بلندن» ، وكذلك فى «ليفربول وبرلين وتورين» . والملابس التى يرتديها عادة هى ملابس كاهن . وغالبا ما تقتصر على مئزر ذى ثنيات منتظمة يغطى الركبتين والساقين ، وفى بعض الأحيان تكون الساقان عاريتين . وفى أحد التماثيل بالقاهرة تبدو الساقان كأنهما ملتفتان بالأربطة نتيجة لضيق المئزر ، وأحيانا نجده عاريا تماما بدون ملابس ، وعادة تغطى رأسه قلنسوة ضيقة تصل إلى أسفل الجبهة ، وفى بعض الأحيان تكون الرأس عارية . ونجد فى حالات كثيرة قلادة أنيقة تتكون من أربعة أو خمسة صفوف من الخرز تغطى صدره ، وفى أحيان أخرى نجد صدرية معلقة بخيط . وبالرغم من أن معظم هذه التماثيل تصور ايمحتب جالسا إلا أن البعض القليل منها تصوره واقفاً . أما لفافة البردى فنراه يقبض عليها بيده أو يطويها تحت إبطه . وفى حالات نادرة نجده ممسكا بالقلم فى يده اليمنى ، وبلفافة البردى فى يده اليسرى ، وفى حالة واحدة نجده على هيئة قرد من نوع البابون [١٨] .

ويعرض «المتحف المصرى» بالقاهرة واحدا وعشرين تمثالا لإيمحتب بعضها ذات قيمة فنية عالية ، فى حين يضم «المتحف البريطانى» عشرة تماثيل من البرونز وأربعة من الخزف المزخرف ، وفى «متحف ويلكوم» لتاريخ الطب ثمانية وأربعون تمثالا منها اثنان واقفان . ويملك «متحف الأشموليان» بأكسفورد ثلاثة تماثيل ، وفى «متحف برلين» تمثال له واقف وثلاثة تماثيل جالسة . ويقتنى «متحف المتروبوليتان» للفن بنيويورك ستة تماثيل واقفة وواحدا فى وضع الجلوس . وتوجد فى «متحف اللوفر» بباريس حوالى خمسون قطعة ، وفى متحف «جومية» بباريس أيضا قطعتان ، ويملك «متحف تورين» خمسة تماثيل ، أربعة منها من البرونز وواحد من

الخزف المزجج الأزرق . وفى «متحف هيرميتاج» ببيتروجراد توجد تسعة تماثيل برونزية وواحد من الخزف الزجاجى .

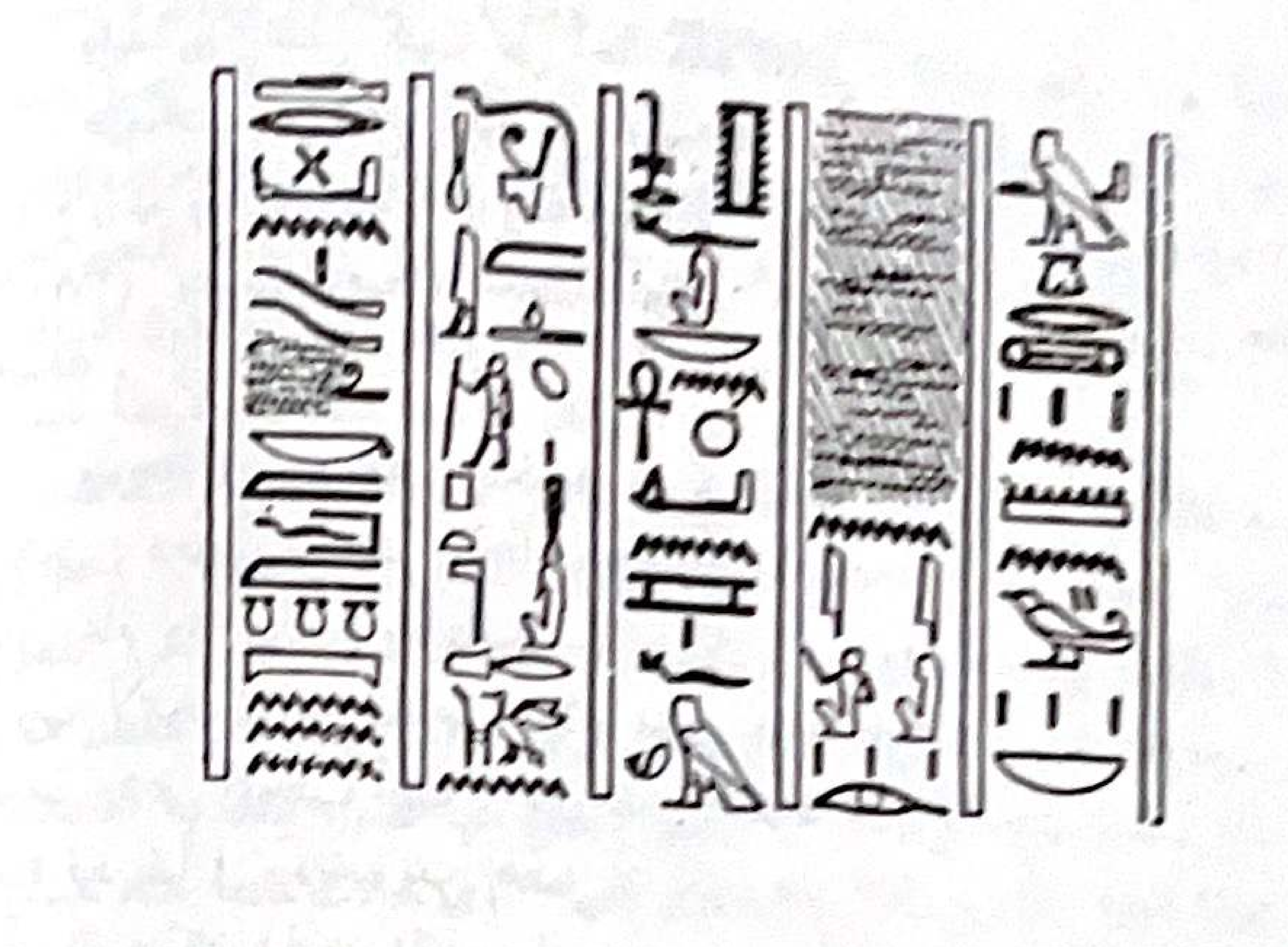
وفى حالات كثيرة نجد نقوشاً على قاعدة التمثال تسجل اسم الواهب الذى من المحتمل أن يكون مريضا يطلب العلاج ، أو شاكرا لمن منَّ عليه بالشفاء وهكذا فان هذه التماثيل تحمل طابع النذور .

وفيما يلى نقش كتب على أحد هذه التماثيل بالقاهرة يعطى اسم الواهب وأبيه : «إيمحتب بن بتاح المولود من خردوعنخ : إيمحتب النابض بالحياة ، بينيك بن واح إيب رع Penek son of Wohibre» . وهناك نقش آخر فى القاهرة (رقم ٣٨٠٦٤) يتضمن صلاة خاصة تطلب «عمرا مديدا وشيخوخة عظيمة سعيدة» .

ويوجد فى «متحف ويلكوم» لتاريخ الطب بلندن تمثالان يحملان هذين النقشين : «موسى بن بيدو – بتاح Mose son of Pedu-Ptah [من العصر البطلمى حوالى عام ٣٠٠ ق.م.] و«بتأمون سا إم تاوى» . وفى المتحف البريطانى تمثال موهوب لإيمحتب من المدعو «بتاح موسى Ptah-Mose» ، وآخر موهوب من شخص يدعي إيمحتب أيضا . وفى نفس المجموعة تمثال لإيمحتب نصف الإله فى صورة قرد يقرأ فى بردية ، ومن المحتمل أن يكون هذا التمثال من آثار عبادة الحيوان ، إذ أن القرد كان الحيوان المقدس لتحوت . وفى الكلية الجامعية بلندن Univerity College, London تمثال مهدى من «ون آمون بن تا – خرد – خونسو Ta-Khred-Khons» وفى نيويورك تمثالان يحملان لفافتى بردى مفتوحتين ومبسوطتين على حجرهما عليهما هذه النقوش : «إيمحتب بن بتاح المولود من خردوعنخ» و«إيمحتب بن بتاح الحى» . وهناك تمثال آخر فى متحف برلين (رقم ٢٥١٧) يحمل العبارة التالية : «قطرات من قارورة مياه كل كاتب إلى قرينك (كا) يا إيمحتب» ! [١٩] .

أما المقعد فى التماثيل الجالسة فهو بسيط عادة ، ولكن فى بعض الحالات نجد فيه ثنيات متقنة ، وفى حالة واحدة من أحسن النماذج محفوظة «بمتحف ويلكوم» لتاريخ الطب نجد المقعد فى جزئه العلوى مزدانا بصف يضم حوالى عشرين حية .

ويعتقد «إرمان» [٢٠] أن المظهر البشرى لهذه التماثيل يدل على أنها تنتمى إلى الفترة التى كان فيها إيمحتب لا يزال يُعد نصف إله ، ولم يصل بعد إلى مرحلة التأليه الكامل ، إذ أن هذه الأشكال البرونزية تتناقض كلية مع صورة إيمحتب كإله كامل التى تقابلنا فى العصر اليونانى الرومانى ، حيث نجده يرتدى ملابس الآلهة ويضع اللحية المستعارة ويمسك فى يديه برمز الحياة (عنخ) والصولجان (واس) [٢١] .



الفصل الرابع

إيمحتب .. إله الطب

أنقضت قرابة خمسة وعشرين قرنا بين الزمن الذى كان فيه إيمحتب وزيرا للملك زوسر ، والزمن الذى رفع فيه إلى مرتبة الإله الكامل للطب . ويبدو أن تأليهه قد حدث فى وقت ما حوالى عام ٥٢٥ ق.م. وهو العام الذى فتح فيه «قمبيز Cambyses» مصر ، وحولها إلى ولاية فارسية [١] .

أما الفترة التى تسبق ذلك فى التاريخ المصرى ، وتمتد من طرد الأشوريين فى عام ٦٥٤ ق.م. إلى الغزو الفارسى فى عام ٥٢٥ ق.م. والتى حكمت خلالها الأسرة السادسة والعشرون فهى تعرف بعصر النهضة الصاوى [٢] ، وتعتبر من أزهى عصور التاريخ المصرى . إذ عندما عاد حكم البلاد إلى حكومة مصرية منظمة حدثت نهضة وطنية عظيمة أدت إلى زيادة الرخاء الأقتصادى ، فازدهرت الصناعات ، وأنتعشت الفنون ، ونبضت روح الأمة بتكريم عصر بناة الأهرامات المجيد ، وأعيدت عبادة الفراعنة الأوائل الذين حكموا فى منف ، واستؤنفت الخدمات الجنائزية فى معابدهم ، ومنحت لها الهدايا والأوقاف ، وحتى الأهرامات نفسها أعيد ترميمها على نطاق واسع .

كانت هناك رغبة عارمة فى تكريم بناة المجد المصرى القديم هؤلاء الذين صنعوا عظمة الأمة فى الأيام الخوالى ، ومنهم بالطبع إيمحتب الشهير الذى قام منذ خمسة وعشرين قرناً مضت بدور هام فى حكم الملك «زوسر» ورُفع إلى مصاف القديس أو نصف الإله . والآن عرفانا بفضله على المجد المصرى فقد رفع إلى مرتبة الإله الكامل للطب ومنح لقب «ابن بتاح» ، وهو من أقدم الآلهة المصرية وكان أيضا رباً للشفاء ، وبهذا الأب المقدس الجديد بدلا من أبيه البشرى «كا – نفر» أصبح إيمحتب عضوا فى ثالوث منف الكبير ، والذى أصبح يضم الآلهة «بتاح وسخمت وإيمحتب» [٣] . ويبدو أن المصريين لم يجدوا صعوبة فى اعتبار إيمحتب

ابنا للإله «بتاح» مع أن أمه من البشر العاديين ، فمثل هذه الازدواجية الرمزية كانت ممكنة لأنه كان فى مقدور الآلهة ان يستعيروا الخصائص البشرية ، ويجعلوا امرأة تضع لهم ابنا . وهكذا فإن إيمحتب كان يعتبر ابنا «لبتاح» و«كا – نفر» فى نفس الوقت .

وتبعا لذلك رُفعت أمة «خردوعنخ» وزوجته «رونب – نفرت Ronpe-nofret» بدورها إلى مرتبة مقدسة حيث نجدهما غالبا مقترنتين به فى حين أن اسميهما وألقابهما تدل على طبيعتهما البشرية ، وعادة تبدو «خردوعنخ» برأس بشرية مزينة بغماء على شكل أنثى النسر وريشتين .

وكان الإغريق المتمصرون يدعونه «إيموتس Imouthes أو إسكلبيوس Asklepios» وأدمجوه تدريجيا مع إله الطب الخاص بهم (٤) .

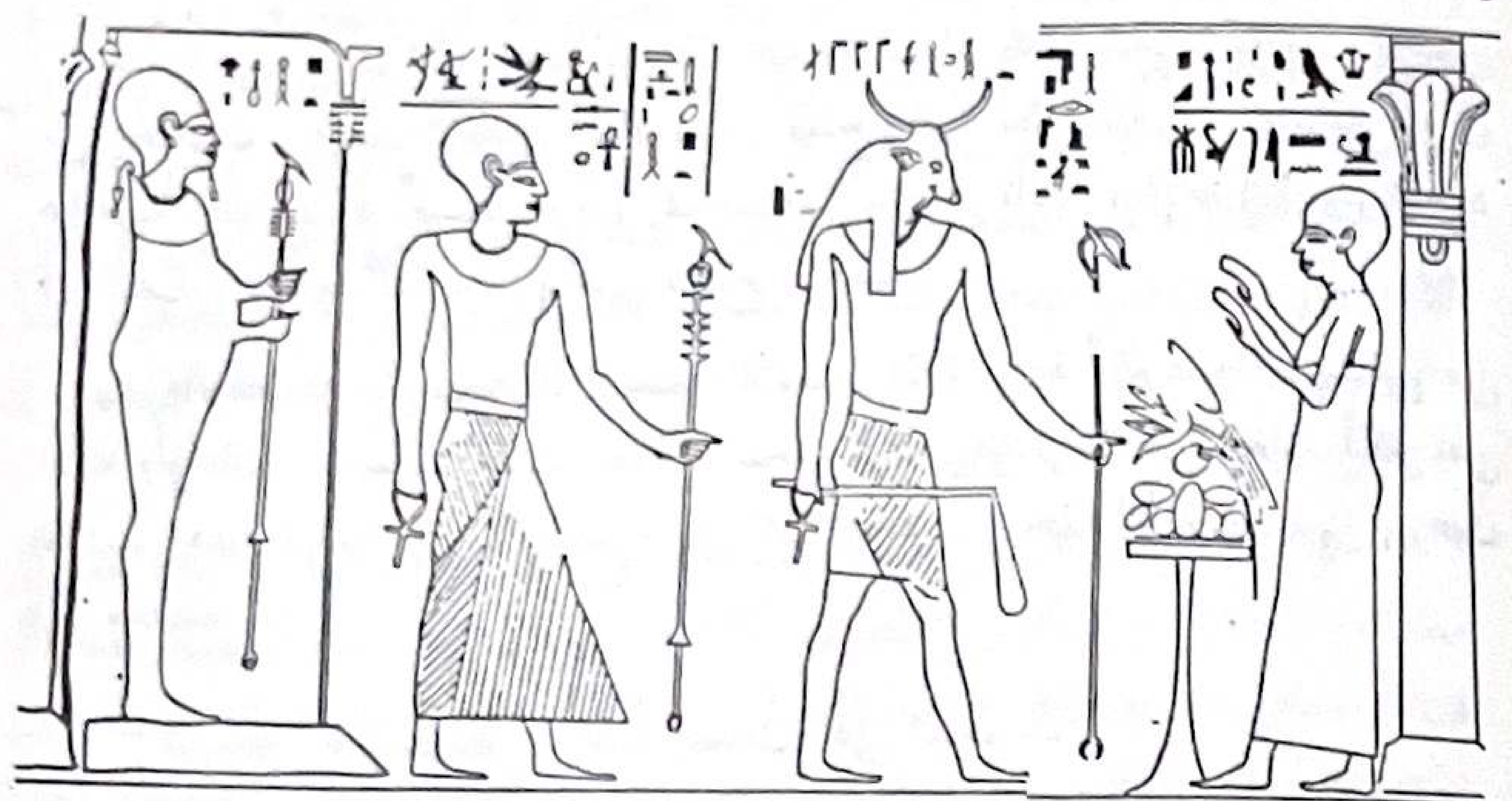
وقد يكون من المناسب أن نورد ما هو معروف عن إيمحتب كإله للطب تحت المباحث التالية :

المبحث الأول : عبادة إيمحتب
المبحث الثانى : معابد إيمحتب
المبحث الثالث : النوم الشفائى
المبحث الرابع : المكتبة الطبية فى الإسكلبيون
المبحث الخامس : أعياد تكريم إيمحتب
المبحث السادس : النقوش التى تتحدث عن إيمحتب كإله
المبحث السابع : المرحلة الأخيرة

المبحث الأول : عبادة إيمحتب

من المحتمل أن تكون عبادة إيمحتب قد ارتبطت أولا بمقبرته ، التى كانت تقع – كما ذكرنا آنفاً – خارج مدينة منف على حافة الصحراء إلى الغرب من المدينة . ومع مرور الزمن أخذت عبادته تنتشر فى كل أنحاء مصر وحتى النوبة .

وأصبح إيمحتب باطراد مقبولًا كإله للطب يُعبد على مستوى الالهة الكاملين لمصر ، ولم يلبث أن أصبح واحداً من أكثر الآلهة شعبية ، كما نعرف من المدائح التى وجهت تقديراً له .



نقش من مقبرة بسقارة ترجع إلى الأسرة الثلاثين (حاليا فى مرسيليا بفرنسا) ، يمثل عبادة الإله « إيمحتب » مع الإله « أبيس – أزوريس » الذى يتقدمه والإله « بتاح » من خلفه .

ويمكن فيما يلى أن نعطى أمثلة قليلة للألقاب التى مُنحت لذلك الإله المحبوب باعتباره إله الشفاء ، والتى وسوف نجد غيرها فى مختلف أنحاء هذا الكتاب :–

(١) «ابن بتاح ، الإله الخيِّر ، المولود من إله الحائط الجنوبى (٥) ، مانح الحياة التى يعطيها لمن يحبهم .. الذى يهيىء الشفاء من كل الأمراض» .

(٢) «الإله العظيم ، ابن بتاح ، الذى يأتى لنجدة من يدعوه أينما كان ، الذى يعطى الأبناء لمن لا أبناء له ، صورة «تحوت» الحكيم وشبيهه» .

(٣) «الذى لا يغفو فى النهار أو الليل» .

(٤) «خر – حب العظيم ، الأول لأبيس ، ابن بتاح ، انيبفريس Anebefres ، الذى يسمع من يتوسل إليه ، القائم على الحائط الغربى لطيبة ، الذى يصنع الخير لسكانها ، الذى يمنحهم الحياة ، ويعطى القوة والحبور لساكنيها ، ويثرى الأرض» .

(٥) «الصقر المقدس» .
(٦) «الذى يعطى الحياة لكل البشر» .
(٧) «الكاهن المرتل الأكبر ، كاتب الإله ، إيمحتب العظيم ، ابن بتاح» .

ولا ينبغى أن تثير شعبية إيمحتب أية دهشة إذ كان يشفى المرضى ، ويحمى من الحوادث ، ويهب الأطفال للعاقمات ، ويمنح الحياة لكل الناس . والواقع أنه فى «الحقبة الهلينستية» أصبح الحكيم إيمحتب ، الذى تم تأليهه ، الإله الرئيسى المعبود فى منف ، ويبدو أنه صار ينافس «بتاح» نفسه .

والواقع أنه ليست هناك بالنسبة للانسان المتألم نعمة أكبر من أن يشفى من آلامه وأوجاعه ، وليست هناك نعمة تستحق الشكر والعرفان من العابد أكثر من تلك ، وهذه النعمة التى لا تقدر بثمن كان إيمحتب يمنحها للأتقياء الذين يهرعون إلى معابده .

ويلخص «برستيد» [٦] حياة إيمحتب على النحو التالى :

«كان الحكيم العظيم إيمحتب واحداً من كبار مستشارى الملك «زوسر» ، نبغ فى الحكمة الكهنوتية ، وفى السحر ، وفى وضع الأمثال الحكيمة ، وفى الهندسة . هذه الشخصية الاستثنائية التلأ عاشت فى حكم الملك «زوسر» تركت من الشهرة ما جعل اسم إيمحتب لا ينسى أبداً ، فأصبح الروح التى تهدى الكتاب اللاحقين ، ولذلك كانوا يسكبون قطرات من ماء محابرهم تكريما لاسمه قبل أن يبدأوا عملهم ، وكان الناس يتغنون بأمثاله فى القرون التالية ، وبعد وفاته بألفين وخمسمائة عام أصبح إلهاً للطب أسماه الإغريق «إيموتس Imouthes» وعرفوا فيه إلههم «إسكليبوس Asklepios» ، وأقيم معبد لعبادته بالقرب من «السيرابيوم» فى منف [٧] . وفى الوقت الحالى يحتفظ كل متحف بتمثال برونزى أو تماثيل لهذا الرجل الحكيم المؤله ، واضع الأمثال ، الطبيب والمهندس الذى عاش فى عصر الملك «زوسر» .

وهناك إشارة مشوقة إلى الإله إيمحتب فى «مراسم التحنيط» [٨] التى تعطى التوجيهات الخاصة بتضميخ المومياء ولفها بالأربطة أثناء تهيئتها للدفن [٩] ، وقد كان الكاهن المشرف على التحنيط يقوم بعد كل توجيه من هذه التوجيهات بتلاوة أدعية

تذكر فيها أسماء أكثر من ثلاثين إلهاً بعضها رئيسى مثل «أوزيريس ورع وبتاح وإيزيس ونفتيس» ، وبعضها أقل أهمية مثل إيمحتب .

وقد كان الاعتقاد الجازم لدى كل مصرى أنه فى رحلته فى العالم السفلى (دوات Duat) بعد موته يجب أن يكون مزوداً ببعض الصيغ السحرية التى تمكنه من مواصلة طر يقه بلا عقبات وتكفل له المؤن الوفيرة التى تقيم أوده . وكان إيمحتب واحداً من هؤلاء الذين يقدمون هذه الصيغ السحرية التى تحمى المتوفى من كل أنواع الأعداء ، وبدون مثل هذه الكلمات السحرية كان الفقراء الذين لا يستطيعون تحمل مصاريف الجنازة أو حتى شراء تميمة رخيصة لا يستطيعون مواصلة طريقهم فى المراحل المتأخرة للعالم السفلى .

ولكن على أى أساس حصل إيمحتب على هذا الشرف الرفيع الذى رفعه إلى مصاف الآلهة ؟ إن التاريخ المصرى بأكمله لا يعرف سوى حالات قليلة جداً نال فيها أشخاص عاديون مثل هذا الشرف [١٠] . إننا نعرف أنه أثناء حياته منحه الملك «زوسر» أكبر المناصب فى الدولة ، وهو منصب الوزير ، ولكن الأجيال التالية منحته شرفاً أكبر حين وضعته بين آلهة مصر .

ويعزو عالم المصريات الفرنسى «ماسبيرو» هذا الفضل إلى تمتع إيمحتب بصفاته العديدة المتراكمة كمهندس وطبيب وحكيم وساحر ، ويعزو تأليه بالذات إلى مهارته فى السحر ، فيقول «إنه بفضل قواه كساحر عُبد إيمحتب كإله» .

وليس هناك من شك فى أن السحر كان له تأثير هائل فى مصر سواء فيما يتعلق بحياة الأفراد أو الأمة ، وكان يُلجأ إليه فى كل المسائل المتعلقة بالحياة والموت ، وبالصحة والمرض ، وبالحب والكراهية . ولكن إيمحتب لم يصل إلى هذه المكانة نتيجة لبراعته فى السحر وحده ، وإنما لقدرته على استخدام السحر كعامل علاجى إلى جانب استخدامه الكامل للمواد الطبية Materia medica الثرية التى تحت تصرفه . وكان يملك أيضا دون شك شخصيه طاغية وموهبة بث الثقة فى النفوس ، وكما هو معروف فإن الطبيب – أى طبيب – يكون أقدر على شفاء المرضى الذين يضعون ثقتهم فيه ، وهذه ظاهرة واسعة التطبيق وإن كانت أكثر بروزا فى علاج الأمراض النفسية والعصبية ، والأرجح أن قدرة إيمحتب على المزج بمهارة بين وسائل

العلاج النفسى والبدنى هى التى رفعته إلى هذه المكانة النادرة . ومما لاشك فيه أنه بعد أن مات وورى التراب دفعت شهرته أفواجاً من الحجيج إلى الحج إلى مقبرته ، وهناك كانوا يزاولون النوم الشفائى ، ويتم شفاء حالات كثيرة بالفعل ، وكانت كل حالة شفاء تؤكد ثقة الناس فى أن الطبيب الساحر المتوفى لا يزال يملك قوى فوق بشرية ، وهذه الشهرة أدت إلى تقديسه ثم إلى عبادته .

وتأليه إيمحتب يثبت أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون فى إمكان تحول البشر العاديين إلى آلهة ، فقد كانوا يؤمنون بأن المتوفى يحيا بجسده فى العالم الآخر . وهذا هو الدافع وراء المراسم الجنازية المعقدة وتوفير ضرورات الحياة للمومياء سواء كانت ضرورات مادية أو سحرية ، وكذلك كانوا يقدمون العطايا والقرابين للمتوفى وسط مراسم سحرية تقام أثناء مراسم الجنازة . وهكذا كان المتوفى الذى لا يزال ينظر إليه على أنه يحيا حياة جسدية ، يعتمد على تقوى الأحياء الذين يخلفهم وراءه واستعدادهم لحمايته ضد الجوع والعطش ، وغير ذلك من الأخطار التى تهدده باستمرار . فالميت يعتبر حياًولكنه ليس خالداً ، إنه لا يزال يواجه احتمال الكارثة الكبرى التى تسميها النصوص «الموت مية ثانية» .

وطالما أن الشخص المتوفى يتمتع على هذا النحو بحماية ذراريه أو تابعيه المخلصين ، فإن لحظة نهايته يمكن أن تؤجل إلى أجل غير مسمى ، بل حتى الآلهة أنفسهم رغم أنهم أقل عرضة للفناء من البشر العاديين إلا أنهم يتعرضون لأوجه الضعف والقصور التى يتعرض لها البشر ، مثل المرض والعجز والموت ، ويحتاجون أيضاً إلى المراسم والتعاويذ ، بل ووسائل الإعاشة المادية لضمان استمرارهم . وهكذا فإن الفرق بين الإله والشخص العادى هو مجرد فرق فى الدرجة . وإذا استمر ذرارى الرجل المتوفى فى تزويده بالمنح والهدايا الكريمة ، على النحو الذى يعطى لإله ، فإن استمراره يصبح مضموناً ، أو كما يقول «ماسبيرو» : «البشر الفانون يمكنهم صنع خالد جديد» ، وهذه الهدايا الكريمة التى يقدمها المخلصون للمتوفى تقوى فى نفس الوقت من مركزه ، فتزداد الهدايا التى تصل إليه ، وزداد بالتالى فرصته فى الحصول على الخلود . هكذا فيما يبدو تسير سلسلة الأحداث التى تؤدى إلى تأليه كائن كان فى الأصل شخصاً عادياً من لحم ودم .

وقد حدثت عملية مشابهة من الرفع التدريجى من انسان إلى مرتبة نصف إله ، ثم إلى مرتبة إله كامل لحكيم شهير آخر هو «أمنحتب بن حابو» [صورة رقم ٣٤] وزير الملك «أمنحتب الثالث» . وقد عاش اسما هذين الحكيمين قرونا طويلة فى الذاكرة الشعبية كبطلين قوميين ، ومع الزمن أصبح يُنظر إليهما على أنهما من طبيعة فوق بشرية ومن ثم أصبحا يستحقان شرف القداسة ، وفى الحالتين – كما هو محتمل – أصبح مكانا دفنهما من مراكز الحجيج للمرضى والمعانين ، وخاصة مكان إيمحتب . وعلى أية حال كان «أمنحتب بن حابو» فى كثير من النواحى نظير إيمحتب ، وما كان يمثله إيمحتب بالنسبة لمنف أصبح «أمنحتب» يمثله بالنسبة لطيبة فى العصور المتأخرة . ومن المحتمل أن يكون تأليهه قد حدث أثناء حكم الملك البطلمى «يورجتيس الثانى Euergetes II» .

ولكن بالنسبة لإيمحتب فإنه أُعتبر إلهاً للطب قبل فتح الإغريق لمصر تحت قيادة «الإسكندر الأكبر» بزمن طويل ، وأطلق عليه الإغريق «إيموثس Imouthes» ودمجوه فى إله الطب المصرى لعدة قرون مزيجاً من إيمحتب القديم ، «وإسكلبيوس» الأكثر حداثة منه ، وكثيراً فى الواقع ما نجد أن شخصية إيمحتب تختفى تحت اسم «اسكلبيوس» [11] .

وخلال المرحلة البطلمية يبدو أن كان هناك بعض الارتباط بين عبادة إيمحتب وعبادة «عجل بتاح المقدس أبيس» . إذ نجد أن «أميانوس مارسللينوس Ammianus Marcellinus» الذى كان يتحدث عن زمن «قيصر أغسطس Caesar Augustus» (٦٣ – ١٤ق.م.) يصف إرتباط «أبيس» بمعبد إيمحتب فى منف ، فيقول :«أنه بعد أن يموت العجل «أبيس» يحدث حزن عام عظيم ، وتبدأ عملية البحث عن عجل آخر له نفس المواصفات . فإذا عثر عليه أُقتيد إلى منف ، وهى مدينة ذات شهرة كبيرة ، ويجرى الإحتفال به تحت رعاية الإله «اسكلبيوس» ، إذ بعد أن يقتاده مائة من الكهنة إلى المدينة ، يجرى إدخاله فى حجرة وينظر إليه على أنه مقدس ، ويقال أن إشاراته ولفتاته تنبئ عن الأحداث التى ستقع فى المستقبل ، فمثلا قد يرفض بعض الأشخاص الذين يدخلون عليه كما حدث فى حالة القيصر «جيرمانيكوس Germanicus» الذى رفض أن يتناول الطعام الذى قدمه إليه ، وبذلك أنبأ عما سيحدث بعد قليل» .



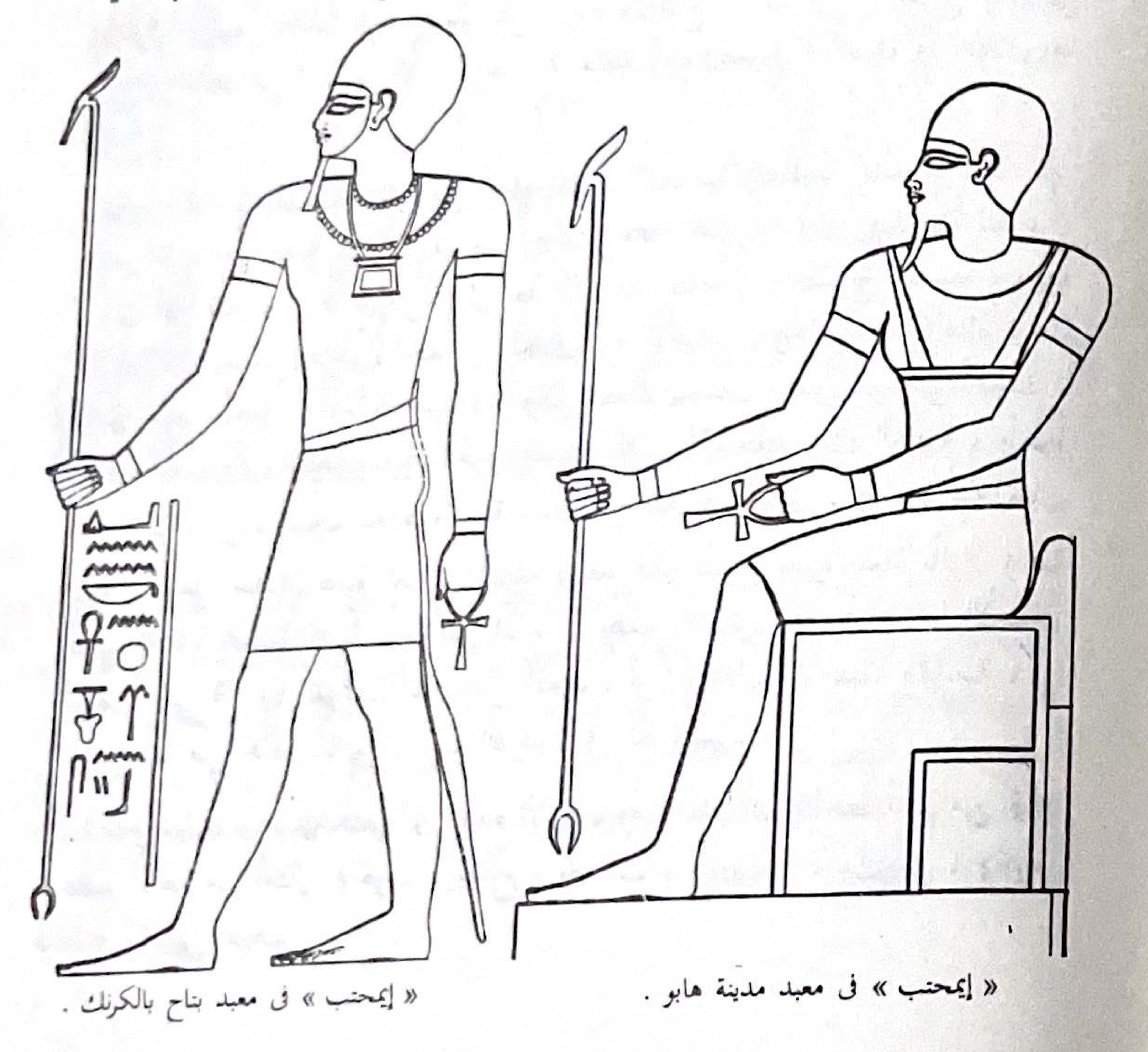
إيمحتب ومعه « أمنحتب بن حابو » أمام ناووس الإله « بتاح » حيث يقدم لهم الملك بطلميوس التاسع القراين – معبد آمون رع بالكرنك .

ومما لاشك فيه أن «أبيس» كان يُدخَل إلى قدس الأقداس فى معبد «اسكلبيوس (إيمحتب)» حيث يجرى لمسه بتمثال الإله ، ويتحول بذلك إلى كائن مقدس [صورة رقم ٣٣] .

هناك أشكال عديدة تمثل إيمحتب كإله كامل للطب [١٢] . مثل هذا الشكل الذى يمثله فى وضع الوقوف ممسكا بصولجان «الواس» فى يد ، وعلامة «عنخ» فى اليد الأخرى ، وهو مأخوذ من معبد «بتاح» بالكرنك . فى حين أن

شكلا آخرا يمثله فى وضع الجالس وهو مأخوذ من معبد «مدينة هابو» . وهناك تمثال برونزى محفوظ فى المتحف البريطانى [القاعة المصرية السادسة تحت رقم ٥٧٩] ويمثل الإله أمحتب وهو يحمل علامة «عنخ» فى يده اليسرى بينما يده اليمنى المكسورة ممتدة ويبدو أنها كانت فى الأصل تحمل صولجاناً ، وقد يكون هذا هو التمثال الوحيد لإيمحتب كإله . ويختلف هذا التمثال فى كثير من التفاصيل عن أشكال إيمحتب خلال الأسرة السادسة والعشرين ، مثلا فى طراز التنورة ، وفى خشونة الساقين ، ومن المحتمل أن يرجع هذا التمثال إلى العصر الرومانى .

وهذان الرسمان للإله إيمحتب يتبعان الخطوط التقليدية لرسوم الآلهة المصرية بالإضافة إلى بعض السمات الخاصة . فعلى الرأس القلنسوة المعتادة متصلة باللحية



« إيمحتب » فى معبد مدينة هابو .

« إيمحتب » فى معبد بتاح بالكرنك .

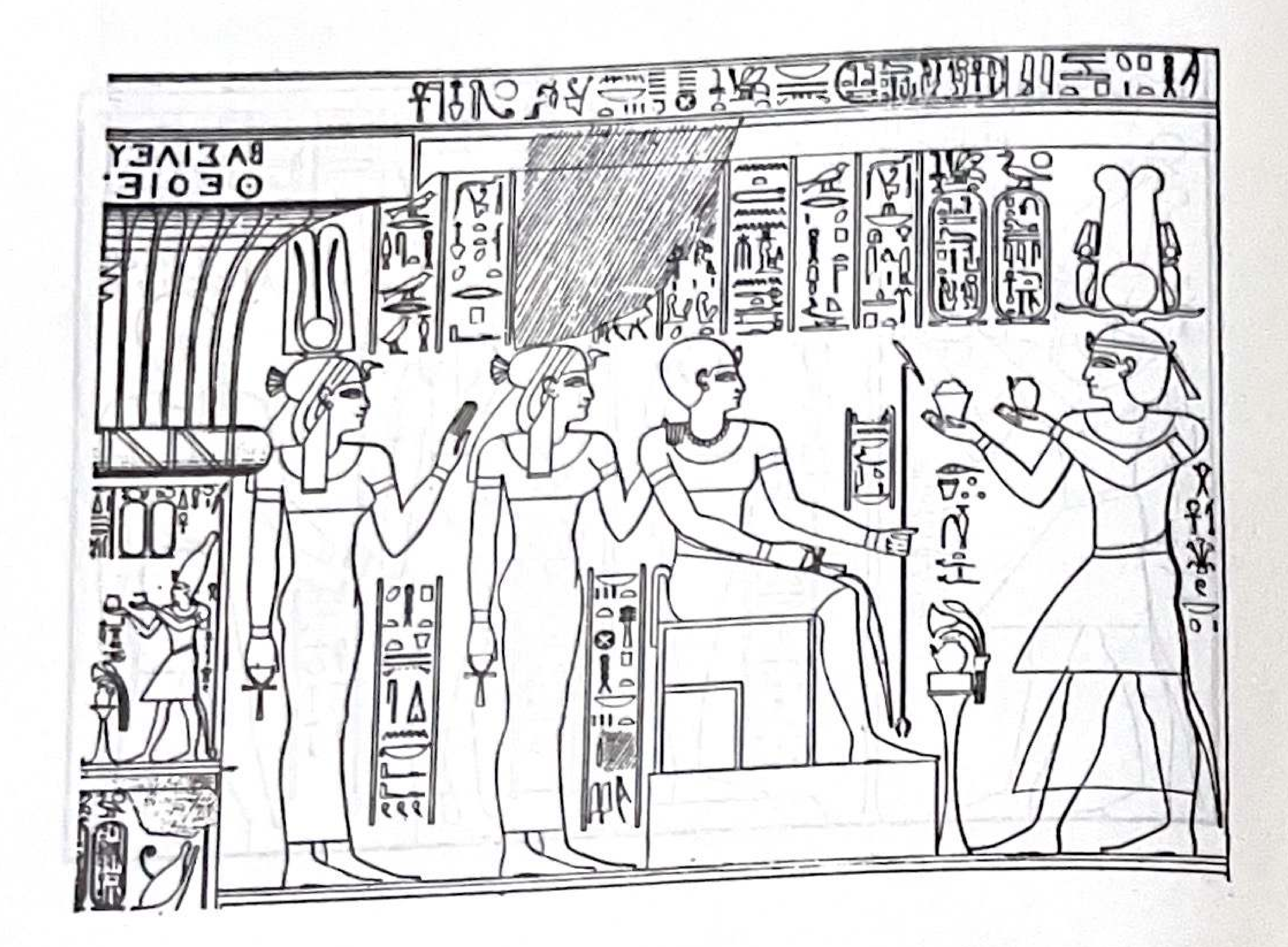
المستعارة التى يرتديها الآلهة ، والثوب قصير ، والحزام حول الوسط يثبت ذيل الأسد من الخلف ، ويمسك الإله بصولجان «الواس» فى اليد اليمنى ، وعلامة الحياة «عنخ» فى اليد اليسرى ، وتشمل الزينة القلادة وأساور الذراع ، ويرتدى الشكل الواقف أيضا تميمة صدرية .

والملاحظ أن رسوم الفنان تعكس السمات المميزة للفن المصرى منذ أقدم العصور .

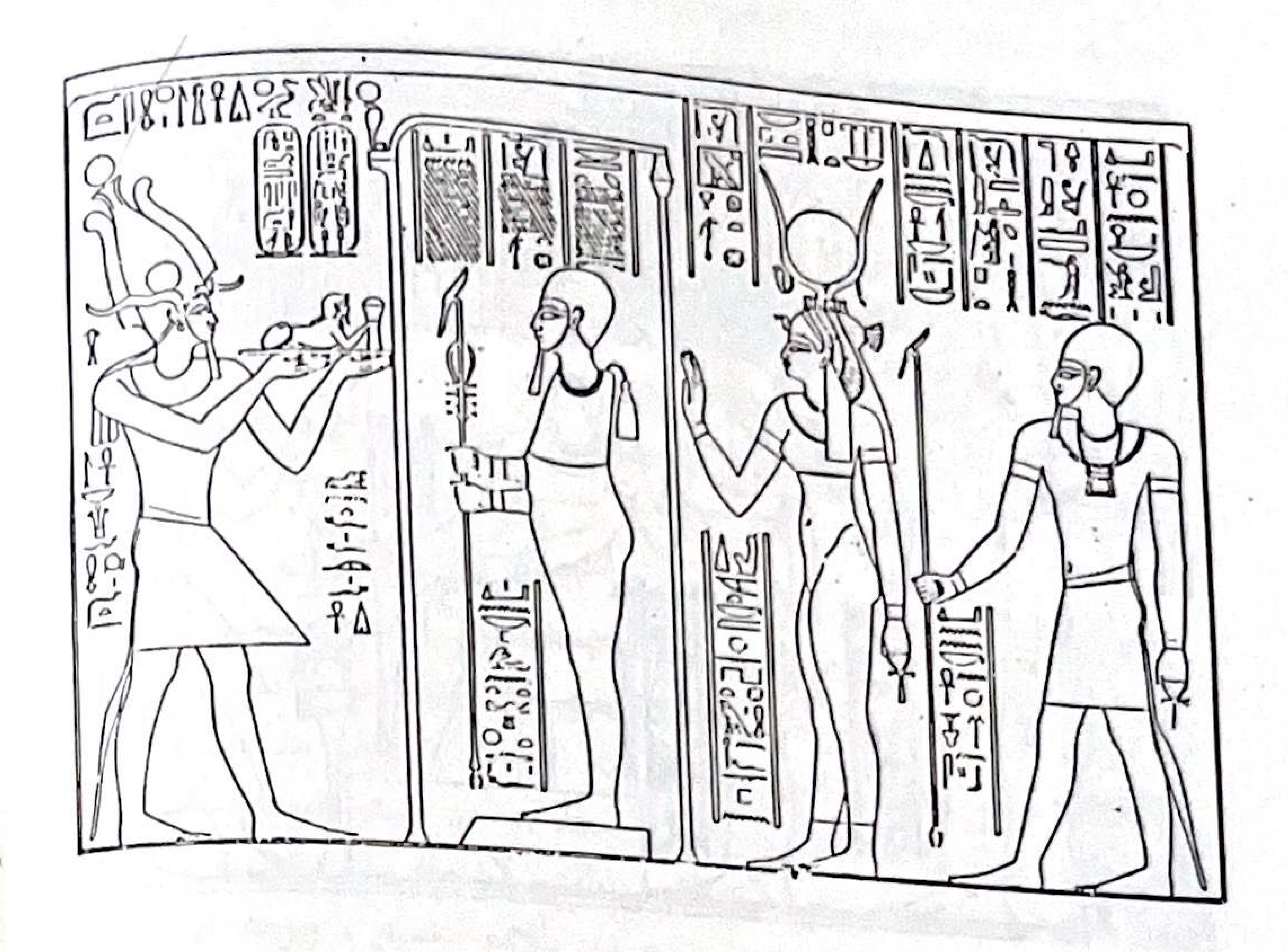
وصور الآلهة التى ترسم على جدران المعابد كانت تملأ عادة باللون الأحمر القريب من البنى ، وهو اللون المألوف بالنسبة للذكور ، أما الاناث فكن يلوّن باللون الأصفر – أما الوجه فيعبر عن الرزانة والارتياح بلا دلالة على الفرح أو الأسى أو غير ذلك من المشاعر كما لا توجد أية خلفية وراء الصورة كالأضواء أو الظلال وما أشبه .

عندما يقترب الزائر من أحد المعابد البطلمية العظيمة فانه يمر أولاً عبر الصرح ، وهو بوابة كبيرة يحيط بها برجان ، وغالبا ماتزينها تماثيل ضخمة للفرعون الذى أقام المعبد . ثم يدخل الزائر بعد ذلك إلى فناء كبير مفتوح للسماء ، وهذا الفناء كان يسمح بدخول الجمهور إليه فى أيام الأعياد . وخلف هذا الفناء توجد قاعة تسمى أحيانا «قاعة الأعمدة» ، وهى مغطاه بسقف مستو يقوم على أعمدة . وبعد ذلك يأتى الدهليز ، ثم الحرم المقدس الذى لايدخله سوى الكهنة ، وأخيراً قدس الأقداس ، بدون نافذة واحدة تبدد من ظلامه العميق ، ويوجد فيه تمثال الإله . وعلى جدران هذه الغرف المختلفة توجد غالبا نقوش بارزة ملونة بألوان زاهية تحمل نقوشاً محشوة غالباً بالعجائن الملونة . وهذه النقوش تمثل عادة إما الأعمال الشهيرة التى قام بها الفرعون الذى بنى المعبد ، أو أحداثا ذات صفة مقدسة ، أو أخيرا صفا من الآلهة الذين يرغب الفرعون فى تكريمهم .

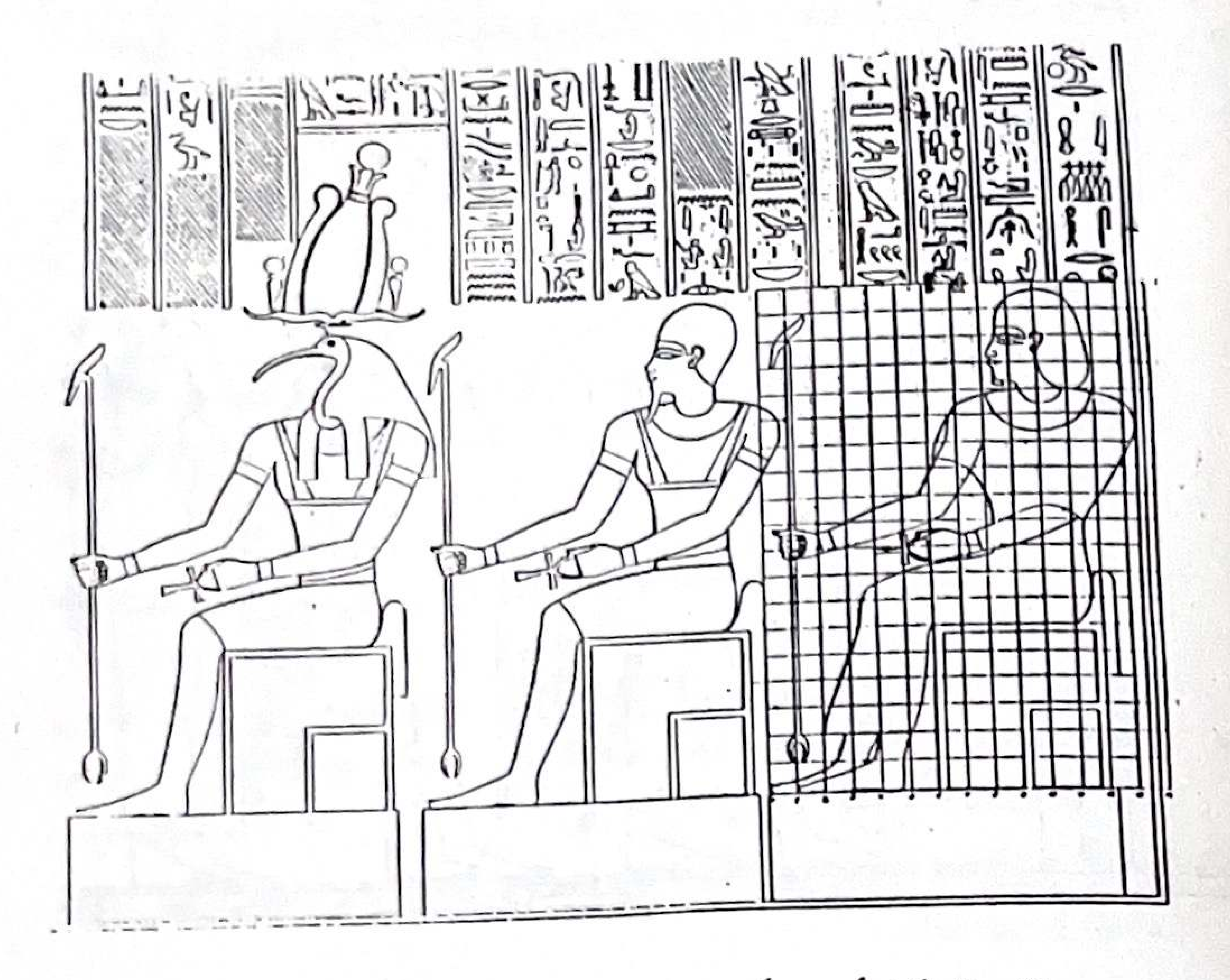
وكثيرا ما يبدو إيمحتب بين هذه الآلهة ، ومن المثير أن نلاحظ أنهم من أقدم وأعظم الآلهة من أمثال «تحوت ، وبتاح ، وماعت ، وأوزيريس ، وإيزيس ، وحربو قراط» وكثيرين غيرهم .



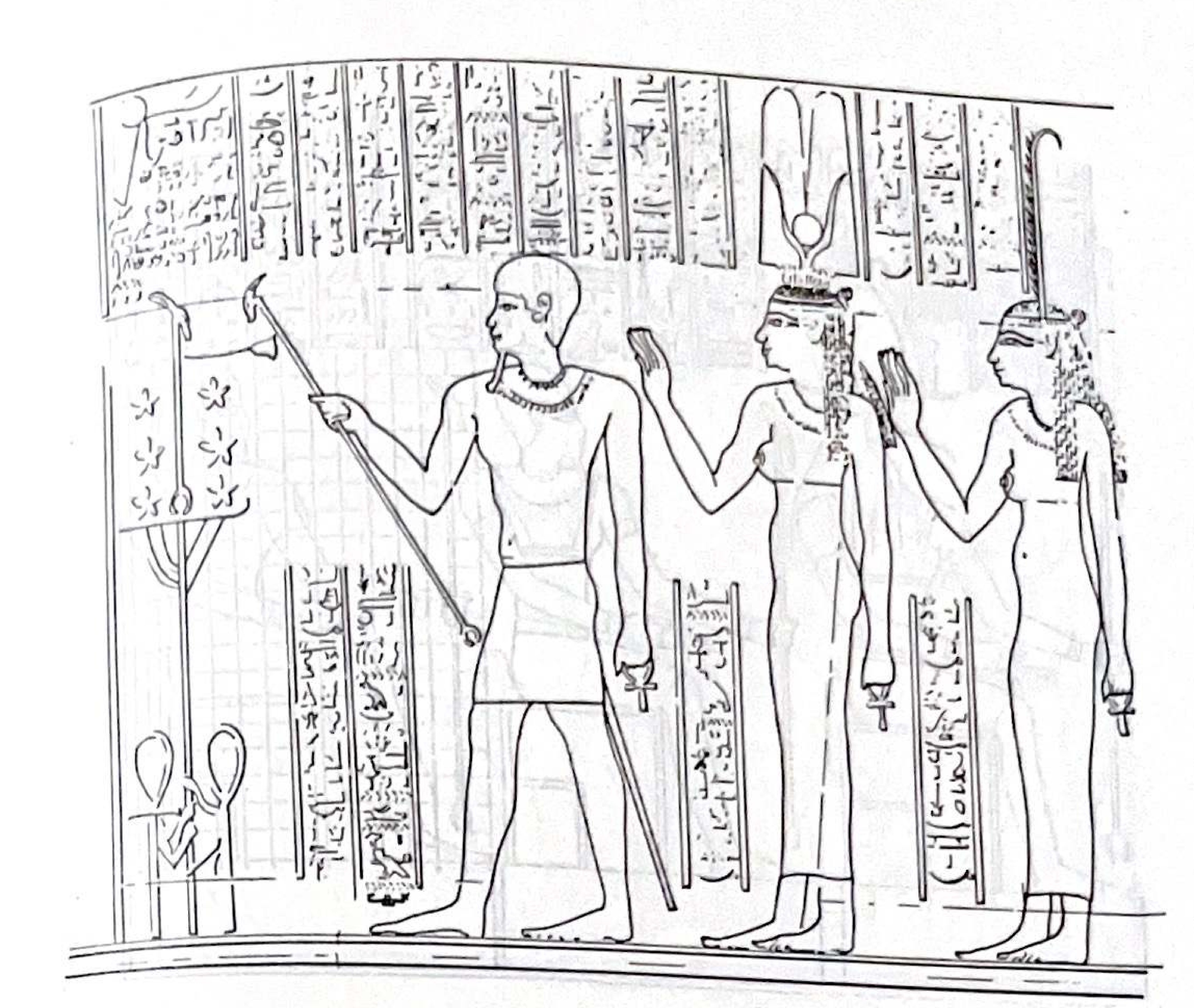
وهذا الشكل مأخوذ من معبد إيمحتب فى «فيلة» ، وتبدو فيه صور أربعة أشخاص يمثلون من اليسار الملك «بطلميوس الخامس أبيفانيس» يحمل فى كل يد قارورة يقدمهما إلى ثلاثة آلهة يجلسون أمامه ، أقربهم إلى الملك إيمحتب يبدو جالساً وهو يحمل الصولجان وعلامة «عنخ» رمز الحياة ، والآلهة التى تقف بجواره من المحتمل أنها أمه «خردوعنخ» التى رفعت إلى مرتبة الالوهية أيضا وخلفها زوجته المؤلهة كذلك «رنبت – نفرت» .



أما هذا الشكل فهو مأخوذ من معبد بتاح فى الكرنك ويبين الملك «بطلميوس الحادى عشر» يقدم هدايا إلى الإله «بتاح» الذى يمسك فى يده بصولجان يتكون من الرموز الثلاثة : «واس» ، أى النفوذ ، و«عنخ» ☥ أى الحياة و«جد» أى الاستقرار ، وكذلك إلى الإلهة «حتحور» التى تضع على رأسها قرص الشمس والقرنين ، وإلى إيمحتب الذى يبدو فى أقصى اليمين .



وذلك الشكل أيضا مأخوذ من معبد مدينة هابو ويبدو فيه «تحوت وإيمحتب وأمنحتب بن حابو» ، كلهم يعبدهم الملك «بطلميوس التاسع» ويبدو «تحوت» برأس الإيبس وفوق رأسه تاج بالغ الفخامة يضم قرنين ويعلوه قرص الشمس ، ويمسك فى يده اليمنى بالصولجان وفى يده اليسرى بعلامة «عنخ» . وخلف «تحوت» يجلس إيمحتب ، وخلفه «أمنحتب بن حابو» ، وهذا الأخير كان أيضا وزيرا وكاتبا ثم إله فيما بعد ، وهو نظير إيمحتب من نواح كثيرة ، وغالبا مايظهر بالقرب منه فى النقوش .



وكذلك فهذا الشكل منقوش فى الحجرة البطلمية التى أضافها «بطلميوس التاسع يورجيتيس» حوالى عام ١٤٠ق.م. إلى معبد الملكة «حتشبسوت» (المعروف بالدير البحرى) وهى زوجة «تحتمس الثالث» [١٤٧٩ – ١٤٤٧ق.م.] .

ويبدو فى هذه الصورة عدد من الآلهة يأتى فى مقدمتهم إيمحتب وهو يمد صولجانه نحو شكل معقد يتكون من علامة «واس» تحيط بها نجوم تمثل آلهة طيبة ، ولكن يبدو أنها طيبة سماوية ، حيث أن النجوم هى التى تسكنها .

وخلف إيمحتب تقف إلهة تشبه «حتحور» على نحو ما ، ويعتقد نافيل [الذى وضع دراسة مفصلة متعددة الأجزاء عن معبد الدير البحرى] أنها أم إيمحتب التى ألهت أيضا ، وهى توصف بأنها «الأم المقدسة ، المربية الطيبة» «خردوعنخ» التى تظهر فى اقليم «مندس» ، والتى ولدت على الأرض فى (مدينة) «عنخ تاوى» فى اليوم السادس عشر من «شهر أبيب» ، ثم تأتى هذه الكلمات التى تخرج من فمها : «إننى أعطيك الحياة مقرونة بالصحة ، عنايتى الحافظة ، تحفظك يا إيمحتب» .

وتُرى إلى جوار «خردوعنخ» إلهة أخرى ربما كانت زوجة إيمحتب «الأخت المقدسة نفر رنبت» سيدة الشعر ، المحبوبة التى تفعم قلب أخيها بالفرح والتى تبهج نفسه بما تفعل» . ومعنى ذلك أنها رفعت كزوجها إلى مصاف الآلهة .

كما يشاهد على منصة واحدة أربعة أشكال أخرى عبارة عن إلهتين يليهما إله ثم إلهة أخرى ، فأولًا تأتى الإلهة «نيت – آمنت» ترتدى لباس الرأس الخاص بمصر السفلى ، وخلفها تقف فى مقصورة الإلهة «أبت Apet» تضع على رأسها ريشتين وقرص الشمس ، وإلى خلفها يبدو ابنها «حور – حكن Hor Hiken» [١٣] وهو شكل غير مألوف نسبيا من الإله «حورس» .

أما الإلهة الأخيرة وهى أيضا فى مقصورة وذات رأس عقاب فهى الإلهة «حكنت Hikent» [١٤] .

وهناك ألقاب عديدة لإيمحتب منقوشة على الحائط ومنها «رئيس كهنة المراسم» و«الكاهن الأكبر لأبيس» و«ابن بتاح الذى ينصت لمن يشكو له على الحائط الغربى لطيبة» و«الذى يفعل الخير لسكانها ، ويمنحهم الحياة ، ويعطيهم القوة والفرح ويثرى البلاد» .

وهناك نقش آخر فى نهاية الحائط يقول : «إن الملايين ومئات الألوف يأتون اليه «وأنه لا ينام نهاراً أو ليلاً ، ولذلك يُدعى «الإله المحسن» ، كما أعطى له لقب «سنو Snw» وهو شكل متأخر من كلمة «سينو Sinw» ومعناها «طبيب» [١٥] .

المبحث الثانى : معابد إيمحتب

أقيمت معابد عديدة تكريما لإيمحتب بعد تأليهه ، المعبد الرئيسى منها فى منف ، وقد أصبح مستشفى شهيراً ومدرسة للسحر والطب (١٦) . وهذا المعبد لم يتخلف عنه أى أثر للأسف (١٧) وكان يقع بالقرب من البقعة التى ثوى فيها الساحر الطبيب العظيم وأسماه الإغريق «الاسكلبيون Asklepieion» τὸ πρὸς Μέμφιν μέγα Ασκληπιεῖον وكان يتكون بلا شك من قاعات عديدة ومبان ملحقة ، بعضها مخصص لعبادة الإله إيمحتب ، وبعضها يستخدم فى أغراض طبية وتعليم الطب للسحرة الأطباء الناشئين ، وبعضها الآخر لإعداد المواد الطبية materia medica وحفظها ، ونحن نعلم من ورقة «إيبرس» وغيرها من البرديات الطبية كم كانت هذه المواد غنية للغاية ، بالإضافة إلى ملحق واحد على الأقل كان يستخدم للنوم الشفائى ، أو إيواء المرضى والمتضرعين للإله من أجل الشفاء . ولا شك أن الكهنة على اختلاف درجاتهم وغيرهم من المسئولين كانوا يحتلون أجزاء خاصة بهم .

ومما لا شك فيه أن هذا المعبد كان يمتلك أوقافاً كبيرة مثل كل المعابد المصرية الأخرى ، وبعض هذه الأوقاف لابد أنها أتت من الأزمنة القديمة عندما كان إيمحتب نصف إله فقط وربما يرجع بعضها كذلك إلى أيام الملك «منكاورع» (١٨) . ومن الطبيعى أنه كانت توجد فى المعبد أيضا معدات مقدسة تستخدم فى العبادة وكذلك هدايا قيمة ونذور قدمها المرضى الذين تم علاجهم من الأمراض ، أما المكتبة فسوف نصفها فيما بعد .

وعلى مقربة من «الاسكلبيون» كان يقع «السيرابيوم» الفسيح (١٩) ، وهو عبارة عن مجموعة من المعابد كان يعبد فيها «الإله سيرابيس» وآلهة مختلفة أخرى . وقد كانت عبادة إيمحتب متصلة على نحو ما بعبادة «سيرابيس» إلى درجة أن المذابح الحجرية المكرسة لإيمحتب كانت تقوم فى «السيرابيوم» وتقدم عليها المراسم اليومية .

ويبدو أن «عشتار أو عشتروت Astarte» ربة الشفاء السورية (٢٠) كانت تعبد أيضا فى «الاسكلبيون» ، فنقرأ «هدية من الزيت مقدمة إلى مصباح معبد الإله إيمحتب والربة العظيمة عشتار» . ومن الواضح أن تخصيص معبد لعبادة إله ما لم يكن يتعارض مع عبادة آلهة أخرى فى نفس المعبد .

وقد وصلت إلينا تفاصيل كثيرة عن المخصصات التى كانت تقدمها الدولة إلى الكهنة الذين كانوا يقومون بالخدمة فى المعابد المصرية أثناء القرن الثانى قبل الميلاد ، وتشمل هذه المخصصات النبيذ واللبن والزيت والخبز ، وكان الزيت نوعين : زيت السمسم ، وزيت كيكى (الخروع) ، أما الخبز فهو مصنوع من الحنطة وهى نوع من القمح .

وإلى جانب الكهنة العادين فى «اسكلبيون Asklepieion» منف كان يوجد كهنة آخرون أقل منزلة منهم مثل «الشقيقات التوائم الشهيرات» ، وقد اكتسبن هذا الاسم لأن هذا المنصب الكهنوتى كان يتطلب أن تشغله امرأتان شقيقتان توأمتان عادة ، وكانتا يتلقيان نظير خدماتهما فى «الاسكلبيون» أربعة أرغفة فى اليوم .

وكان من واجبات «الشقيقات التوائم» حضور المراسم اليومية التى تقام لإيمحتب فى «السيرابيوم» . ونعرف أنه أثناء حكم «الملك بطلميوس السابع» (٢١) حوالى ١٦٣ ق.م.) أصدر أمراً بحرمان «الشقيقتين التوأمتين تاييس وتايوس Taues and Taous» من مخصصاتهما أحقاقاً للعدالة .

ونحن لا نعرف الكثير عن المرضى الذين كانوا يعالجون فى «الاسكلبيون» فيما عدا بعض الحالات التى أفادها النوم الشفائى ، ومع ذلك يمكننا أن نثق أنه كانت هناك أعداد لا حصر لها من المرضى والمشوهين والعميان يقصدون ذلك المعبد الشهير طلبا للشفاء ، ثم يعودون إلى أكواخهم الطينية البسيطة المتناثرة تحت أشجار النخيل أو بين الحقول ، يفيض بهم الشكر والعرفان للإله المحبوب إيمحتب الذى جدد صحتهم وقوتهم ، لقد اتجهوا بكل قلوبهم وعيونهم إلى إلههم ونالوا لقاء ذلك بركته وجائزته الثمينة .

وهناك معبد آخر لإيمحتب يسمى أيضا «الاسكلبيون» ، كان مقاماً فى جزيرة فيلة [صورة رقم ٣٥ ، ٣٦] ولا يزال جزء كبير منه موجوداً إلى اليوم بما فى ذلك بعض القاعات التى ظلت لقرون كثيرة تستخدم فى الأغراض العلاجية والنوم الشفائى (٢٢) .

وإنه لمن الطريف أن نطلق لخيالنا العنان لنتصور كيف كان إيمحتب يعبد فى هذه الجزيرة الشهيرة التى كانت تسمى أحيانا «الجزيرة المقدسة» ، والثرية إلى أقصى حد فيما يتعلق بالدين والتاريخ والعمارة والتصوير . وكم زارها من ملوك وفاتحين وكهنة وسياح بلا عدد وقد فتنوا بجمالها وتركوا سجلات عن زياراتهم وعن الهدايا التى قدموها إلى هؤلاء الآلهة الذين لا زالت معابدهم تزين تلك البقعة المقدسة ، وكم زارها أيضا من مرضى بعضهم محمول على نقالات أو يتنقل بعكازات ، وأمهات يحملن أطفالهن المرضى ، جميعا يقصدون بكل شوق وأمل إيمحتب المحبوب إله الطب الذائع الصيت .

هذا المعبد بناه «الملك بطلميوس الثانى فيلاديلفوس Philadelphus» (٢٨٣ – ٢٤٥ق.م.) ولكن النقوش الهيروغليفية التى تزينه ترجع إلى عهد «الملك بطلميوس الرابع فيلو باتور Philopator» (٢٢١ – ٢٠٣ق.م.) وأحد هذه النقوش يقول :

«الإله العظيم ، إبن بتاح ، الإله الخلاق ، الذى أوجده الإله (تنن Thenen) ، المولود منه ومحبوبه ، رب الأشكال المقدسة فى المعابد ، الذى يهب الحياة لكل الناس ، الإله القوى صاحب المعجزات ، الذى خلق كل الأزمنة (؟) والذى يأتى لمساعدة من يقصده أينما كان ، وهو الذى يهب الأبناء لمن لا أبناء له . خر – حب Kher-hep الكبير ، الذى هو على شاكلة وصورة تحوت الحكيم» .

وهناك نص إغريقى آخر منقوش فوق عتب الباب يكرس المعبد للإله الإغريقى «اسكليبيوس (إيمحتب)» بناء على أوامر «الملك بطلميوس الخامس إيبفانس Epipheves» (٢٠٨ – ١٨١ قبل الميلاد) ، وهذا النص تمكن قراءته كما يلى :[٢٣]

«من الملك بطلميوس والملكة كليوباترة ، آلهة ايبفانس ، وبطلميوس الإبن ، إلى اسكليبيوس ..» .

وباقى النص مثير بالرغم من الثغرات العديدة الموجودة فيه والتى تجعل معناه غير مفهوم كما يجب :

«إيمحتب العظيم ، إبن بتاح ، الذى ينطلق فى السماء مثل الباشق ، الروح القيمة ، الذى يأتى مثل صقر مقدس بصحبة النجوم السيارة (؟) ، الذى يستقبل الـ .. فى مركب الشمس بصحبة النجوم الخالدة (؟) الذى تشع ملامحه (بالنور) وأنت تمر به . الحية .. تنير لك وتفتح الأبواب وأنت تمر عبر قاعة إمحت imh-t (دوات ؟) إن أوزيريس ليبتهج إذ تدخل .. وأنت تأتى من القصر الكبير حات – عات ḥt-ʿ3t [٢٤] .. إنه يستقبلك .. وأمامه (أوزيريس) كل يوم مثل حورس» .

ويمكنك أن تصل إلى معبد إيمحتب عن طريق بهو الأعمدة الشرقى الطويل المؤدى من معبد «أرسنوفيس» إلى الصرح الأعظم (صورة رقم ٣٧) ، وهو طريق يتكون من ١٧ عمودا وتوجد فى حائطه سبع فتحات ، الخمس الأولى منها تؤدى إلى الفناء الذى تقوم فيه أطلال معبد «مندوليس» إله النوبة ، والفتحة السادسة تؤدى إلى معبد إيمحتب الصغير ، وعندما يمر الزائر من هذه الفتحة يجد نفسه فى فناء صغير على جانبه الشرق يوجد مدخل المعبد ، وعلى جانبى المدخل صور إيمحتب وغيره من الآلهة وصفها «ويجال» على النحو التالى :

«على الجانب الأيسر يرى الملك «بطلميوس الخامس إيبفانس» أمام إيمحتب ، وعلى الجانب الأيمن يرى أمام الآلهة «خنوم وساتت وعنقت» ، وأمام «ون نفر وإيزيس وإيمحتب» . وحول فتحة الباب توجد أطر صغيرة تحمل نقوشاً «لأوزيريس وإيزيس وخنوم وحتحور وبتاح وتحوت وإيمحتب» حيث يقدم لهم الملك فروض العبادة ، وعلى عضادتى الباب ألقاب الملك . وهناك أيضا إشارة إلى «إيزيس» ونص يقول : «إنه (الملك) المحبوب من (إيمحتب وبتاح)» .

وللأسف الشديد لم تترك أعمال التخريب التى تعرضت لها المعابد فى العصور التالية سوى القليل من التفاصيل المعمارية لهذا المعبد الصغير ، الذى يمكننا أن نتصور أنه بدرجة أو بأخرى كان على الطراز المعتاد للمعابد الإغريقية . فقد كان هناك ، على الأرجح ، فناء صغير أو قاعة بها بوابات . وفى هذا الفناء يقوم المذبح الكبير المكرس للإله ، والمسموح للزائرين بالدخول فيه . ولاشك أن ذلك المذبح كان يزخر دائما بالهدايا والقرابين مثل الفاكهة والزهور وأرغفة الخبز والبخور ، وغير ذلك من النذور التى يقدمها المرضى الشاكرون . أما تمثال الإله إيمحتب فقد كان محفوظا فى الحرم المظلم المقدس خلف الفناء ، فهذا هو قدس الأقداس الذى لا يسمح

بدخوله إلا للكهنة والمتطهرين من العبّاد . ولاشك أن كانت هناك مبان ملحقة بالمعبد مخصصة للنوم العلاجى واستخدام الكهنة الأقل رتبة ، ولكن عفى على آثارها الزمن .

وليست لدينا أية تفاصيل عن الأوقاف التى كانت مكرسة لمعبد إيمحتب فى «فيلة» ، ولكن مما لاشك فيه أن هذا المعبد كغيره من المؤسسات المقدسة كان يمتلك أوقافاً عقارية . فالقاعدة أن المعابد المصرية كانت توقف عليها مزارع شاسعة تعد بمثابة ملكية مشتركة لهيئة الكهنة المشرفين على إدارة المعبد ، وتقديم مراسم العبادة للإله . ومن الطبيعى أن الحجاج المؤمنين الشاعرين بالعرفان ، سواء كانوا الفرعون على عرشه أو الفلاحين البسطاء ، الذين ينالون بركات الإله بعد النوم الشفائى فى أرجاء المعبد يدفعهم العرفان بالجميل إلى تقديم الهدايا القيمة لهذا الإله ، الذى خلصهم من معاناتهم ومنحهم الصحة مجدداً .

وبالنظر إلى الإندماج بين الآلهة الاغريقية والمصرية فى زمن البطالمة يمكننا أن نربط أيضا بين إيمحتب ومعبد «أسكلبيوس وهيجيا Asklepios and Hygieia» فى مدينة «بتوليمايس هرميو Ptolemais Hermiu» المعروفة حاليا باسم «المنشية» والتى تقع على بعد حوالى ثمانين ميلا شمال أسيوط على الضفة اليسرى للنيل . وهذا المعبد بناه الملك «بطلميوس سوتر الأول» ، وأُعيد تجديده أثناء حكم الامبراطور «تراجان» . فمما لا شك فيه أن إيمحتب قد امتزج هنا أيضا «باسكلبيوس» كما يحدث غالبا فى زمن البطالمة . ومن المحتمل أن النفوذ الإغريقى كان أكثر تحكما فى هذه المدينة عنه فى أى مكان آخر إذ أنها كانت مدينة هيلينية تماما ، يدل على ذلك إضافة اسم «هيجيا» إلى اسم المعبد ، ولكن بصفة عامة كانت عبادة الآلهة الاغريقية ضئيلة فى مصر ، ولا بد أن إيمحتب كان مندمجاً أيضا فى هذا المعبد [٢٥] .

واذا صدقنا ما ورد فى كتاب «Hermetica لسكوت» فقد كان هناك معبد آخر مكرس لإيمحتب فى «الجبال الليبية بالقرب من شاطىء التماسيح» . وهذا النص لا يمكن أن ينطبق إلا على الفيوم ، وربما بالتحديد «مدينة التمساح Crocodilopolis» وهى التى سميت بعد ذلك «أرسينوى Arsinoe» ، حيث تذهب بعض الأقوال القديمة إلى أن إيمحتب مدفون هناك . ولكن للأسف لا يمكن الحصول على أية تفاصيل أخرى عن هذا المعبد [٢٦] .

وإلى جانب المعابد التى كانت مخصصة بالكامل لإيمحتب كان هذا الإله يعبد فى عدة معابد أخرى ، منها معبد أبيه المقدس «بتاح» فى طيبة [٢٧] . وهذا المعبد بناه الملك «تحتمس الثالث» ، ورممه عدد من ملوك البطالمة ، وفيه كان يُعبد الإله «بتاح» وزوجته «سخمت» وابنهما «إيمحتب» ، و«أمنحتب بن حابو» وآلهة أخرى [٢٨] .

ونذكر أيضا المعبد الهام [صورة رقم ٣٨] الذى أقامته الملكة «حتشبسوت» فى صحراء غرب طيبة ، والمعروف الآن باسم الدير البحرى [نسبة إلى دير قبطى كان يقوم فى المنطقة] ، وقد أقيم البناء الأساسى لهذا المعبد فى عهد الأسرة الثامنة عشرة [١٥٤٥ – ١٣٥٠ ق.م.] وكرّس لآمون . والمعبد يحوى عدة أماكن مكرسة لآلهة أخرى منها «أنوبيس» إله التحنيط ، و«حتحور» ربة الغرب ، ولكن الغرض الأساسى من البناء أن يكون معبداً جنازياً للملكة ، التى عثر على مكان دفنها الحقيقى فى وادى الملوك فى عام ١٩٠٣ . وبعد ذلك أُضيفت للمعبد المقصورة البطلمية التى أقامها الملك «بطلميوس التاسع» ، وهى غير مكرسة للآلهة التى وردت أسماؤهم فى الأجزاء القديمة من المعبد ، وإنما كرست لإثنين من الرجال المؤلهين ، وهما «إيمحتب وامنحتب بن حابو» ، إذ يختص كل منهما بحائط فى المقصورة . وقد أصبح الجناح العلوى لهذا المعبد مع الزمن مصحة يقصدها الأفراد الذين تركوا نقوشا ومخربشات عديدة على جدران المعبد تذكر أفضال الإلهين «إيمحتب وأمنحتب بن حابو» [٢٩] .

من هذه الكتابات نقرأ : «الإجلال من فلان للسيد الرب اسكلبيوس» .. «فلان جاء ليعبد الرب العظيم اسكلبيوس» . وعادة ما يقرن الكاتب اسم «اسكلبيوس» مع «أمينوتس Amenothes» (أمنحتب بن حابو) و«هيجيا» . وفى بعض الأحيان يذكر الكاتب اسم زوجته أو أسرته أو أصدقائه فى نقشه التعبدى .

وهناك نص من هذه الكتابات ذكره «ميلن Milne» له أهمية خاصة لأنه صحح مرتين من زائرين آخرين فى أجيال تالية . يقول التدوين الأول : «أوجرافيوس Eugraphios يقدم إجلاله أمام السيد الرب اسكلبيوس وأمينوتس وهيجيا : اذكرونا وامنحونا الشفاء» ، ثم بعد ذلك أراد شخص يدعى «بيسوبيس» – كان من أتباع المذهب الغنوصى فيما يبدو أن يسجل تقديره لبعض الأرواح الغريبة التى

يعبدها ، فأضاف هذه العبادة : «بمساعدة شرستبان Cherstapane وفريتوب Phritob» . وأخيراً جاء زائر مسيحى أزعجه اللجوء إلى كل هذه الآلهة الخرافية فأضاف تصحيحاً لأخطاء هذه القرون الغابرة قائلا : «إن الإله الأحد هو الذى يساعدنا» [٣٠] .

« أمنحتب بن حابو » وخلفه تقف أمه على أحد أعمدة معبد دير المدينة بالبر الغربى بالأقصر – من عصر الملك بطلميوس السادس .

وهناك عدة معابد أخرى بالقرب من الدير البحرى يظهر إيمحتب فى نقوشها الجدارية ، منها معبد بطلمى معروف فى الوقت الحاضر (بقصر العجوز) ، وقد أقامه الملك «بطلميوس يورجيتيس الثانى» للإله «تحوت» ، ويرى فيه الملك وهو يقدم الأضحيات «لتحوت وإيمحتب» ، والحكيم المؤله «أمنحتب بن حابو» بالرغم من أن بعض النقوش لم تكتمل ، وهذا المعبد يقع إلى الجنوب الغربى من تمثالى «ممنون» [٣١] .

وكذلك فإن إيمحتب وأمنحتب بن حابو كانا يُعبدان سوياً فى معبد مدينة هابو [صورة رقم ٣٩] الذى يقع مباشرة غربى تمثالى «ممنون» . وهنا أيضا نجد الحكيمين الشهيرين اللذين أنجبتهما مصر ، وأسبغت عليهما القداسة ، تجرى عبادتهما معاً فى نفس الموضع المقدس .

ونفس الشىء ينطبق على معبد دير المدينة الذى يقع إلى الشمال الغربى من تمثالى «ممنون» ، ومن المحتمل أن هذا المعبد كان قبراً «لأمنحتب بن حابو» ثم حوّله الملك «بطلميوس الرابع» إلى مقام لآلهة الموتى ، وفيه نجد «إيمحتب وأمنحتب بن حابو» يعبدان مع كل آلهة مصر الأخرى [٣٢] .

وربما ينبغى أيضا أن يضاف معبد «إدفو» العظيم إلى مجموعة المعابد التى كان يكرم فيها «إيمحتب حيث يوجد فيه نقش جدارى سوف نصفه فيما بعد فى المبحث السادس .

كما توجد كذلك معابد مختلفة فى النوبة كان إيمحتب يلقى فيها الإجلال الكبير وربما العبادة ، ومنها معابد «دابود والدكة وكلابشة» . ويدل العدد الكبير لهذه المعابد ، وانتشارها فى مصر والنوبة على مدى انتشار شهرة الإله إيمحتب فى وادى النيل [٣٣] .

وإلى جانب هذه المعابد العامة يبدو أنه كانت فى أزمنة البطالمة معابد كثيرة صغيرة أو مذابح أقامها الأفراد فى بيوتهم تكريما لإله الطب إيمحتب على أمل الحصول على حمايته ضد شتى أنواع المصائب ، وفى بعض الحالات كان يجرى تأجير هذه المعابد مقابل نقود يدفعها المرضى الراغبون فى الحصول على عونه فى الشدائد ، وهذه المعابد كانت مكرسة «لإيزيس» و إيمحتب (اسكلبيوس) باعتباره إله الشفاء الرئيسى .

المبحث الثالث : النوم العُلاجى Incubation

تحدثنا عن موضوع النوم العلاجى أو الشفائى فى معبد إيمحتب كنصف إله بشىء من التفصيل فى الفصل الثالث ، ولذلك لاجدوى من أن نكرر هنا المبادىء العامة التى يقوم عليها النوم العلاجى أو الأشياء التى تجرى مزاولته بها . ولكن كلما كانت شهرة الإله فى الشفاء كبيرة ، كانت الفرصة كبيرة أيضا فى شفاء المريض المؤمن بذلك الإله ، ويؤدى ذلك بدوره إلى زيادة شهرة الإله وبالتالى قدرته على الاتيان بالمزيد من معجزات الشفاء .

وقد ازدادت شهرة إيمحتب كإله للشفاء بدرجة كبيرة بعد رفعه إلى مصاف الآلهة فى أواخر العصور الفرعونية ، ونحن نعرف ذلك من انتشار عبادته حتى المناطق النائية فى مصر والنوبة . وأصبح الكهنة الملتحقون بمعابده أكثر مهارة فى قص المعجزات التى تحدث داخل جدران تلك المعابد ، وتحريك أخيلة المرضى المنتظرين ، فبعد أن كان إيمحتب نصف إله محلى أو إقليمى للشفاء أصبح الآن إلهاً قومياً للطب تزداد شهرته ذيوعاً مع كل مريض يستفيد من نومه فى معبده أو تتراءى له الرؤى المقدسة التى تقوده إلى الشفاء .

وقد وصلت الينا قصة مسلية تصور ممارسة النوم العلاجى فى معابد إيمحتب ، سوف نقدمها فيما يلى نقلاً عن النسخة الشعبية التى أوردها «ماسبيرو» [٣٤] ، وعلى القراء الذين يرغبون فى ترجمة أكثر دقة لها أن يتلمسوها فى ترجمة «جريفيث» الكاملة للبردية [٣٥] .

تحكى القصة أن رجلا يسمى «ساتمى خعمواس Satmi Khamuas» — ابن الفرعون «أوسر ماعت رع» — لم يكن له ابن ذكر من زوجته «ماهيتواسخيت Mahituaskhit» ، وكان هذا الأمر يحزنه جداً فى قلبه وكذلك تأثرت زوجته لحزنه . وذات يوم عندما كان «ساتمى» أكثر حزناً عن المعتاد ، ذهبت زوجته إلى معبد إيمحتب بن بتاح ، وتوسلت إليه بهذه الصلاة : «التفت بوجهك نحوى يا سيدى إيمحتب بن بتاح ، يامن تأتى بالمعجزات ، يامن أنت رحيم فى كل أفعالك ، إنك أنت الذى تعطى العاقر إبنا ، استجب لدعائى واجعلنى أحمل طفلا ذكرا» .

وفى تلك الليلة نامت زوجة «ساتمى» فى المعبد ، ورأت فى المنام شخصاً يتحدث اليها قائلا : «ألست أنت ماهيتواسخيت ، زوجة ساتمى ، التى تنام فى المعبد لتحصل على دواء لعقرها من أيدى الإله ؟ [٣٦] عندما يجىء الصباح اذهبى إلى حمام ساتمى زوجك ، وسوف تجدين جذر نبات حنظل نامياً هناك ، انزعى هذا الجذر بأوراقه واصنعى منه دواء اعطه لزوجك ، ثم سوف تنامين إلى جانبه فتحملى منه فى نفس الليلة» .

استيقظت «ماهيتواسخيت» من حلمها بعد انتهاء الرؤيا ، وقامت لفورها بتنفيذ التعليمات التى تلقتها فى الحلم ، ثم نامت إلى جانب زوجها «ساتمى» وحملت منه . وعندما جاء الوقت الذى ظهرت فيه علامات الحمل ، أبلغ «ساتمى» النبأ السعيد للفرعون ، وكان قلبه مبتهجاً بشدة إلى درجة أنه ربط تميمة [٣٧] فى زوجته وأخذ يتلو لها الدعوات ، وأخيرا وضعت الزوجة طفلا حسناً أسمياه «سينوسيريس Senosiris» أصبح فيما بعد ساحراً شهيراً .



تميمة على هيئة « إيمحتب » .

وهناك دليل إضافى عن حالة عقم أخرى شفاها إيمحتب [٣٨] تدور القصة حول سيدة تدعى «ثيت إيمحتب» تنتمى إلى أسرة تضم عدة أمراء فى منف وكبار كهنة بتاح ، ولدت فى العام التاسع من حكم «الملك بطلميوس الثالث عشر» ، أى حوالى عام ٧١ق.م. . وعندما بلغت الرابعة عشرة تزوجت من أخيها غير الشقيق الكاهن «بى — شيرى — ان — بتاح» ، وخلال اثنتى عشر سنة من زواجها وضعت ثلاث بنات ولكنها لم تنجب إبنا ذكراً ، مما أصاب الزوج بهم ثقيل لأنه كان يريد إبناً يخلفه فى منصبه الرفيع . فصلت الزوجة للإله إيمحتب بن بتاح ،

الذى استجاب لها وظهر أمام زوجها فى المنام ، مبشرا بأن يستجيب لصلاته إذا قام بأداء أعمال معنية فى البقعة المقدسة التى دفن فيها جسده فى «عنخ تاوى» بمنف . وعندما استيقظ الكاهن أمر بأداء هذه الأعمال على الفور ، وبعد اتمامها وضعت زوجته له إبنا أسمياه «إيمحتب» وكانا يدعيانه أيضا «بيدى – باست Pedi Bast» .

وبمناسبة هذه الصلوات التى كانت للإنجاب ، يجب أن نذكر أن المصرى كان يعتبر عدم وجود إبن شرعى له بمثابة كارثة فظيعة ، فهو يتوق إلى إبن يرعاه فى شيخوخته ، ويغلق عينيه عند وفاته ، ويؤدى له المراسم الجنائزية ويرعى بناته عند زواجهن ، ويحيى ذكراه عندما ينتقل إلى العالم السفلى (دوات) [٣٩] .

وقد كان يُلجأ إلى النوم العلاجى [٤٠] فى المعابد للشفاء من أمراض كثيرة حيث يقوم الإله بالإيحاء إلى المريض بالرؤى أثناء النوم الطبيعى أو الوقوع تحت تأثير العقاقير ، ثم يتولى الكهنة تفسير هذه الأحلام . وفى حالة عدم نوم المريض كان يقدم نفسه كناطق بلسان الإله ويصف له العلاج الذى يضمن شفاءه ، ومما لاشك فيه أن الشفاء فى كثير من الحالات كان يأتى لتوقع المريض نفسه أن الشفاء قادم اليه لامحاله . فالمتألمون من الرجال والنساء كانوا يشعرون ببهجة كبرى عندما يصلون إلى معبد إيمحتب ويتأملون صورته المقدسة التى يعلقون عليها آمالهم ، وفى وجوده المقدس تبرأ الكثير من الأوجاع والآلام وينتعش الأمل فى شفاء عاجل أو كامل . وهكذا كان النوم فى المعابد بمثابة وسيلة للإيحاء ، وكان الإيحاء بالشفاء أثناء النوم يتحقق بالفعل فى حالات اليقظة ، وكلما كان المريض عاطفياً أو قابلا للإيحاء أصبح احتمال شفائه أكبر .

وحتى فى حالة الأمراض الميئوس من شفائها ، كان المريض يشعر بقدر كبير من الراحة عندما يأوى إلى معبد إيمحتب ، وينال بركته .

ويمكننا أيضا أن نتصور أنه بعد الشفاء كان كثير من المؤمنين الشاكرين يلزمون جوار المعبد وهم فى حالة من البهجة والفرح البالغ ، فيؤثر مرآهم هذا فى القادمين الجدد ويجعلهم أكثر استعدادا لقبول الإيحاء .

وكانوا أيضا يقدمون الحلى الذهبية والفضية الثمينة والتماثيل واللوحات وغيرها من الهدايا إلى معابد إيمحتب فتزداد ثروتها ، ومكانتها فى النفوس .

وفى حالات أخرى كانوا يقدمون نموذجاً للعضو المصاب من الجسم ، سواء كان عينا أو أذنا أو قدماً أو حتى رأسا كنذور إلى الإله .

وانتشار النوم العلاجى فى الأزمنة القديمة خير دليل على قيمته وجدواه فى شفاء كثير من الأمراض النفسية العصبية ، بل والأمراض الجسدية . فعندما تتخفف الروح أثناء النوم من قيود الجسد يبدو اتصالها بالإله أكثر سهولة ، وتحت التأثير القوى للإيحاء بالشفاء فى هذه الحالة تخف الاضطرابات النفسية والبدنية بالفعل . وهكذا لا يستطيع المنصف أن ينكر حقيقة معجزات الشفاء ، ومن منا الآن يستطيع أن ينكر مدى التأثير المتبادل بين الجسد والذهن سواء خيراً أو شراً ؟

• • •

المبحث الرابع : المكتبة الطبية فى «الإسكلبيون» بمنف

كان كل معبد هام فى مصر القديمة مزوداً بمكتبة كبيرة ، بدرجة أو أخرى ، تحوى كتباً مكتوبة على الرق أو ورق البردى ، بعضها كتب مقدسة تستخدم فى المراسم الدينية اليومية ، وبعضها نسخ من كتاب الموتى الذى كان كل مصرى متعلم يحفظه عن ظهر قلب ، بالاضافة إلى لفائف تسجل الحسابات اليومية ، ووثائق خاصة بالكهنة ، وسجلات بالهدايا والهبات التى يقدمها المؤمنون إلى الإله الذى كُرِّس المعبد باسمه [٤١] .

أما المدارس الطبية الهامة مثل تلك التى كانت فى منف ، وطيبة ، وهليوبوليس ، وسايس ، فى زمن البطالمة والقياصرة فقد كانت مكتباتها مزودة أيضا إلى جانب البرديات الدينية والسجلات الحسابية بمجموعة من الكتب أو البرديات الطبية السحرية ، التى تحوى الرق والتعاويذ والوصفات العلاجية التى تدعو إليها الحاجة فى الاستخدام اليومى لإرشاد صغار الممارسين فى الطب والسحر [٤٢] .

ومن الطبيعى بالنسبة «للاسكلبيون» فى منف ومعبد «بتاح» المجاور أنه كانت هناك كتب «تحوت» المقدسة التى كان كل طبيب مرغماً على استخدامها فى علاج مرضاه ، لأنه إذا لم يفعل ذلك كان يعاقب لأنه لم يستخدم الوصفات المعتمدة لعلاج مختلف الأمراض .

وليس من المستبعد أن تكون بين أيدينا الآن بعض البرديات الطبية الأصلية التى كانت موجودة فى معبد «بتاح» أو معبد ابنه المقدس إيمحتب . ففى أوائل القرن التاسع عشر اكتشفت برديتان طبيتان مكتوبتان بالهيراطيقية مدفونتان فى قدر من الفخار على عمق عشرة أقدام من سطح الأرض بالقرب من الهرم المدرج بسقارة ، ويعتقد عالم الآثار الألمانى «بروجش Brugsch» أن إحداهما وهى أهمهما والمعروفة باسم «بردية برلين الطبية» تعود ، طبقا لعلم دراسة المخطوطات القديمة Palaeography ، إلى الأسرة التاسعة عشرة أو الأسرة العشرين (حوالى ١٣٥٠ – ١٠٩٠ ق.م.) . أما البردية الثانية فترجع إلى عهد «رمسيس الثانى» فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهى تضم فقرة تدل على أنها ترجع إلى زمن أكثر قدماً ، بالتحديد إلى عصر بناة الأهرام ، وكتب «بروجش» عن هاتين البرديتين قائلا : [٤٣]

«ليس لدينا شك فى أن هاتين البرديتين ، وبالذات تلك التى نشرناها باسم «بردية برلين الطبية» كانتا تخصان فى الأصل مكتبة منف الطبية وهى التى كان يشير اليها «جالن Galen» وهو يتحدث عن الدواء الشافى لكل الأمراض والذى ينسبه المصريون إلى «إيزيس ..» [٤٤]

«وأكثر من ذلك نحن نعلم أن معبد «بتاح» فى منف كان يضم بين نفائسه الكثيرة عدة برديات تختص بمختلف الفروع المتخصصة فى الطب ، والذى يجعل هذا الاعتقاد أكثر احتمالاً أن هذا المعبد كان يقوم بجواره معبد الإله إيمحتب ابن بتاح – فولكان» ، والذى يعتبر بمثابة «اسكلبيوس المصرى» ، وهذه الكتب الطبية كانت دون شك يستخدمها الأطباء المصريون الذين يرغمهم القانون على استخدامها فى علاج المرضى لأنهم إذا لم يفعلوا ذلك كانوا يستحقون العقاب لأنهم تسببوا بإهمالهم فى موت مريض لم يعالج بالوصفات المقدسة» .

ومما يدل أيضا على قيمة هذه المجموعة من الكتب الطبية السحرية أن مختلف الأطباء الاغريق ومنهم «ثيوفراستوس Theophrastus وجالن Galen» [٤٥] و«ديوسكوريدس Dioscorides» [٤٦] ذكروا فى كتاباتهم عقاقير طبية أو وصفات أو وسائل تشخيص تعلموها فى معبد «بتاح» أو معبد «إيمحتب» فى منف وانتشرت بالتالى فى أوربا . والواقع أن العديد من العقاقير والوصفات المصرية نقلها الاغريق وأصبحت مع الزمن فى أقرباذين (صيدلة) الأمم الأخرى .

ومن أمثلة ذلك لزقة لتخفيف الألم ، مكونة من أول اكسيد الرصاص وزيت الزيتون وعناصر أخرى ، ذكرها «هيراس Heras» الذى كان يكتب عن العقاقير قبل «ديوسكوريدس» مباشرة [٤٧] .

ومثال ثان للزقة أخرى عزاه البعض إلى «هيرمون Hermon» ، ولكن آخرين ذكروا أنه مأخوذ من معبد «بتاح» فى مصر ، وهو مصنوع من نبات «الديتانى dittany» الذى كان يستخدم فى تطبيب الجروح [٤٨] .

ويذكر «ديوسكوريدس» أسماء عقاقير مصرية كثيرة فى كتاباته الطبية materia medica ، وهكذا مثلا أصبح الاسم المصرى لزيت الخروع «كيكى» معروفا فى العالم الاغريقى [٤٩] ، كما يعطى وصفة بخور مصرى تسمى «سيفى Cyphi» أو «كيفى Kyphi» تشبه تلك التى جاءت فى بردية «إيبرس» الطبية ، ودخلت كذلك إلى الطب الاغريقى باسم «كوفى» .

وقد كان المصريون القدماء يستخرجون من جذور الرمان دواء لطرد الدود ، ومن روث التمساح أو السحلاة دواء لعلاج أمراض العيون . وهذه الادوية وأمثالها مذكورة فى بردية «إيبرس» وكذلك ذكرها الكتاب الأغريق من «جالينى إلى باولوس أجينتا Paulus Aegineta» [٥٠] .

هذه بعض الأمثلة للعقاقير والوصفات المصرية التى نقلها الإغريق ثم امتصتها ثقافات الأمم الأخرى . ويؤكد «دوسون W.R. Dawson» أن آثار الصيدلى المصرى يمكن اكتشافها فى الطب الأغريقى واللاتينى والعربى والفارسى والسيريانى والأوروبى ، وسوف نعطى أمثلة أخرى فى الفصل الخاص بالطب المصرى القديم [٥١] .

ونحن لانعرف منهاج الدراسة الطبية الذى كان يتلقاه شباب الأطباء – السحرة فى «الاسكلبيون» ، ولكن يمكن تكوين فكرة ما عن ذلك بجمع الأشارات المتفرقة التى وردت فى هذا الخصوص فى البرديات أو نقوش المقابر .

لاشك أنه لما كان السحر يلعب دورا هاما فى العلاج فلا بد أن الطالب كان يتلقى محاضرات فى تأثير السحر وفى اختيار التعاويذ المناسبة لعلاج كل مرض ، وترتبط بذلك اشارات إلى التاريخ المصرى ، وخاصة الحوادث التى لعب فيها السحر

دورا مفيداً فى تاريخ الآلهة ، وكيف كان الأرباب يتداوون ، وبالتالى يمكن أن يلعب دوراً مشابهاً فى الحياة البشرية [٥٢] .

ومن المؤكد أيضا أن علم النبات كان يلقى عناية خاصة حتى يستطيع الطالب أن يعرف الأعشاب الطبية العديدة التى تنمو فى مصر ، والتى يستخدمها رجال وصفهم «هيرودت» بأنهم أمهر أهل الأرض فى الطب . ومن المحتمل أنه كانت هناك حديقة للأعشاب بالقرب من الاسكلبيون لتسهيل دراسة «الأعشاب الفعَّالة vertuous herbs» بالنسبة للطلاب [٥٣] .

وقد كان المصريون مغرمين دائما بجمع وجلب النباتات والحيوانات النادرة من العالم الخارجى كما تذكر ذلك كثير من النقوش ، ولذا نجد أن كثيرا من العقاقير النباتية المذكورة فى البرديات الطبية مستوردة تحمل أسماء سامية أو أسماء أجنبية أخرى . وقد زين الفرعون «تحتمس الثالث» جدران معبد الكرنك بصور النباتات التى جلبها معه من حملاته الخارجية [٥٤] .

ولابد أن دروس التشريح وعلم وظائف الأعضاء (الفسيولوجى) كانت بدائية جداً حيث أننا كما سنعرف فى الفصل الخاص «بالطب المصرى القديم» كانت حتى المبادىء الأولية للفسيولوجى مجهولة أو على الأقل يساء فهمها ، وعلى العكس من ذلك كان علم العظام متقدماً . كما كانوا يعرفون الكثير عن مكان الأمعاء ومظهرها نتيجة لمزاولة التحنيط . بالإضافة إلى ذلك لابد أنهم كانوا يشرحون الجثث بعد وفاتها . فقد كان من عادة المصريين القدماء فحص الجثث بعد الوفاة لتحديد المرض الذى كان سبباً فى الموت (وهو مايسمى الآن بالطب الشرعى) . وكانت هناك أيضا دروس نظرية وعملية فى الجراحة ، ويبدو أن المشارط كانت تصنع من حجر الظران [٥٥] .

وكانت الدروس فى الطب الإكلينيكى [المبنى على الملاحظة المباشرة للمريض] تحتل مكانا هاماً فى منهاج الدراسة . فكان الطلبة يتلقون دروساً مبدئية فى التشخيص ، ويقارنون بين تأثير العلاج بالتعاويذ السحرية والعلاج بالأدوية ، وكيف يستخدمون هذه الطريقة أو تلك فى ظروف مرضية معينة .

ولاشك أن علم العلاج المصرى القديم قد حقق تقدماً كافياً ، حيث نجد برديات بأكملها قد خصصت لهذا الفرع أو ذلك ، ولذا نجد أن «بردية إيبرس» تتناول سلسلة من الموضوعات تخصص لها مجلدات كثيرة فى الطب الحديث ، ومع ذلك من الواضح أنهم كانوا يعرفون قدراً طيباً عن فن تركيب العقاقير ، بحيث تكتسب مظهراً جذابا ومذاقا حسناً ، إلى جانب تحديد جرعة استخدامها ، وعدد مرات تناولها [٥٦] .

وكانت فى مكتبات المعابد برديات مكتوبة بطريقة جيدة لتستخدم فيما يبدو فى الأغراض التعليمية ، إلى جانب نسخ أقل شكلا صنعت لاستخدام الطلبة والممارسين عندما يغادرون جامعتهم .

* * *

المبحث الخامس : أعياد تكريم إيمحتب

كانت الأعياد الدينية تلعب دوراً بارزاً فى حياة المصريين ، وكانوا يحتفلون بها بين مظاهر البهجة الغامرة ، فتنظم المواكب التى يشارك فيها الكهنة برءوسهم الحليقة ، وأرديتهم الكتانية الناصعة البياض . بالإضافة إلى حشود الناس ، والجميع متحمسون لاظهار الولاء والتكريم للآلهة ، بالموسيقى والغناء والرقص وزينات الورد ، وكانت المآدب التى تقام فى هذه الأعياد تزيد من بهجتها .. وفى المساء كانت تضاء المشاعل العديدة فى الشوارع ، وتبدو أضواؤها المتلألئة من بعد ، ويستمر هذا الاحتفال إلى وقت متأخر من الليل . ويستمر الاحتفال ببعض الأعياد الهامة عدة أيام أو عدة أسابيع أحياناً [٥٧] .

وقد أُلقى الضوء على الاحتفالات التى كانت تقام على شرف الإله إيمحتب بواسطة كتابة منقوشة على قاعدة تمثال فقد معظمه . وهذه القاعدة محفوظة الآن فى المتحف البريطانى ، ومن المحتمل أنها صنعت لحمل تمثال إيمحتب نفسه ، ونعرف من النقوش التى عليها أنه فى زمن البطالمة كانت تجرى احتفالات منتظمة تكريما للإله إيمحتب .

ويبدأ النقش بخطاب موجه إلى الإله «إيمحتب بن بتاح» من صديقه المقدس الكاهن الكاتب «بيدى – باست Pedi Bast» يقول فيه : «إننى ابنك ، المخلص فى خدمة «قرينك thy Ka» على مدى أيام أعيادك ، فى مستهل الفصول والأعياد جميعا بلا استثناء» .

ثم يذكر النص ستة أعياد لإيمحتب «كان يجرى الأحتفال بها أثناء العام هى طبقا لعالم الآثار الفرنسى «جوتييه H. Gauthier» ، الذى قام بنشر النص كما يلى :[٥٨]

* اليوم السادس عشر من الشهر الثالث للصيف «أبيب» ويعادل يوم ٣١ مايو .
* اليوم الحادى عشر من الشهر الثانى للشتاء «أمشير» ويعادل يوم ٢٧ ديسمبر .
* اليوم التاسع من الشهر الرابع للصيف «مسرى» ويعادل يوم ٢٣ يونيو .
* اليوم السابع عشر من الشهر الرابع للصيف «مسرى» ويعادل يوم أول يوليو .
* اليوم الثالث والعشرون من الشهر الرابع للصيف «مسرى» ويعادل يوم ٧ يوليو .
* اليوم الرابع من الشهر الثانى للصيف «بؤونة» ويعادل ١٩ ابريل .

ويلاحظ أن هذه الأعياد ليست مرتبة حسب الترتيب التاريخى لشهور العام ، وانما هى منظمة طبقاً لأحداث معينة فى حياة ووفاة الإله إيمحتب المحتفى به ، وذلك على النحو التالى :

١ – الاحتفال الأول

«اليوم الذى ولد فيه إيمحتب من أبيه «بتاح» وأمه «خردوعنخ» حيث سر قلب الإله الكبير ، أبى الآلهة ، برؤيته» .

٢ – الاحتفال الثانى

«اليوم الذى ظهر فيه إيمحتب أمام أبيه «بتاح وسخمت العظيمة المحبوبة من بتاح والتى رسمته إلهاً وعظّمت صورته» .

٣ – الاحتفال الثالث

«اليوم الذى تم فيه ذبح الآسيويين الأشرار بواسطة سخمت العظيمة المحبوبة من بتاح التى مزقت أطرافهم وحرقتهم ، وأسرت مراكبهم فى منطقة أرض البحيرة الحمراء» .

٤ – الاحتفال الرابع

«اليوم الذى ناح فيه الأب بتاح على ابنه إيمحتب عندما مات (؟) ... جسده ... وروحه عندما توحدت من جديد (؟) [ربما هذه اشارة إلى انفصال الروح عن الجسد فى لحظة الموت للإله] .

٥ – الاحتفال الخامس

«اليوم الذى هجع فيه إيمحتب أمام أبيه (بتاح) بعد موته : فكان يدخل ويخرج أمام الإله العظيم ، وعادت روحه إلى الاتحاد بجسده ، واستقر فى ديهان Dehan الكبير ، وهو كهف حبيب إلى قلبه» .

٦ – الاحتفال السادس

«اليوم الذى رحلت فيه روح إيمحتب إلى المكان العظيم ، وبدأت رحلة هذا الإله فوق الأرض كلها» .

وهذه القائمة بالاحتفالات التى كانت تقام لإيمحتب تلقى بعض الضوء على أحداث هامة فى حياته ، فالاحتفال الأول يؤكد حقيقة أن إيمحتب قد وضعته امرأة من البشر الفانين وأن أباه «بتاح» قد سر لمولده .

والاحتفال الثانى يبدو أنه يشير إلى نقل تمثال إيمحتب فى موكب مهيب إلى معبد «بتاح» المجاور حيث كانت تقام بلاشك المراسم المعتادة فى معابد الآلهة .

والاحتفال الثالث قد يكون اشارة إلى اساءة مست إيمحتب من الآسيويين الأشرار ، لا نعرف شيئا عن تفاصيلها ، ولكن الإلهة «سخمت» صبت عليهم انتقاماً عاجلاً .

والاحتفال الرابع يسجل وفاة إيمحتب حيث حزن عليه أبوه «بتاح» (٥٩) ، بينما الخامس يشير إلى دفن جسده وربما كان المكان المسمى «ديهان» الكبير كهفا فى جبانة منف مرتبطاً بمقبرة إيمحتب . وأخيرا فإن الاحتفال السادس يتعلق بتأليه إيمحتب .

ولاشك أنه فى هذه الاحتفالات كان تمثال إيمحتب يؤخذ من «قدس الأقداس» وهو مغطى بحجاب ، فيوضع فى قارب مقدس يحمله الكهنة على أكتافهم ويطوفون به فى أنحاء المدينة ، وفى محطات معينة يضعون حملهم على قاعدة أعدت لذلك ويحرق البخور وتقام الصلوات أمام المذبح ، وفى النهاية يسحب الحجاب من فوق التمثال وتبدو الصورة المقدسة أمام أعين العابدين (٦٠) .

ونحن نعرف أن هدايا كثيرة كانت تقدم إلى الآلهة التى يجرى تكريمها فى الاحتفالات الدينية الكبرى . واذا كان الأمر كذلك فى حالة إيمحتب فلابد أن مذبح معبده فى منف كان محملاً دائما بكميات كبيرة من الخبز واللحم وجرار النبيذ والجعة ، بالاضافة إلى هدايا أقل قيمة كالأزهار والعسل .. الخ . وكثير من هذه الهدايا كان يقدمها - بلا شك - الأشخاص الشاكرون الذين شفوا من مرض أو حادث ، أو الذين يأملون فى الحصول على فوائد مشابهة فى السنوات القادمة . ومن المحتمل أن إيمحتب كان من أكثر آلهة مصر شعبية واتباعاً ، بصفته إله الشفاء المحبوب الذى يهب الصحة والعافية ، بل البصر والنطق لبعض الضارعين المرضى الذين يأتون إلى ضريحه . وكانت هذه الهدايا تخصص للانفاق على المعبود ، واقامة المراسم فى المعبد ، واعانة الكهان ، وكذلك لاطعام الحجاج الذين يأتون من بعيد وقريب التماساً لبركة الإله .

* * *

المبحث السادس : النقوش الخاصة بإيمحتب كإله

على جدران مختلف المعابد فى مصر والنوبة يمكننا أن نشاهد صورا جدارية كثيرة للإله إيمحتب وهو يحمل صولجان «واس» وعلامة «عنخ» رمز الحياة . ونجد الإله فى بعض هذه الصور واقفا على قدميه ، وفى بعضها الآخر يتخذ وضعاً

جالساً ، وكل هذه الصور الجدارية ترجع إلى العصر الفارسى أو ما بعده من العصور ، أى فيما يتلو عام ٥٢٥ق.م.

وتصحب هذه الصور عادة نقوش كتابية موجهة إلى إيمحتب مع غيره من الآلهة من الملك البطلمى الذى أنشأ المعبد أو قام بتجديده ، فمثلا نجد النقش الخاص بمعبد قصر العجوز الذى سنشير اليه فيما بعد يقول :
«ابن بتاح ، الإله الخيّر ، المولود من إله الحائط الجنوبى [بتاح] ، مانح الحياة ، الذى يمنح هداياه لمن يحبه ، والذى يسمع [هؤلاء الذين يدعونه ؟] ويهب الشفاء من كل الأمراض» .

وفيما يلى قائمة بأهم هذه النقوش الكتابية الموجهة إلى إيمحتب بصفته إلها للطب :

أولا : طيبة

(أ) الكرنك [صورة رقم ٤٠]

فى معبد «بتاح وحتحور» بالكرنك الذى أقيم تكريما لبتاح إله منف ، الذى هو «فولكان Vulcan» لدى الأغريق ، يوجد نقشان خاصان بإيمحتب ، الأول فى القاعة ذات السقف القائم على عمودين حيث نرى «بتاح وحتحور وسماتاوى وإيمحتب وأمنحتب بن حابو» .

ويوجد النقش الثانى على الجانب الجنوبى من الحائط الشمالى الذى يطوّق معبد آمون حيث نرى «بطلميوس الحادى عشر» وهو يبجل عددا من الآلهة تضم فى آخرها إيمحتب وأمنحتب بن حابو (٦١) .



معبد الدير البحرى - البر الغربى بالأقصر .

(ب) الدير البحرى

توجد فى معبد حتشبسوت صورة لإيمحتب فى وضع واقف بالقرب من الحكيم المؤله الآخر أمنحتب بن حابو ، أما النقش الجدارى فمعظمه فى القاعة الشمالية للمعبد حيث يرى إيمحتب على الجدار الغربى وأمنحتب على الجدار الشرقى [٦٢] .

(حـ) مدينة هابو

نجد إيمحتب فى معبد «تحوت» بمدينة هابو مصورا بصحبة عدد من آلهة الشفاء الآخرين ، منهم «تحوت» الإله الكبير ذو الشهرة الواسعة كساحر وإله للطب ، و«تيوس Teos» وهو إله آخر للشفاء وأخيرا أمنحتب بن حابو . وقد كان الثلاثة «إيمحتب وأمنحتب وتيوس» حكماء مؤلهين يرون فى معية «تحوت» ، هرمس مصر ، بينما يُرى الملك «بطلميوس التاسع يورجيتس» يقدم القرابين إلى «تحوت» وهذين الحكيمين اللذين يظهران إلى جانبه كدليل على الشرف الرفيع الذى يتمتعان به [٦٣] .

(د) دير المدينة

فى هذا المعبد الجنائزى الصغير الأنيق نجد إيمحتب المؤله مصوراً إلى جانب الحكيم المؤله الآخر أمنحتب ، ويرى الاثنان على الجدار الداخلى الفاصل بين الفناء المكشوف وبقية أجزاء المعبد . وفى هذا الجدار الفاصل يوجد عامودان بتاجين كبيرين يحملان رسما لإيمحتب وأمنحتب . وهذا المعبد بدأه «بطلميوس الرابع» وواصل العمل فيه «بطلميوس السابع» وأتمه «بطلميوس التاسع» [٦٤] .

(هـ) قصر العجوز

هذا المعبد الذى أقيم للإله «تحوت» يتكون من دهليز وثلاث غرف . على حائط المدخل الأيسر للغرفة الثانية يُرى «بطلميوس التاسع» يقدم مراسم العبادة لتحوت وإيمحتب وأمنحتب بن حابو ويرى إيمحتب مرتدياً مئزراً قصيراً كالذى يرتديه «تحوت» فى حين يجلس أمنحتب خلف إيمحتب مرتدياً مئزراً طويلاً لزوم الاحتفال . ومن المحتمل أن توجد نقوش أخرى لإيمحتب فى نفس المعبد [٦٥] .

ثانيا : فيـــلة

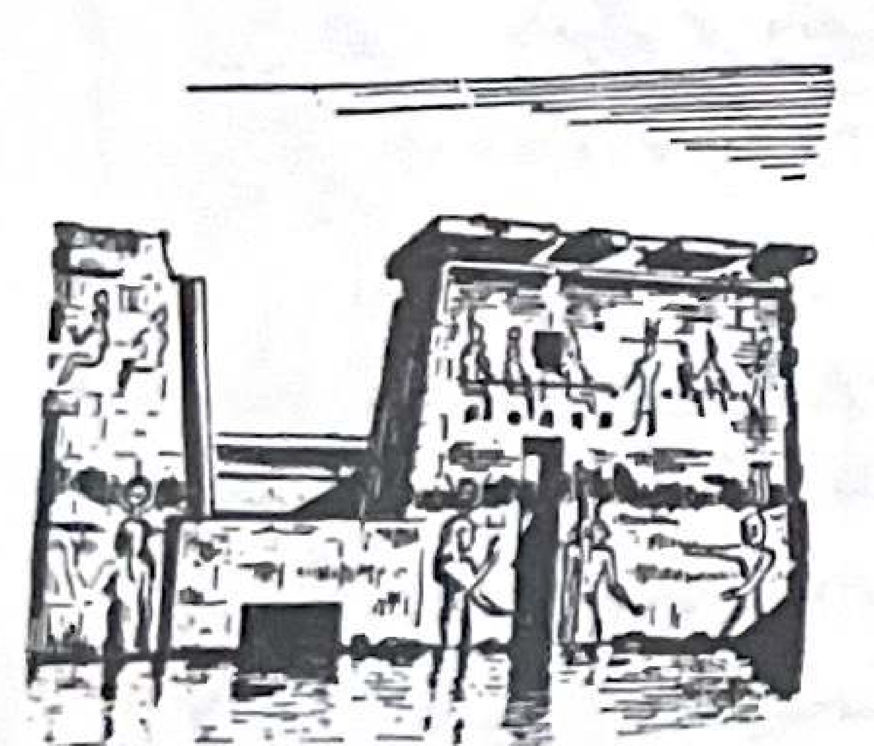
توجد على الصرح الخارجى لمعبد إيمحتب فى فيلة [الذى نقل الآن إلى جزيرة أجيليكا] خمس صور للإله إيمحتب ، ثلاث منها فى وضع واقف ، واثنتان فى وضع جالس ، ويرى الملك «بطلميوس الخامس» فى احدى هذه الصور وهو يقدم البخور للإله ، وفى صورة أخرى يرى نفس الملك وهو يقدم للإله صورة الإلهة «ماعت» ، وفى الثالثة يقدم نبيذاً لإيمحتب وغيره من الآلهة ، وفى الرابعة يقدم الملك أيضا بخوراً ويسكب خمراً ، بينما فى الخامسة يرى الملك ممسكا بهراوة وهو يقف فى حضرة الإله [٦٦] .

وعند مدخل المعبد توجد صورة أخرى للإله إيمحتب واقفاً مع «إيزيس وأوزيريس» وترجع إلى نفس الفترة .

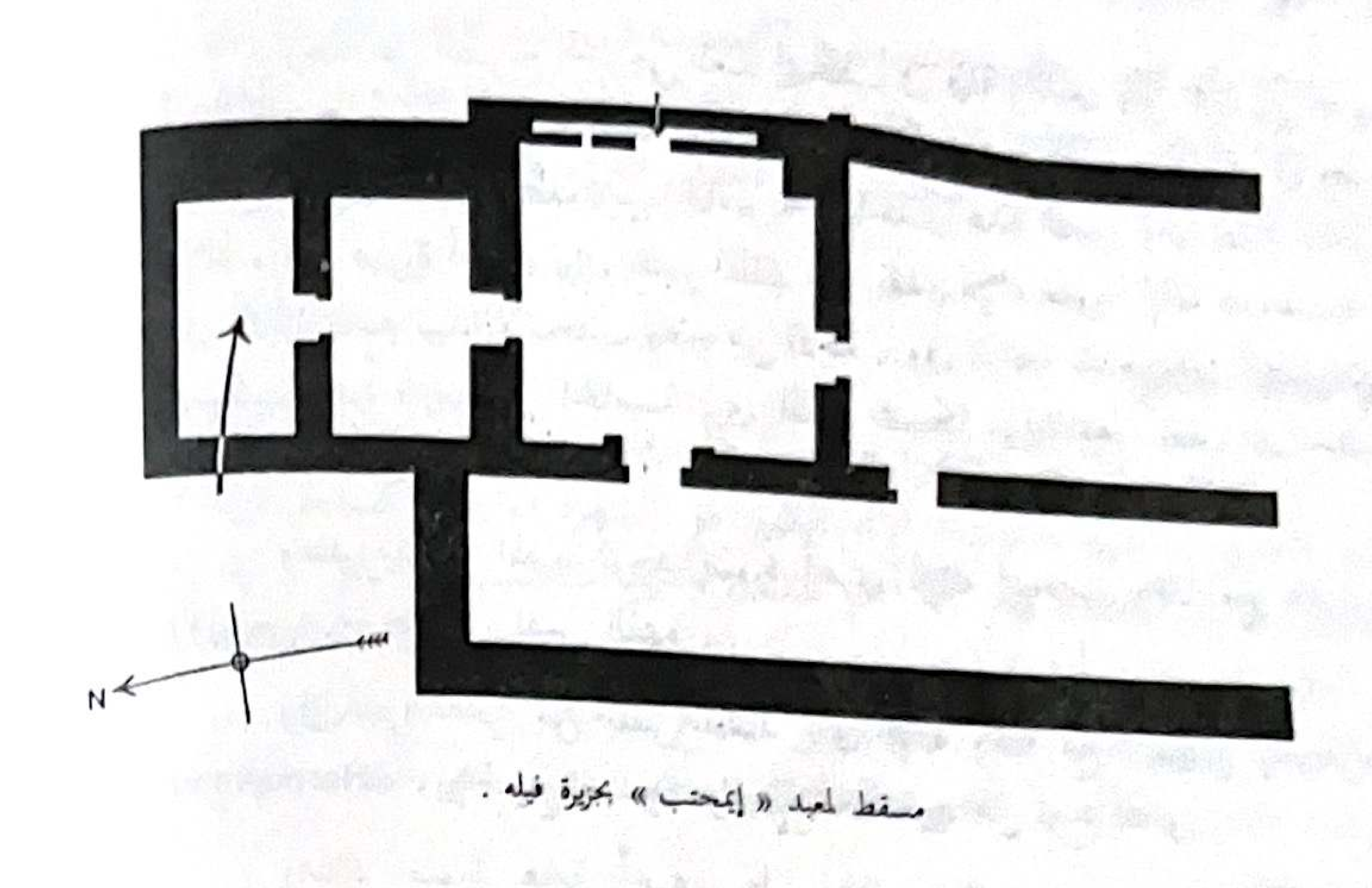
وفى جزء آخر من نفس المعبد يرى الإله واقفا مع «إيزيس وحربقراط Harpocrates» ، والجميع يعبدون بواسطة ثمانية قرود من نوع البابون .

وهناك صورة هامة أخرى على الجانب الغربى من بوابة «بطلميوس فيلاديلفوس Philadelphus» يرى فيها الامبراطور «تيبريوس Tiberius» يقدم البخور إلى إيمحتب الذى يقف أمامه ممسكا بعلامة «عنخ» فى يده اليمنى وبصولجان «واس» فى يده اليسرى .

وأخيراً هناك أيضا الصورة الملونة الجميلة المصورة بالنقش البارز على الجانب الأيمن للداخل إلى المعبد .



جزيرة فيلة .

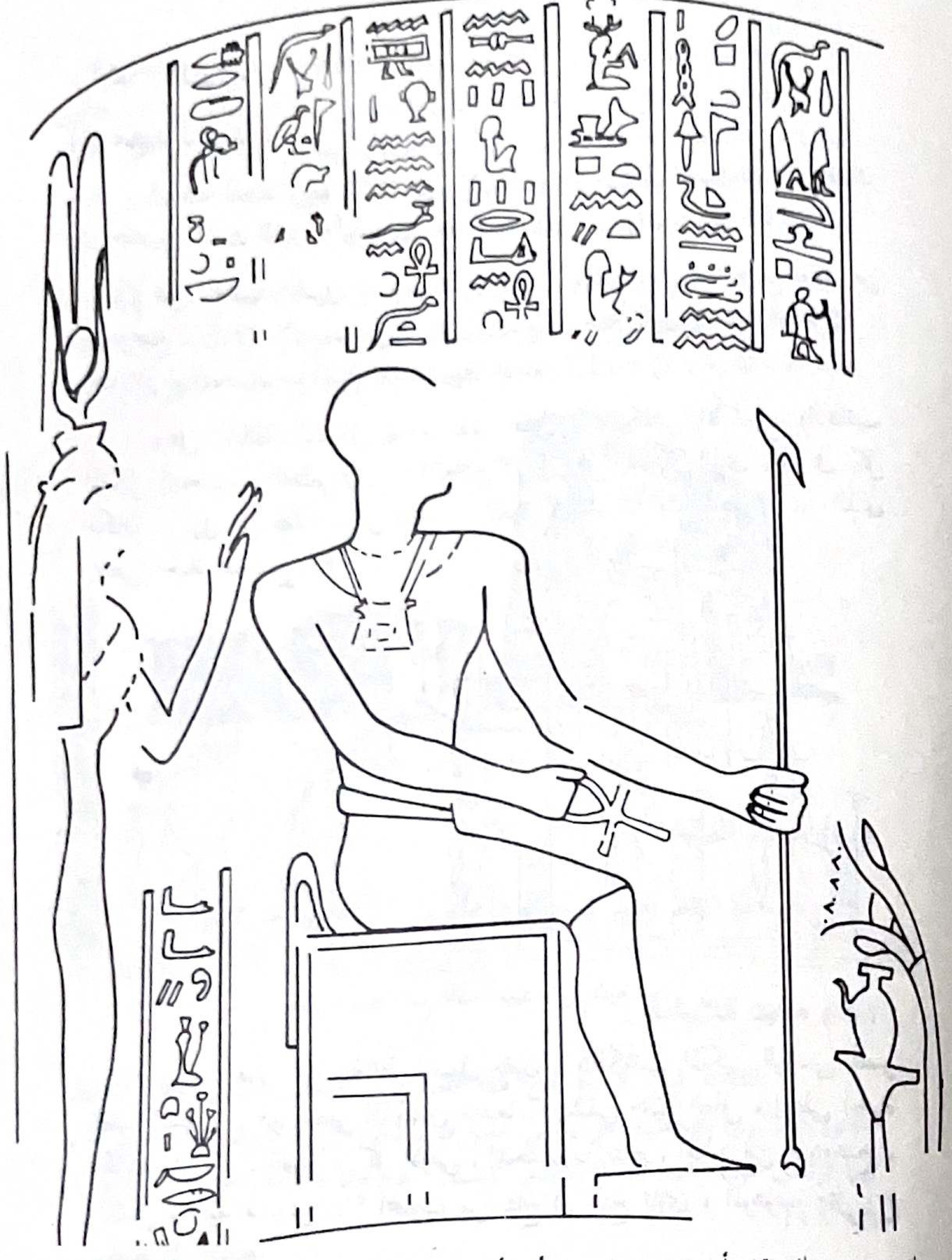


مسقط لمعبد « إيمحتب » بجزيرة فيله .

ثالثا : إدفــو

توجد صورة لإيمحتب على الجانب الداخلى للسور المحيط بمعبد إدفو [صورة رقم ٤١] من الناحية الغربية يرى فيها وهو مرتد جلد نمر ، الرداء المعتاد لكبار الكهنة ، ويقرأ من لفافة بردى يحملها مدون عليها تاريخ الحرب لأهلية التى قامت بين أنصار «حورس» وأنصار «ست» ، والتى أدت إلى إلحاق هزيمتين كبيرتين بالأخير فى «هليوبوليس» و«حا» أو «حات»(٦٧) .

فى هذا المنظر نرى كاهنا يدعى «منحو Menhu» ورجلا يذبح ويقطع حيوانا قد يكون خنزيراً أو فرس النهر يمثل «تيفون Typhon(ست Set)» بينما يقف إيمحتب ، كبير الكهنة ، ملتحفاً بجلد نمر وعلى رأسه ما يشبه الخوذة وهو يقرأ مبررات انتصار «حورس» ، وإلى جواره نقشت هذه الكلمات : «الكاهن الأكبر ، كاتب الإله ، إيمحتب العظيم ، ابن بتاح» .



« إيمحتب » وخلفه تقف أمه « خردوعنخ » على أحد أعمدة معبد دير المدينة بالبر الغربى بالأقصر – من عصر الملك بطلميوس السادس .

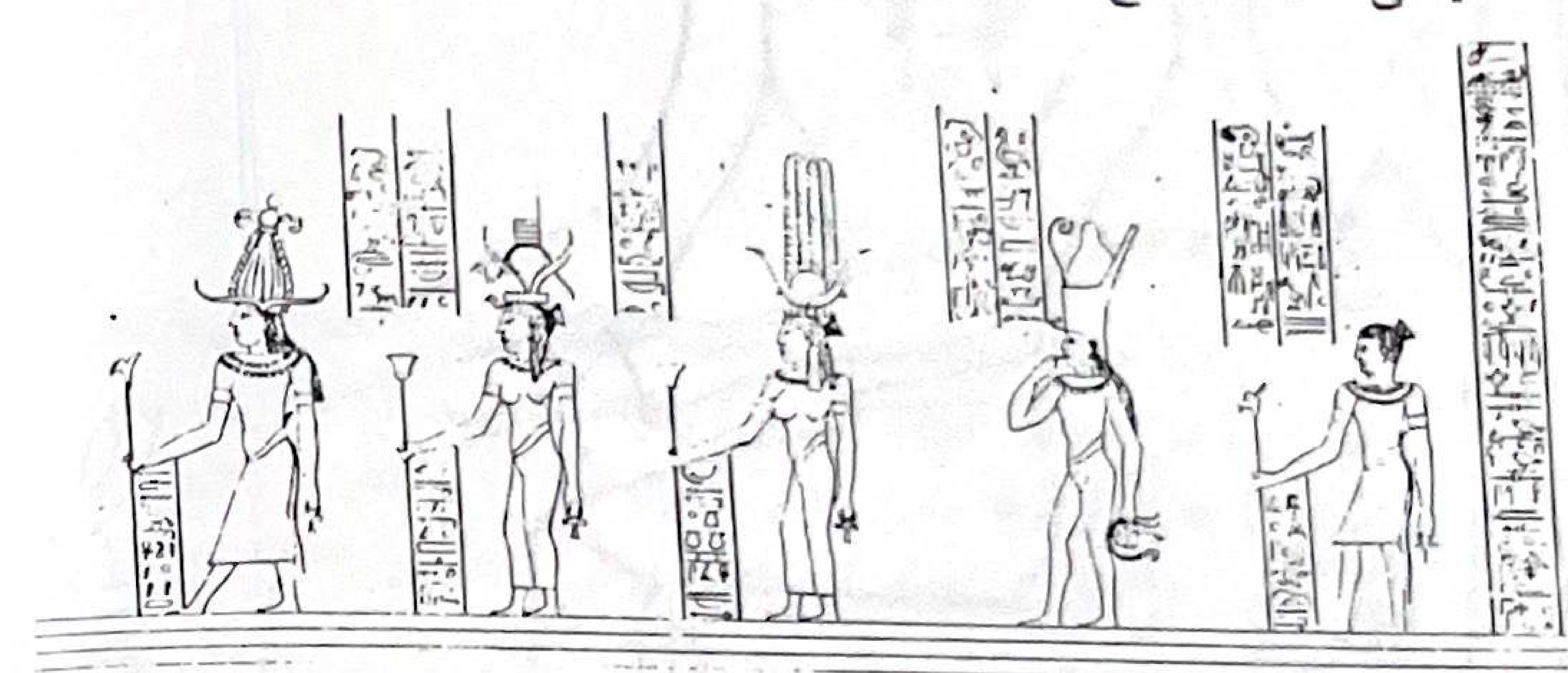
رابعا : النوبة

(أ) معبد دابود :

فى هذا المعبد توجد ثلاث صور لإيمحتب ، واحدة فى المعبد نفسه ، واثنتان فى مقصورة الملك النوبى «أزخرامون Azkheramon» [٦٨] [صورة رقم ٤٢] .

على الجانب الجنوبى للمعبد نقش يقول : «إيمحتب بن بتاح ، المولود من خردوعنخ ، كبش الإله منديس ... من بتاح فى عنخ تاوى [جبانة ممفيس]» . وهنا يمتزج إيمحتب مع كبش «منديس» المقدس [٦٩] .

وعلى الحائط الشمالى يوجد نقش يقول : «الكاهن الأكبر ، والكاتب الملكى إيمحتب ، العظيم فى .. [العلاج ؟] فى كل بلد . الذى يأتى فى كل مكان .. إلى من يطلبه ، ابن بتاح .. القوى فى الـ .. مثال حورس .. الذى يعطى الحياة للجميع ..» .



نقش لإيمحتب مع الآلهة– معبد دابود بالنوبة .

ويوجد نقش على الحائط الجنوبى يقول : «الكاتب الملكى الرئيسى لمصر العليا والسفلى .. ذو اليدين المبروكتين عندما .. يشفى جميع العلل ، يعطى الحياة الخالدة مثل رع ، القوى فى كل الأرض ، إيمحتب بن بتاح ، المولود من خردوعنخ ، الكبش ، سيد منديس .. ؟ المحبوب من بتاح فى عنخ تاوى ، الموهوب مثل رع بالحياة إلى الأبد» .

ويصف عالم المصريات الانجليزى «ويجال Weigall» أحد هذه المناظر قائلا : «عندما يدخل المرء حرم المعبد المكشوف يخيل إليه أن الصورتين على جانبى الباب من الداخل وهما يمثلان حورس وتحوت يصبان آنية من الماء المقدس على القادم للعبادة بينما يقف خلفهما الكاهن القارىء الأكبر ، كبير كتاب الشمال والجنوب تصف الإله إيمحتب ليضمن تلاوة الصلوات اللازمة» [٧٠] .

وهذا النقش يثير الاهتمام من زاوية أنه يدل على أن الألقاب البشرية لإيمحتب مثل الكاهن القارىء الأكبر وكبير كتاب الشمال والجنوب ، كانت لا تزال تطلق عليه بعد تأليهه ، كما أن لقبه القديم كنصف إله لا يزال عالقاً به .



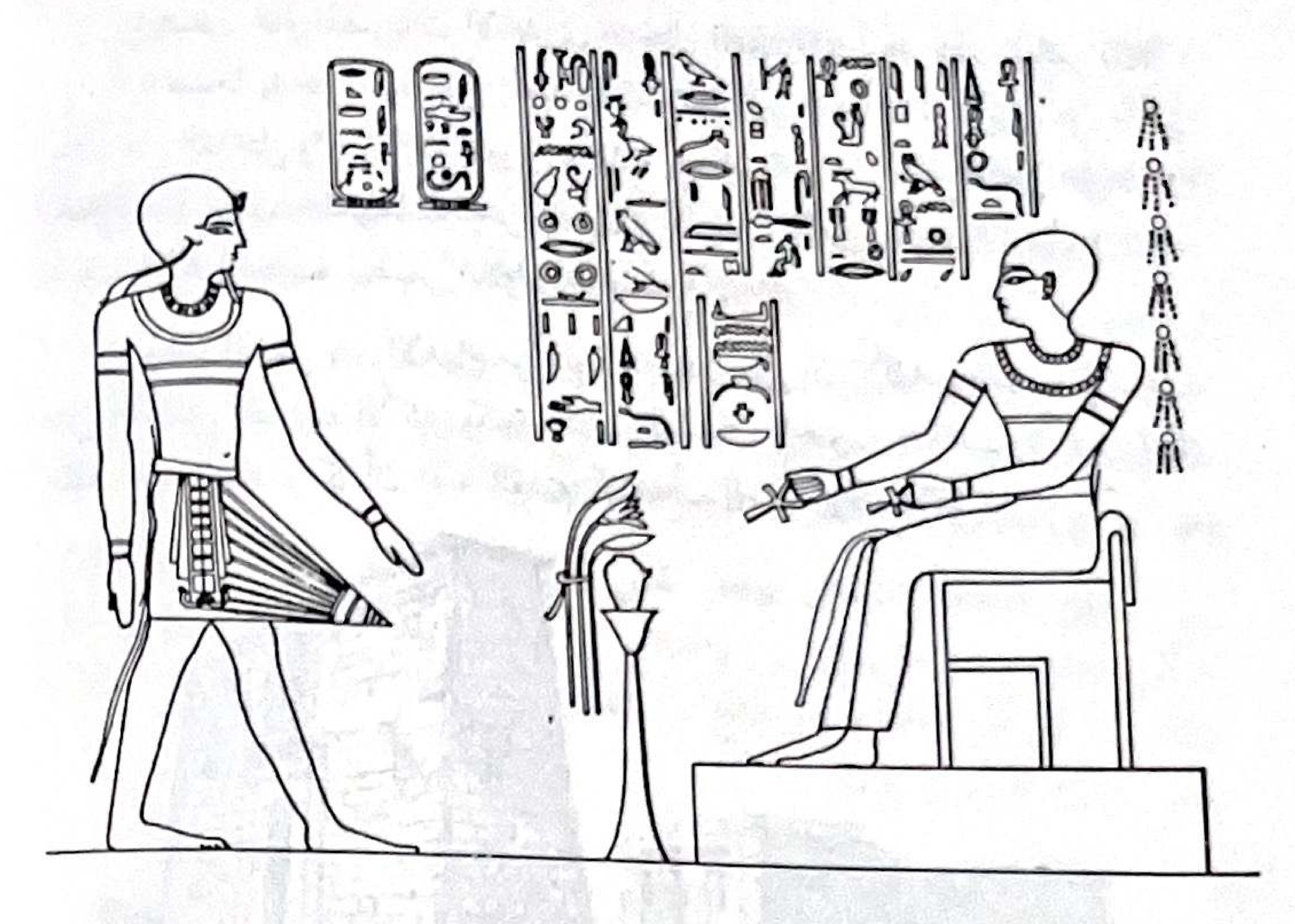
منظر عام لمعبد الدكة بالنوبة .

(ب) معبد الدكه :

فى هذا المعبد يظهر إيمحتب فى منظرين [٧١] [صورة رقم ٤٣] .

(حـ) معبد كلابشة :

فى القاعة قبل الأخيرة من هذا المعبد [فى السطور السفلى على الحائط الجنوبى] ، يُرى إيمحتب وهو يتلقى هدية من البخور من الامبراطور «أغسطس» ، بينما يرتدى فوق رأسه الصل المقدس ويمسك بصولجان وعلامة «عنخ» [٧٢] [صورة رقم ٤٤] .



الملك « إرجامين » أمام « إيمحتب » – معبد الدكة بالنوبة .

o o o

(د) مروى

أحد المناظر فى هرم مروى (رقم ١٢) قد يكون المقصود به إيمحتب ، ولكن المسألة محل شك ، وفيه يرى شكل يشبه إيمحتب المؤله ، ولكنه بدون علامة «عنخ» ، ويمسك فى يده عصا عادية وليس صولجان «واس» . ويعتقد عالم المصريات «بادج Budge»ان المتوفى يعبد أحد الأجداد أو إيمحتب نفسه (٧٣) [صورة رقم ٤٥] .

المبحث السابع : المرحلة الأخيرة

إلى متى استمرت عبادة إيمحتب فى العصر المسيحى ؟ وكيف أثرت العقيدة الجديدة التى انتشرت من فلسطين إلى مصر فى الديانة القديمة وعبادة إيمحتب بالتحديد ؟ .

هذا سؤال مثير يستحق عناء البحث ، ويمكن القاء الضوء عليه من عدة مصادر ، فالكتابات اليدوية التى تركها المرضى على جدران الدير البحرى والخاصة بإيمحتب تدل على أن عبادته ربما تكون قد امتدت حتى القرن الثانى الميلادى ، ولكن ليس بعد ذلك ، وهناك بالطبع سبب محلى خاص يفسر انقطاع عبادة إيمحتب فى ذلك الوقت . ففى منتصف القرن الثالث الميلادى أخذت قبائل البرابرة تغير من النوبة على جنوب مصر ، وقد أدت بلا شك إلى تهديد الأمن فى المنطقة ، وإخافة اللائذين بالمعبد ، ومنع الحجاج من الوصول إليه . ولذلك من المحتمل أن يكون معبد الدير البحرى قد توقف عن أن يكون مصحة للاغريق والرومان بعد عام ٢٠٠ ميلادية ، ولا نعثر على أى دليل يفيد استمرار عبادة إيمحتب فى المنطقة بعد ذلك التاريخ (٧٤) .

أما فى شمال مصر فقد كان الأمر على عكس ذلك فهناك ما يدل على استمرار عبادة إله الطب المصرى لفترة طويلة لاحقة ، بل إن شهرته استمرت فى النمو بالمقارنة بالآلهة المصرية الأخرى ، حتى إذا ما جاء القرن الرابع الميلادى أصبح إيمحتب يعتبر الإله الرئيسى فى منف (٧٥) . وفى نفس الوقت كانت تغيرات عميقة قد بدأت تحدث فى أوضاع مصر الداخلية والخارجية ، لقد أصبحت البلاد الآن جزءاً من عالم جديد ، وأغلقت صفحة تاريخها المجيد الذى كان من أعظم حقبات التاريخ البشرى ، وأصبحت مصر تعيش حياة مصطنعة خالية من القوة الذاتية ولم تعد تقوم بأى دور إيجابى .

وانهيار الحضارة المصرية القديمة يرجع إلى أسباب مختلفة عملت بطريقة تراكمية ، أحد هذه الأسباب دخول البلاد تحت وصاية روما فى عام ٣٠ ق.م. فمنذ ذلك الحين أصبحت مصر ولاية ملحقة بالامبراطورية الرومانية يحكمها ممثل للامبراطور كان غالبا ما يعتبر البلاد بمثابة شاة يجز صوفها ، أو منجم يستغل

ثرواته ، وليست أمانة فى عنقه عليه أن يحسن ادارتها . وكان على مصر أن تؤدى جزية سنوية دائمة من القمح لاطعام الرومان الجوعى ، بالاضافة إلى ابتزاز حكامها لها ، مما أدى إلى استنزاف ثرواتها . وكانت ثورة الفلاحين المصريين فى عام ١٧٢ ميلادية بمثابة تعبير عن الهم الوطنى ولكنها زادت من انهاك البلاد ، وابتداء من ذلك التاريخ إلى عام ٣٠٠م . أصبحت البلاد أكثر فقراً وانهاكاً [٧٦] .

وهناك عامل آخر لعب دوراً فعالاً فى انهيار النظام القديم هو انتشار المسيحية ، فخلال القرن الثانى الميلادى استقرت العقائد المسيحية فى الاسكندرية وأخذت تنتشر تدريجياً فى كل أنحاء البلاد . وبالرغم من الاضطهاد الذى تعرض له المسيحيون الأول فقد أخذت الكنائس المسيحية فى الازدياد ، وما أن حل عام ٣٠٠ ميلادية حتى كانت معظم المدن القائمة على ضفاف النيل مزودة بأماكن للعبادة المسيحية ، ثم أعطى تحول الامبراطور «قسطنطين Costantine» إلى المسيحية [حوالى عام ٣١٣م] دفعة اضافية للديانة الجديدة ، وتحول كثيرون من عباد الآلهة المصرية إلى شكل متشدد من المسيحية . ثم ازدادت الديانة الجديدة قوة بصدور المرسوم الشهير للامبراطور «ثيودوسيوس الأكبر Theodosius the Great» عام ٣٨٠م باعتماد المسيحية كديانة وحيدة فى مصر ، وعلى أثر ذلك خربت مئات من المعابد الوطنية ، ومنع كهنتها تحت التهديد بالموت من اداء مراسيمهم المقدسة ، ودمرت ٤٠ ألف صورة وتمثال للآلهة فى حملة واحدة ، وأغلقت باقى المعابد أبوابها أو تحولت إلى كنائس مسيحية [٧٧] .

ولكن بالرغم من المراسيم الامبراطورية ظلت عبادة الآلهة المصرية القديمة ، ومنها إيمحتب بدون شك ، مستمرة فى جزيرة فيلة ربما حتى حكم الامبراطور جوستنيان الذى ارتقى العرش فى عام ٥٢٧م [٧٨] ، فلاشك أن شهرته فى فنون الطب التى ترجع إلى أيام المجد فى الأسرات الأولى حافظت على الثقة الشعبية به حتى بعد أن خبا الايمان بكثير من الآلهة الأخرى ، والحق أن ثقة المواطنين بالآلهة القديمة أخذت تضعف باطراد إلى حد الاختفاء ومن الطبيعى ان تختفى بالتالى الثقة فى الكهانة المصرية والمراسم الدينية القديمة ، وارتبط بنمو المسيحية نمو الديرية المسيحية التى رغم أنها نشأت أصلاً من الديرية المصرية إلا أنها مع الزمن أصبحت ملمحاً هاماً للديانة الجديدة ، وهذه الأديرة كثيراً ما كانت تحتل المعابد المصرية القديمة

وبالطبع تتوقف بالتالى كل مظاهر العبادة الوطنية فى تلك المعابد ، وقد زاد عدد الرهبان والنساك زيادة كبيرة فى القرن الرابع الميلادى إلى حد ان الامبراطور فالنز (٣٦٤ - ٣٧٨م) أرسل قوة من ثلاثة آلاف جندى إلى صحراء النطرون لارغام الرهبان الأصحاء الأجساد على الانخراط فى الجيش الامبراطورى ، وكان يعيش فى هذه الصحراء وحدها مالا يقل عن خمسة آلاف راهب [٧٩] .

أكثر من ذلك أدى انتشار الاديرة إلى حرمان البلاد من قدر كبير من مواردها الاقتصادية وتكريسها للأغراض الكنسية ، وهكذا سقطت البلاد نتيجة لتجريدها من عنصر انتاجى هام وامتصاص كثير من مواردها المادية فى مستوى اقتصادى منخفض ، إلى حد أن رأسمالها المتاح لم يعد قادراً على تدعيم عملتها المنهارة ، فأصبحت الضرائب فى عام ٣٧٠م تدفع عيناً ، وتحولت التجارة إلى مقايضة [٨٠] .

وثمة عنصر ثالث ساهم فى الدمار العام هو ادخال الثقافة والعلوم الاغريقية ، بما فى ذلك الطب الاغريقى إلى مصر . فمنذ انشاء مدينة الاسكندرية فى عام ٣٣١ق.م. أخذت المؤثرات الهيلينية تتغلغل بالتدريج وتقلل من جدوى الوسائل القديمة فى علاج المرضى والتى تقوم جزئيا على الخبرة وجزئيا على السحر . واستمرت على هذا النحو قروناً كثيرة ، لقد كان الأطباء السحرة المصريون قانعين باستخدام وصفات وصلت اليهم من الأجيال السابقة دون أن يخضعوها إلا نادراً لوسائل التجربة ، ومن ناحية أخرى ظل المريض يشجع على اعتقاده القديم فى جدوى الصيغ السحرية التى تقرأ كلما تجرع الدواء على أساس أنها قادرة على استرضاء الأرواح الشريرة التى تسبب المرض أو على الأقل تعتبر قوية المفعول كالعلاج البدنى تماماً [٨١] .

- هذه الطريقة القديمة فى العلاج أخذت تذوى أمام تأثير روح البحث والتجربة ، إذ حقق الطب الاغريقى تقدماً سريعاً فى التشريح وعلم وظائف الأعضاء وتشخيص الأمراض [أنشئت أول مدرسة طبية كلاسيكية فى الاسكندرية وكان ملحقاً بها معامل كبيرة وعيادات ومكتبات] ، وكانت النتيجة أن النظام البدائى للطب ، الذى راج منذ أيام إيمحتب بدأ يسقط فى زوايا النسيان ، لقد أخذ النظام القديم يتغير ويخلى مكانه للجديد .

وأخيراً فمن بين القوى التى ساهمت فى انهيار الحضارة المصرية القديمة الغزوات المعادية التى تعرضت لها مصر أثناء العصر الرومانى ، فقد كان البدو من الصحراء الشرقية والصحراء الغربية يهاجمون حكام الرومان على فترات متقطعة خلال القرون الثلاثة الأولى من العصر المسيحى حتى أن الامبراطور «دقلديانوس Diocletain» (٢٨٤ – ٣٠٥) اضطر لوضع حد لغزواتهم بدفع جزية سنوية لهم [٨٢] .

إن قصة الاضطراب السياسى والدينى الذى عصف بمصر خلال هذه القرون الأولى من العصر المسيحى لأكثر طولًا وتعقيداً من أن تحكى هنا ، ولكن يكفى أن يقال أن فترة الاحتلال الأجنبى كانت مرحلة من الضنى والغليان أدت إلى تدمير العناصر المكوّنة للحضارة المصرية ، والواقع أن الانهيار النهائى لمصر يعزى إلى حد كبير إلى الحكم العسكرى الرومانى ، الذى لم يفعل سوى القليل لصد هجمات البرابرة ومنع مصر من السقوط فى وهدة البربرية ، وكانت نتيجته أن فقد الشعب المصرى أية رغبة فى الاستقلال ، ولم يفعل شيئا لمقاومة الحكم الأجنبى الظالم .

وليست لدينا سوى تفاصيل قليلة عن كيفية تدمير المعابد المصرية العظيمة فى جزيرة فيلة بما فيها معبد إيمحتب الذى اشتهرت به الجزيرة بحق [٨٣] . ولكننا نعلم ان الأمبراطور «جستنيان Justinian» قام حوالى عام ٥٤٠م بإرسال قائده الأرمنى «نارسيس Narses» إلى الجزيرة ليضع حداً لعبادة «أوزيريس وأيزيس وحتحور وخنوم» وغيرهم من الآلهة الوثنية القديمة ، وألقى «نارسيس» بكهنة معبد «إيزيس» العظيم فى السجن ، وأرسل تماثيل الآلهة إلى القسطنطينية ، ويبدو من المحتمل أن يكون معبد إيمحتب المجاور قد أغلق فى نفس هذا الوقت . وبذلك توقفت العبادة المنظمة لإله الطب المصرى ، بعد أن استمرت أكثر من ١٠٥٠ عاما [من حوالى ٥٢٥ق.م. إلى حوالى عام ٥٥٠ ميلادية] .

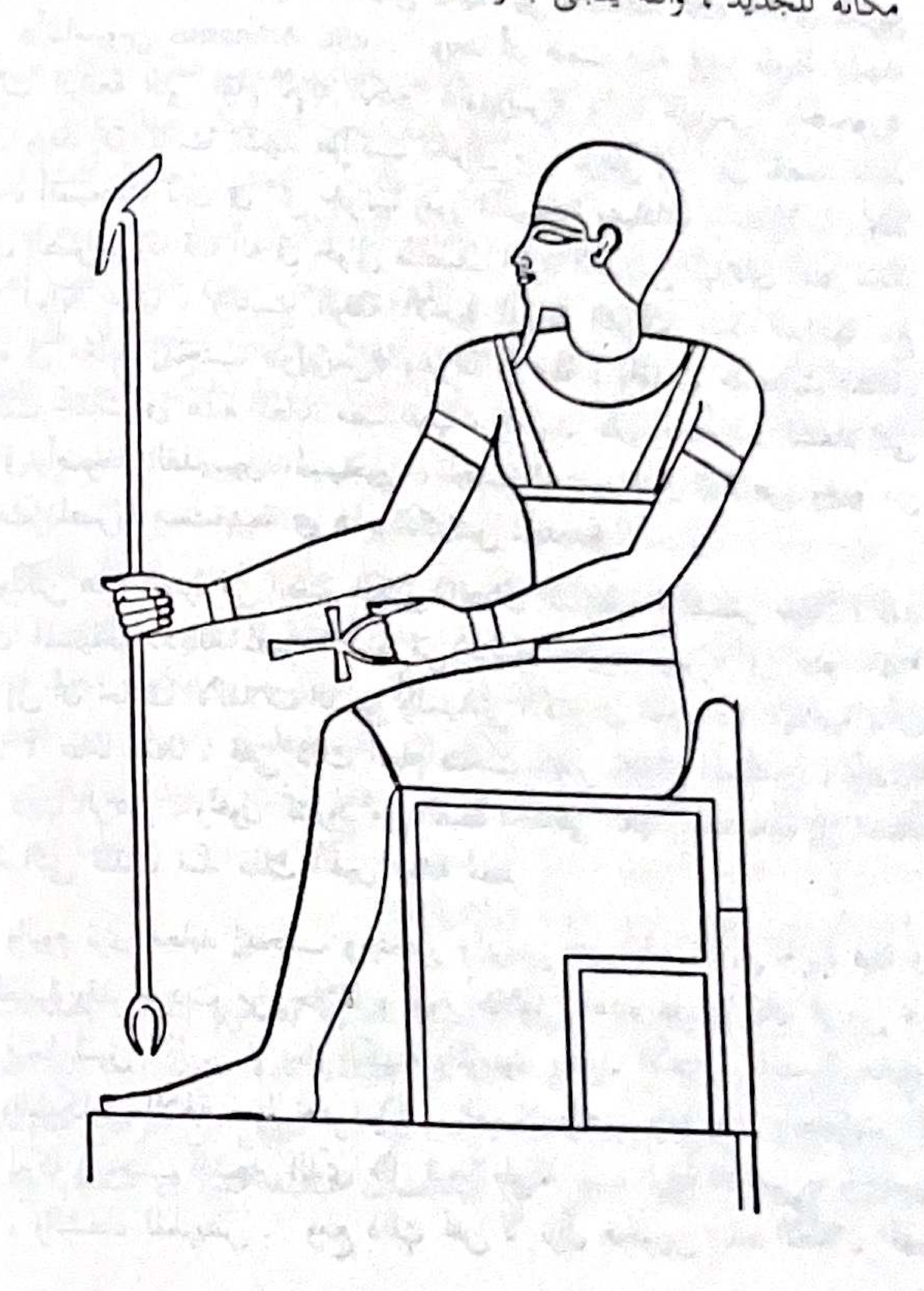
ومع ذلك فقد ماتت الديانة المصرية القديمة بصعوبة بالغة ، فقد استمرت عبادة «إيزيس» وغيرها من الآلهة المحلية فى «فيلة» مدة طويلة بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للبلاد ، ومما لاشك فيه أن كثيرين من المرضى ظلوا يجوبون أنحاء معبد إيمحتب الشهير حتى بعد أن فقدت عبادته كثيراً فى شعبيتها وهيبتها ،

وفى حوالى عام ٥٧٧ ميلادية قام الأسقف «تيودورس Theodorus» بتحويل جزء من معبد «إيزيس» إلى كنيسة مسيحية كرسها للقديس «اسطفان St. Stephen» ، ومن المحتمل أن تكون آخر أنفاس الديانة القديمة قد أخمدت حينئذ ، وفى نفس الوقت بدأت كنائس مسيحية كثيرة أخرى تقوم فى المنطقة ، منها كنيسة فى جزيرة فيلة بناها القبط تكريما للقديس «ميخائيل St. Michael» وأخرى تكريما للقديس «أثناسيوس St. Athnasius» . وبعد أن ظلت فيلة قرونا طويلة تشهد الاحتفالات الرائعة التى تقام للإله الكبير «أوزيريس» والربة «إيزيس وحتحور» وغيرهم ، وبعد أن كانت تشهد مواكب الحزانى من المرضى والمتألمين تقصد معبد إيمحتب ، أصبحت ترى فى كل جوانبها رموز المسيحية وعباداتها واحتفالاتها ، وقد لا نجانب الصواب إذا قلنا أنه فى حوالى منتصف القرن السادس الميلادى أغلق معبد إيمحتب أبوابه نهائيا ، وانتهت الوقفة الأخيرة لديانة الفراعنة ضد صراعها مع المسيحية فى معابد إيمحتب «وإيزيس» وغيرهما فى فيلة ، وفقدت معجزات الشفاء التى كانت تحدث فى هذه المعابد مصداقيتها ، وتغلبت عليها معجزات الشفاء التى تحدث فى أضرحة القديسين المسيحيين ، حيث استمر النوم العلاجى وغيره من الممارسات المصرية مستخدمة فى هذه الكنائس الجديدة [٨٤] .

ولكن هذه الفترة من التغيير الكبير باعتناق المسيحية لم تستمر طويلا ، فقد استمرت المسيحية ديانة لمصر ابتداء من مرسوم «تيودوسيوس» فى عام ٣٨٠ ميلادية إلى أن حدث الانقلاب الدينى والسياسى الكبير فى عام ٦٤٠ ميلادية ، أى لمدة ٢٦٠ عاما فقط ، ففى ذلك العام فتحت مصر بجيوش المسلمين ، وأصبح الاسلام دينها الرسمى ، وتحول كثيرون من القبط الحديثى العهد بالمسيحية إلى الديانة المحمدية التى ظلت منذ ذلك الحين ديانة مصر .

واليوم نرى معابد إيمحتب وحتحور وإيزيس التى كانت تزين جزيرة فيلة فى الايام الغابرة وقد جردت من جلالها ، تقوم أطلالها شاهدة على ما كان لها من مجد وجمال فيما سبق [٨٥] . لم يعد الكهنة والمؤمنون يطأون الأعتاب المقدسة حاملين الهدايا والشكاوى للآلهة ، ولم تعد مواكب العميان والصم والمشوهين والعاقرات تأتى تلمساً لبركة إيمحتب الشهير الذى ظل قروناً طويلة يهب الرؤية للأعمى ، والخصوبة للعاقر ، والشفاء للمريض . ومع ذلك نحن لا نزال فخورين بهذه الأطلال المهيبة

التى تحكى قصة الحياة والتقاليد فى الماضى البعيد ، والتى تشهد بالميراث الروحى والجمالى لمصر القديمة . وإذا وقف الآن زائر بين هذه الأطلال وسمح لنفسه بالتأسى على همجية الأمس التى خربت كل هذا الجمال ، فليذكر أن هذا المصير ينتظر كل المؤسسات البشرية التى تعمّر إلى مابعد عصرها . «إن النظام القديم ينحسر مخليا مكانه للجديد ، والله يتجلى بطرق عديدة» .



الفصل الخامس
الطب المصرى القديم

قد يكون من المفيد أن نقدم هذا التذييل القصير الذى يوضح مدى التقدم الكبير الذى بلغه فن العلاج فى أيام إيمحتب . إن القصة الكاملة لنشأة وتطور الطب مثيرة للغاية ولكن لا يمكن تقديمها هنا ، يكفى أن نقول أن فن الطب يبدو كما لو كان قد ظهر فى مصر فجأة ، بدون أى معالم للطفولة ، وفى مرحلة من التقدم لا تدانى فى أية دولة أخرى . أو على حد تعبير «فوكارت Foucart» : «ان علم الشفاء المصرى ينطوى منذ البداية على نظام متقدم عدة آلاف من السنين عن بقية المجتمع البشرى» [1] ، وفى نفس الوقت كان الطب يمتزج بالسحر امتزاجاً وثيقاً ، كل منهما يؤثر فى الآخر . وقد يكفى أن نلقى نظرة على ذلك فى عصر بناة الأهرام .

وعلى هذا قد يكون من المناسب أن نلخص التقدم الذى بلغه فن العلاج ، ثم نتناول عنصر السحر والعبادة الممتزجة به امتزاجاً وثيقاً ، ثم نختتم هذا الفصل بإحاطة سريعة عن حالة الصحة العامة فى العصور المبكرة من تاريخ مصر القديمة . لذا سوف نبحث على التوالى :

١ - الطب
٢ - السحر
٣ - الصحة

أولا : الطب

من حسن الحظ أن وصل الينا عدد لا بأس به من الوثائق الطبية المكتوبة بالهيراطيقية على لفائف البردى أهمها «بردية إيبرس Ebers Papyras» [2] التى كتبت فى أوائل عهد الأسرة الثامنة عشرة [حوالى ١٥٥٠ق.م.] ولكن من الواضح أنها تتألف من كتاب أو أكثر من كتب الطب التى كانت شائعة فى القرون

السابقة . والواقع أن الوثيقة نفسها تقول أن بعض أجزائها تعود إلى الأسرة الأولى . وبذلك فانها كانت موجودة ، ولوجزئياً على الأقل ، أثناء حياة إيمحتب فى الأسرة الثالثة [صورة رقم ٤٦] .

هذه البردية تضم قائمة طويلة من الوصفات العلاجية لعديد من الأمراض ، وتحدد العلاج الذى يستخدم فى كل حالة ، كما تحدد الجرعة التى يسمح بها فى العلاج ، وكيفية الاستخدام . ويبدو واضحاً أن هذه المعلومات تستند على تقدم كبير تم احرازه، خاصة فيما يتعلق فى وسائل الفحص الاكيلينيكى ، والتشخيص ، والعلاج ، بالاضافة إلى ذلك تدل البردية على قدر من المعرفة بالهيكل العظمى وطريقة علاج الكسور على نحو سليم ، كما تظهر أن وضع ووظيفة المعدة والأمعاء كانت مألوفة ، وكذلك حقيقة أن شرايين الدم الرئيسية تجرى من القلب إلى كل مكان فى الجسم .

وتدل بردية «إدوين سميث Edwin Smith» ، وهى بردية طبية أخرى ، على أن أطباء مصر فى عصورها السحيقة كانوا يشرّحون الجسم البشرى ، وتمكنوا من تصنيف معلوماتهم وتأسيسها على الحقائق التى شاهدوها ، أو بمعنى آخر كانوا يؤسسون معرفتهم على التجربة [٣] .

وتوجد فى بردية «إيبرس» فقرة طويلة مستخرجة من كتاب أقدم عهداً تتناول وظائف القلب وأوعيته ، كما يوجد جزء من نفس هذه الفقرة فى «بردية برلين الطبية» ، ولكن للأسف فإن الوثيقتين فيما يتعلق بهذه الفقرة فى حالة من التشويه والغموض بحيث لا نكاد نفهم شيئا . وهناك نسخة أخرى من نفس الفقرة توجد فى بردية «إدوين سميث» ، وهى مشوهة كذلك لسوء الحظ ، ومع ذلك فان الفكرة العامة تكاد تكون واضحة ، فهى توحى بأن القلب مركز لشبكة معقدة من «الأوعية» التى تصل إلى كل أجزاء الجسم ، مع بيان عددها فى كل جزء على حدة ، ولكن وظيفة القلب كعضو نفخ الدم فى الأوعية لم تكن معروفة بكل تأكيد ، فى حين أن العلاقة بين النبض والقلب كانت معروفة بوضوح ، وهناك محاولة لتفسير مختلف العلل أو الأمراض الناشئة عن السلوك غير الطبيعى للقلب . وقد كان المصريون يعتقدون أن الأوعية الدموية تنقل الهواء والماء إلى اجزاء الجسم ،

وهذه نتيجة خاطئة ربما وقعوا فيها بسبب تشريح الجثة بعد الوفاة حيث تخضع لمختلف مراحل التحنيط .

لقد كانوا يعتقدون أن الهواء يصل إلى كل أجزاء الجسم خلال الشرايين ، فعندما يتنفس الانسان يدخل الهواء من أنفه إلى قلبه وأعضائه الداخلية ، ويغذى كل الجسم بالدم ، ولكن حتى هنا لا تستقيم أفكارهم كما تدل على ذلك العبارة التالية : «توجد أربعة أوعية لأذنيه الاثنتين ، اثنتان على الجانب الأيسر واثنتان على الجانب الأيمن ، وأنفاس الحياة تدخل من أذنه اليمنى ، وأنفاس الموت تدخل من أذنه اليسرى» .

أما الجراحة فلم تحرز تقدماً كبيراً ، حقا كانوا يعرفون استخدام المشرط ، والكى بالنار ، وكانوا يجرون عمليات بسيطة فى الرأس والعنق والأطراف ، ولكن الجراحين المصريين لما يحاولوا مطلقاً فتح البطن ، وكانوا يعالجون الكسور بجبائر من الخشب . يدل فحص بعض الموميات على أنهم أحرزوا فى ذلك تقدماً لا بأس به [صورة رقم ٤٧] .

وإلى جانب بردية «إدوين سميث» التى تتناول علاج الجروح تحوى بردية «إيبرس» قائمة طويلة تتعلق بعلاج الدمامل والبثور والخراريج ، وتعطى توجيهات خاصة بكيفية استئصال هذه الأورام أو تصفية محتوياتها وتطبيب الجرح الناشىء عنها ، وتصحب هذه التوجيهات أيضا وصفات مناسبة للمحافظة على قوة المريض وزيادة قدرته على المقاومة .

ولم يكن التحنيط له علاقة بالطب ، سواء من حيث الغرض أو الممارسة ، ومع ذلك فقد كان له تأثير عميق على نمو ذلك العلم ، فإن فتح البطن وازالة الأحشاء لم يجعلا المصريين يألفون فحسب كثيرا من الأعضاء الداخلية من حيث الشكل والوضع ، وانما أيضا جعل التحنيط الشعب المصرى لمدة أكثر من ثلاثين قرناً لا يأنف من فكرة تقطيع أوصال الجسد الميت ، وبذلك تغلب المصريون على التحامل الشعبى ضد تشريح أجساد الموتى ، وهو التحامل الذى منع الأطباء الاغريق من الحصول على معرفة بالتشريح العملى فى بلادهم [صورة رقم ٤٨] .

أما التقدم المدهش حقا فى الطب المصرى القديم فقد كان فى مجال التشخيص وعلاج الأمراض ، هنا أبدى الطبيب المصرى القديم اهتماماً حقيقياً بالمرض ، فمما لاجدال فيه أن المعرفة الطبية كان يشوبها كثير من الدجل ، ولكن تراكم تجربة الأدوية على طول القرون أعطى نتائج حسنة ، وقد كانوا يعرفون على الأقل ١٥ مرضاً مستقلاً من أمراض البطن ، و١١ من أمراض المثانة ، و١٠ من أمراض المستقيم والشرج ، و٢٥ من أمراض العيون ، و٦ من أمراض الأذن ، و١٨ من أمراض الجلد ، فهذه الأمراض كانوا يشخصونها تشخيصاً سليما ويعالجونها طبقاً لمبادئ محددة ، ومن الممكن طبقا للظواهر التى تصفها البردية تمييز ٢٥٠ مرضاً مختلفاً ، ومن الواضح أن الأطباء الذين كانوا يزاولون مهنتهم على ضفاف النيل كانوا يملكون قدراً من الروح العلمية ، وقادرين على الملاحظة الأكلينيكية الدقيقة ، وعلى التنسيق بين الظواهر وتفسيرها ، أذ أن تصنيف الأمراض يتطلب تقدماً علمياً كبيراً .

ونشير فى هذا المجال إلى الوصف المفصل الذى تعطيه «بردية إيبرس» لمختلف متاعب المعدة من حيث الظواهر ، والتشخيص ، والعلاج . ونفس الوسائل الأساسية للتشخيص التى تستخدم فى عياداتنا اليوم مثل الفحص والجس والتسمع على الصدر كانت تستخدم فى مصر ، فقد كان الطبيب المصرى القديم يلجأ إلى فحص المريض لاكتشاف أية تغيرات تطرأ على شكل أو لون أو وضع الأجزاء الظاهرة من الجسم مثل الجلد والشعر والأظافر .. الخ ، بما فى ذلك البول والبراز . كما كان يستخدم الجس لاسيما فيما يتعلق بأعضاء البطن الداخلية للتأكد من أى شذوذ فى وضع الاحشاء أو انتظامها أو شكلها أو درجة حرارتها ، بل أن «بردية إيبرس» تشير حتى إلى الحركة الداخلية للعضو فى الفقرات التى ترشد الطبيب إلى معرفة ما إذا كان الورم فى أى جزء من الجسم يتحرك تحت الضغط ثم يعود إلى موضعه ، أو ما إذا كان يرتجف تحت يد الطبيب ، وأخيرا يبدو أن التسمع على القلب كان يستخدم أيضا فى التشخيص .

وقد ألقت الأبحاث الحديثة التى أجريت على المومياوات الضوء على كثير من الأمراض التى كانت موجودة فى مصر القديمة ، فهناك دلائل على وجود أمراض مثل سل العظام ، وحصى الكلى والمرارة ، والمصران الأعور ، وفلطحة القدم ، والنقرس أو

داء المفاصل ، والتهاب الشرايين الروماتيزمى ، وتسوس الأسنان ، وأمراض حلمة الثدى ، وعدوى البلهارسيا ، ومختلف أمراض العيون . ويمكن القول بصفة عامة أن الأمراض الموصوفة فى البرديات أو التى كشف عن وجودها فى المومياوات هى نفس الأمراض التى تهاجم الفلاحين المصريين اليوم .

ويشير «هيرودوت» فى الفقرة التالية إلى غلبة التخصص كسمة للطب المصرى : «وينقسم التطبيب عندهم إلى الفروع التالية : لكل مرض طبيب متخصص فيه لا لأكثر ، وبلادهم كلها غاصة بالأطباء ، بعضهم متخصص فى العيون ، وبعضهم فى الرأس ، وبعضهم فى الأسنان ، وبعضهم فى الأمعاء ، وبعضهم فى الأمراض الخفية» [٤] .

والبرديات الطبية التى وصلت إلينا تدل محتوياتها المتنافرة على أن المقصود بها أن يستخدمها الممارسون العموميون ، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت مجموعات تضم مقتبسات مستخرجة من عدد من الكتب المختلفة كل منها متخصص لجزء معين من الجسم ، وهذا يؤيد وجهة النظر القائلة بأن الأعمال المفصلة الأصلية ، التى اشتقت منها البرديات الطبية ، كانت من وضع المتخصصين .

وتدل «بردية وستكار Westcar» على أن مهنة القبالة لم يكن ينظر إليها كفرع من فروع الطب كما ظن البعض من قبل ، أما الطب البيطرى فإنه لم يكن محل تجاهل أيضا ، وقد وصلت إلينا بردية ممزقة (بردية كاهون Kahun) مخصصة لهذا الفرع من فن العلاج ، كما يمكن أن نستدل على تقدم الطب المصرى من وفرة المواد الطبية التى كانوا يستخدمونها .

ولا يزال عدد كبير من العقاقير التى ظلت مستخدمة عدة آلاف من السنين موجودة فى الصيدلة الحديثة ، وقد كانت نباتات مصر غنية بأعشاب العلاج ، كما يشير إلى ذلك «هوميروس» [٥] ، ومن الواضح أن خصائصها العلاجية درست بعناية واستخدمت .

وكثير ما يقع الكتاب المحدثون فى الخطأ عندما يسارعون إلى فهم النباتات الطبية القديمة بغير حقيقتها وأوضح مثال على ذلك فهمهم لكلمة «ديدى Didi» المصرية القديمة على أنها تعنى نوعاً من الفصيلة الباذنجانية فى حين ان الكلمة فى

النصوص المصرية تعنى فى الحقيقة أحد المعادن ، ومن المؤكد أن القائمة الطويلة من النباتات والعقاقير المعدنية إذا خضعت للدراسة الوثيقة لما عرفنا منها على وجه التأكيد سوى عدد قليل ، ومن بين هذه المواد التى نعرفها يقيناً ، الخس ، والشبت ، والكمون ، والبصل ، والكرات ، وزيت الخروع ، وجذور الرمان ، والحلبة ، واللبان ، والخيار ، والصمغ ، والجميز ، والكراوية ، والمنيوم (أكسيد الرصاص الأحمر) ، وأكسيد الحديديك الأحمر ، وحجر الشب ، والملح ، وكربونات الصودا ، وغير ذلك كثير . وهناك عقاقير أخرى مشتقة من أجسام الحيوان مثل الصفراء والدم المأخوذين من الثور والأسد وفرس النهر ، وشحوم هذه الحيوانات وغيرها ، حتى العلاج بالروث كان شائعاً [٦] . ومن الطريف أن نشير إلى أن إستخدام افرازات الحيوان وبعض أجزاء جسمه كأدوية ، وهو ما يزاول اليوم على مستوى عالمى ، كان أول من أدخله الأطباء المصريون [٧] . وعلى هذا كانت علوم النبات والحيوان والصيدلة تساهم جميعا فى العلاج المصرى القديم .

كما أن الأشكال التى كانوا يعطون بها الأدوية تدل على ما أحرزوه من تقدم فى ممارسة الطب ، فقد عرفوا عديداً من هذه الأشكال ومنها الغرغرة ، والمراهم ، والحبوب ، والاستنشاق ، والشم ، واللبوس ، والكبسولات ، والحقن الشرجية ، والتبخير ، والكمادات ، والأربطة .

وتدل «بردية إيبرس» بما تحويه من عقاقير ووصفات كثيرة على أن فن التطبيب كان محل دراسة متأنية ، فالأدوية مصنفة فى مجموعات خاصة منها المهدئات ، والمنبهات ، والمنومات ، ومضادات التشنج ، والممددات ، والقابضات ، وأدوية التجميل ، وطوارد البلغم ، والمقويات ، والمقيئات ، وطوارد الريح من الأمعاء ، والمطهرات ، والمسهلات ، وموانع النزيف ، وطوارد الدود ، ومدرات البول ، وأدوية الحوامل ، ومدرات الطمث ، ومعجلات الولادة ، ومدرات لبن الأم ، ومرطبات البشرة [كريم] ، ومبيدات الجراثيم ، ومضادات السموم ، وما إلى ذلك . باختصار يمكن القول أنه عندما كان الطب العلمى لايزال فى طفولته أحرز العلاج التجريبى [أو ما نسميه حاليا بالوصفات البلدية] تقدما كبيراً فى مصر .

ونحن نجد فى «بردية إيبرس» وصفاً دقيقاً لمظاهر بعض الأمراض ، قد لا تكون مفهومة من وجهة نظر الابحاث الحديثة ، ولكنها على أية حال تدل على قدرة

واضحة للتفرقة بين أنواع الأمراض ، ومعرفة الطبيعة المحددة للمرض ، الأمر الذى يؤكد وجود أساس متين للعلاج ، وفيما يلى مثال جيد يبين مبادئ التشخيص والعلاج بل والتكهن بسير المرض :

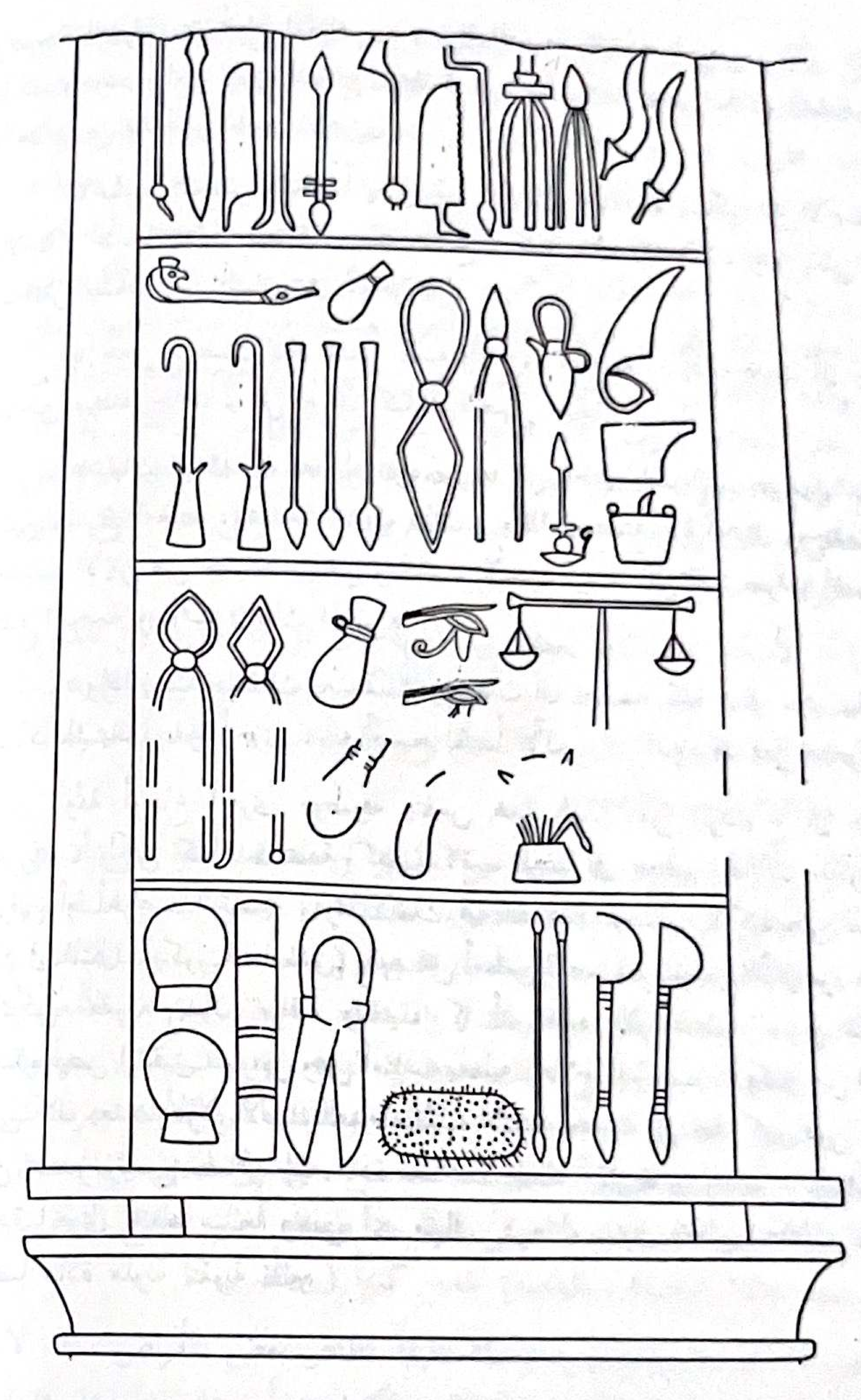
«عندما تفحص شخصاً يعانى من الامساك ستجده يشكو من الاحساس بالامتلاء عندما يتناول طعاما ، بطنه منتفخ ، قلبه يدق بضعف ، وهو يمشى مثل شخص يشكو من التهاب فى مؤخرته» .

«إجعل مريضك ينام ممدداً نفسه وابدأ فى فحصه . إذا وجدت أن جلده ساخن وبطنه جامد ، قل له إن كبدك لايعمل جيداً» .

«عليك عندئذ أن تعد له دواء سريعاً من الخضراوات التى يصفها الطبيب والتى ستريح امعاءه ، عندما يحدث ذلك ، وإذا فحصته مرة أخرى ووجدت أن الجانب الأيمن من جسده ساخن والجانب الأيسر بارد . قل له : سوف تخف من هذه الهجمة وسوف يزايلك المرض» .

«وإذا زرت مريضك بعد ذلك ووجدت أن جسمه كله صار بارداً ، قل له إن كبدك يعمل مرة أخرى ، أنه أصبح نظيفاً الآن ، إن الدواء قد فعل مفعوله» .

وثمة أوجاع أخرى موصوفة بنفس هذا القدر من الوضوح فى «بردية إيبرس» ، ولكن كقاعدة عامة اكتفى كاتب البردية فى معظم الحالات بذكر اسم المرض أو أعراضه الرئيسية ، ومما لاشك فيه ان هذا الوصف الاكيلينيكى للمرض [كما فى المثال المذكور فيما سبق] يقوم على أساس التصنيف الدقيق للأعراض ، وهذا لايمكن تحقيقه بدون مراقبة وثيقة ، كما أن هذه الارشادات تسمح للمعالج بالتشخيص الدقيق للمرض وعلى أساسه يعطيه العلاج المناسب . وكثير من الأدوية التى كان يعدها هؤلاء الأطباء القدماء تشبه الأدوية الحديثة إلى حد كبير فهى مكونة من عنصر رئيسى تضاف إليه مادة مساعدة لجعله أكثر تأثيرا وغالباً ماتضاف اليه مادة أخرى تجعله سائغاً وتخفى أى مذاق كريه له ، وفى بعض الحالات تضاف أيضا مادة ملونة لتقوية تأثيره .



نقش يمثل أدوات الجراحة – معبد كوم أمبو .

ولاشك أن قد سبقت هذه المرحلة خطوات مبكرة مكنت الأطباء المصريين عبر مراحل بطيئة من وضع المبادئ الأساسية للعلاج على أساس من الملاحظة والاستقراء ، فمثلا يتضح من ملاحظة عدد من مرضى سوء الهضم أن الذين يمتنعون منهم عن الأكل يتم شفاؤهم سريعاً فى حين أن الآخرين الذين يواصلون تناول الطعام والشراب كالمعتاد تستمر لديهم حالة سوء الهضم مدة طويلة .

مثال آخر ... بملاحظة مجموعة من مرضى القلب يتضح أن المرضى الأثرياء الذين يتمتعون بالفراغ يستطيعون مواصلة الحياة رغم حالتهم المرضية مدة أطول نسبياً مما يستطيعه الفلاحون الفقراء البؤساء الذين يكسبون قوتهم اليومى بعرق جبينهم .

وهكذا يؤدى رصد التطورات الاكلينيكية فى مجموعات من المرضى الذين يشكون من أعراض متشابهة إلى توقع متى يتم الشفاء بالنسبة للبعض ، ومتى يطول المرض أو يؤدى للموت بالنسبة للآخرين ، وهذا الاعتبار يؤخذ فى العلاج ، ويؤدى ذلك فى النهاية إلى ظهور فن التطبيب الدقيق الذى يصف كل ماهو نافع فى العلاج ويمنع كل ماهو ضار ، أما بالنسبة للأمراض الأكثر غموضا فإن العلاج يسير على قاعدة «التجربة والخطأ» ويؤدى مع الزمن إلى نتائج حسنة . ولكن مما لاشك فيه أن كثيرا من العقاقير والوصفات الطبية رغم سلامتها ومعقوليتها كان ينظر اليها على أنها من تأثير السحر .

○ ○ ○ ○

ثانيا : السحر

لا يمكن أن تكتمل أية دراسة عن الطب المصرى القديم بدون الاشارة إلى اعتقاد المصريين القدماء الجازم فى السحر . فالطب نشأ أصلاً عن الفنون السحرية التى تهدف إلى طرد الروح الشريرة التي يفترض أنها تسببت فى المرض ، وهكذا كان السحر أب الطب ولم يتوقف عن التأثير فيه أبداً ، وكان مما لا يتصور حدوثه أن

يمارس الطبيب المصرى القديم فنون العلاج بدون اللجوء إلى الصيغ السحرية والتمائم والتعاويذ ، فالمرض بصفة عامة كان لاينسب إلى اختلال الوظائف العادية للجسم ، وانما إلى تسلل روح غريبة أو إله إلى داخل الجسم حيث يهاجمه بشدة من الداخل ، ومالم تطرد هذه الروح الشريرة قبل أن تحدث تلفاً بالغاً لا يكون هناك أمل فى الشفاء . والارواح الشريرة أو الشياطين تنفذ إلى المرء عن طريق الأنف أم الفم أو الأذنين ، أو بمجرد التسلل إلى المريض بالمس ، وبمجرد الدخول فيه تبدأ فى التهام حيويته ، كما تتوقف طبيعة المرض ومدته على مدى استمرار تلك الروح الشريرة فى نشاطها المخرب ، وكذلك يتأثر خبث هذه الروح بالوقت ، وفصول السنة وأيام السعد والنحس ، وغير ذلك من الاحتمالات المشابهة .

وعلى الذى يعالج مريضا أن يكتشف أولا طبيعة ، أو إذا أمكن إسم هذه الروح الشريرة التى استحوزت على جسمه ، ثم يحاول أن يطاردها بكل وسيلة فى امكانه ، وعلى ذلك ينبغى أن يكون خبيراً فى السحر ، عالماً بالتعاويذ المناسبة ، ماهراً فى صنع التمائم التى تناسب الحالة ، وعندما تحين الفرصة عليه أيضا أن يصلى للآلهة ويطلب مساعدتها ، كما عليه أن يجرب الأدوية المادية وأن يلجأ إلى العقاقير الكثيرة التى أسفرت عنها خبرة القرون ، وأحسن المعالجين هم الذين يلجأون إلى المزج بين الأسلوبين ، السحر والعلاج المادى ، ومن هنا كان النوم العلاجى فى المعابد يأتى بأحسن النتائج لأنه يعتمد على الايحاء القوى والعقاقير .

وممارسة السحر المصرى كانت مؤسسة إلى حد كبير على الاعتقاد فى أن الحوادث التى وقعت فى تاريخ الآلهة ، والتى جلبت لهم حظاً حسناً ، يمكن فى ظروف مناسبة وعن طريق تدخل الساحر الكفء أن تنتج نفس النفع للبشر . وهكذا فإن الساحر الذى يستدعى لعلاج مرض ما ، أو ليخفف من بعض المتاعب ، عليه أولا أن يختار من معرفته بتاريخ الآلهة حادثا يشبه فى كثير أو قليل المشكلة التى يتصدى لها ، ويستخلص الصيغة السحرية المفيدة فيها ، ثم عليه بعد ذلك أن يتصور نفسه ممثلا للإله ويكرر نفس الصيغة السحرية التى نطق بها الإله ، وهو على يقين من أن هذه الصيغة سوف تكتسب فعاليتها مرة أخرى ، ويمكن هنا أن نسوق مثالاً محدداً يوضح العملية . فى بردية «إيبرس» نقرأ أنه عندما يريد الساحر أن يعالج جرحاً تسبب فيه حرق ، عليه أولا أن يمارس علاجه المادى ، وهو

أن يدهن الجرح بلبن امرأة وضعت ابنا ذكراً ، ثم يتلو على العلاج الصيغة التالية التى نطقت بها «إيزيس» فى إحدى الأساطير الخاصة بها :

«حورس ، ابنك ، أحرقته شمس الصحراء ..
هل يوجد ماء هناك ؟
لا يوجد ماء هناك !
الماء فى فمى والنيل بين ساقىّ
سوف آتى لأطفىء اللهيب»

هذه الصيحة التى أطلقتها «إيزيس» على ابنها «حورس» ونجحت فى اطفاء ما يعانيه من ألم الحريق ، يعيد الساحر تلاوتها وهو على يقين من أنه عندما ينطق بها سوف تنزل برداً وسلاماً على المريض .

وهناك ما يدل على أن الوظائف الثلاث للطبيب والكاهن والساحر لم تكن دائما مجتمعه فى شخص واحد ، فقد كان هناك فيما يبدو أطباء وطاردو أرواح شريرة وسحرة ، إذا نجد فى بردية «إيبرس» تفرقة بين «كل طبيب ، وكل كاهن لسخمت ، وكل صانع تمائم» [شاو] فالأول يعالج الأمراض ، والثانى ساحر محترف [قارىء تعاويذ] والثالث صانع تمائم ورقى .

ولم يكن الطبيب الساحر يقتصر على تلاوة التعاويذ أو «المراسم الشفوية» وانما يكملها أحيانا «بالمراسم اليدوية» التى تتضمن استخدام مختلف التمائم والأحجبة التى يزيد من قوتها أن تقرأ عليها الصيغ السحرية .

وقد كان السحرة فى مصر القديمة شغوفين بصفة خاصة باستخدام دمى من الشمع للآلهة ويوحون بأن قوى خارقة للطبيعة قد حلت بها بواسطة تلاوة صيغ معينة والقيام بحركات رمزية ، وهذه الدمى الشمعية كانت دون شك تساعد فى التأثير على المرضى ، وتزيد من قوة الايحاء لدى الساحر ..

وهناك ممارسة سحرية أخرى كانت شائعة هى كتابة صيغة على ورق بردى ، ثم غسلها فى الدواء واعطائه للمريض ، وهذه الممارسة لا زالت شائعة فى الدول الشرقية ، وكان يلجأ فيها إلى صيغة معقدة بعض الشىء فبدلاً من أن يُكتب

مثلا «وصفة لشفاء المرض الفلانى» كانوا يكتبون «وصفة لطرد أو ارهاب المرض الفلانى» كنوع من الايحاء بأنها تنطوى على قوة شيطانية .

وكان العلاج يتوقف إلى حد كبير على نظرة الطبيب الساحر إلى طبيعة المرض الذى يعالجه ، فإذا كان المرض نتيجة تأثير مس أو روح شريرة فإنه يعالج بالسحر والتعاويذ والتمائم ، فى حين أن الأدوية والعقاقير يجب أن تستخدم لتخفيف الأعراض وازالة الألم . وهكذا كان العلاج النفسى والسحر منسوجين معاً نسجاً وثيقاً فى عمل الطبيب الساحر ، وكان على الطبيب الساحر أن يميز بين الامراض التى يمكن علاجها بالعقاقير وتلك التى تتطلب علاجاً نفسياً ، وفى المراحل المبكرة جداً من الممارسة العلاجية كانت الغلبة لأساليب الشعوذة ، ولكن مع مرور الزمن بدأت الملاحظة الوثيقة وأساليب العلاج الطبى يكون لها اليد العليا ، وأخذ السحر يخضع للعلم ، كما أن الخيار بين الوسائل السحرية والعقلانية فى العلاج يتوقف إلى حد كبير على وجهات نظر الطبيب الفلسفية ، ولدينا دلائل على أنه كانت هناك حالات استخدم فيها قدر ضئيل جداً من السحر ، وفى حالات أخرى كانت الغلبة لأساليب التأثير والايحاء ، ومما لاشك فيه أن المريض بالوهم كان ظاهرة مألوفة فى الماضى مثلما هى اليوم ، ومثل هؤلاء المرضى كان يفيدهم جداً العلاج الايمانى الذى يحدث فى الأضرحة الشهيرة مثل معابد إيمحتب .

وقد يبدو غريبا أن تحتفظ قوة غيبية منافية للعقل كالسحر بتأثيرها القوى خلال كل قرون التاريخ المصرى القديم ، ولكن لاينبغى أن ننسى أن المرضى حتى لوكانوا ينتمون إلى الطبقة المتعلمة تستوهيهم دائما بعض المعتقدات الخيالية ، فهم بطبيعتهم عاطفيون ميالون للاستهواء ، وهم على استعداد للتشبث بأى علاج يقدم لهم مهما كان غير عقلانى ، لاسيما إذا كان مؤيداً بقوة من تقاليد التراث وسلطة التحكم ، كما أنه من المعروف جيداً أن ثقة المريض فى الطبيب المعالج يتوقف عليها إلى حد كبير النفع من العلاج .

ونحن لا نشك فى أن إيمحتب ، كان بنظرته العريضة للحياة ، وخبرته بالشئون البشرية ، واهتمامه بالفلك وغيره من العلوم ، ميالاً إلى الطب العلمى ، وقد اعتبر فى الأزمنه المتأخرة أنه مخترع فن العلاج ، وفى نفس الوقت ظل الاعتقاد فى

السحر قويا حتى القرنين الثانى والثالث الميلاديين ، إلى حد أننا نجد بردية لندن وليدن الديموطيقية الشهيرة تنبذ تماما العلاج العقلانى ، وتنتهج الأسلوب السحرى كوسيلة وحيدة لعلاج الأمراض .

o o o

ثالثا : الصحة

ان وجود أى شعب فى حالة جيدة من الصحة العامة يرتبط ارتباطا وثيقا بتقدم فن الطب لدى هذا الشعب .

وقد كان المصريون القدماء يفخرون بأنهم أكثر شعوب العالم صحة ، كانوا يراقبون بدقة التدابير الصحية بالنسبة للمدينة والمسكن بل والفرد . فالمنازل يتم تبخيرها بين وقت وآخر حتى تظل أجواؤها حلوة عذبة ، وكانوا يتخذون الاحتياطات الكافية لمنع مضايقات الهوام والبعوض ، كما كانوا يعرفون شيئا عن المطهرات وموانع العفونة ، اذ عرفوا فائدة تجفيف الأشياء ، واستخدام بعض الكيماويات مثل النطرون والملح العادى والكحول فى حفظ المأكولات ، وحتى معالجة جسم الميت كانت تقوم على مبادئ الصحة . خلاصة القول أن أهمية تعزيز الصحة العامة ، ومنع تفشى الأمراض كانت مفهومة لديهم تماماً .

وكان الكهنة يطبقون نظاماً صارماً للحفاظ على الصحة والنظافة انطلاقاً من أنه لا يمكن السماح لأى شىء غير طاهر بدخول المعبد ، ولاسيما «قدس الأقداس» وهو المكان الذى يعيش فيه الإله ، وكانت الطهارة الجسدية والخلقية بالنسبة للكاهن القائم بالقداس شيئا أساسياً لصحة العبادة ، فلا يناسبه سوى أن يرتدى ثوباً من الكتان النظيف الذى لا شائبة فيه ، لأن الكتان يخلو نسبياً من التلوث بالطفيليات ، وكان لابد للكاهن أن يحلق شعر جسده كل ثلاثة أيام ، وعليه أن يرتدى صندلاً من ورق البردى . وأكثر من ذلك ضمانا للمحافظة على نظافة الجسم كان على كل كاهن أو شماس أن يستحم بالماء البارد من الرأس إلى القدم مرتين فى النهار ، ومرتين فى الليل . وأخيرا يجب غسل الأيدى وتنظيف الأظافر قبل أداء المراسم الدينية ، ولهذا الاعتبار كانت المعابد مزودة بأماكن للغسل . وبالطبع فإن هذا الاصرار على النظافة التامة كان درساً عملياً لكل الشعب !

وقد كانوا أيضا يعرفون أهمية الطب الوقائى ، فقد علموا أن كثيرا من الأمراض تأتى عن طريق الأكل وسوء الهضم ، ولذلك كانوا يتحاشون هذه الأضرار بوسائل مختلفة كالامتناع فى بعض الأيام عن الطعام ، واستخدام المقيئات والملينات والمسهلات ، وغير ذلك من وسائل إراحة المعدة ، لقد كانوا يقدرون مبدأ «الوقاية خير من العلاج» ، أو كما يقول «ديودور الصقلى» : «كانت كل حياتهم منظمة على نحو يوحى بأنها تسير طبقا لقواعد صحية وضعها طبيب واسع المعرفة لا مجرد مشرع قوانين» !

أما فيما يتعلق بأمراض النفاس فهناك بعض الاختلاف فى الآراء ، إذ بينما يرى عالم المصريات الألمانى «فيدمان Wiedemann» أن نسبة وفيات الأطفال كانت كبيرة بسبب قصور العناية بالأم الحامل ، يجد «هاجمان Hagemann» أدلة على العناية بالرضاعة والغذاء المناسب للأطفال الصغار والكبار .

هذه الحقائق القليلة تكفى للدلالة على التقدم الكبير الذى أحرزه الطب والصحة العامة على ضفاف النيل فى الأزمنة الغابرة ، ولكن لا يمكن الزعم بأن الطب المصرى قد تطور فى يوم ما إلى منهج علمى ، وانما ظل دائما فى مرحلة يمكن أن توصف بأنها مزيج من الشعوذة والعلم بحيث لا يمكن الفصل بينها بوضوح فكل منهما كان يؤثر فى الآخر ، ويتأثر به خلال ارتباطهما الطويل .

أن فكرة عزو المرض إلى اختلال وظائف الأعضاء ، وليس إلى وجود كينونة غريبة داخل الجسد ، لم تطف بذهن أى طبيب مصرى مهما كانت عقليته فلسفية ، أنهم لم يسلموا مطلقاً بأن المرض والموت ظاهرتان طبيعيتان لا مهرب منهما ، وانما يعزونهما إلى عمل الآلهة أو الأرواح الغريبة ، وهم لم يدركوا مطلقا مكان الانسان بالنسبة للوسط الذى يعيش فيه سواء كان انسانيا أو مادياً ، وانما ظلوا متمسكين بخرافاتهم القديمة قدم الزمن ، فهم لم يكتشفوا مطلقا سرمدية قوانين الطبيعة ، وكيف أن العجز والفساد يرجعان إلى قوانين حتمية يمكن أن يفسرها علم التشريح والفسيولوجى وتشخيص الأمراض ، أو باختصار لقد ظل الطب الفرعونى حبيساً فى مرحلة من التطور يتصارع فيها العلم والخرافة ، أيهما تكون له السيادة ، ومن ذا الذى يستطيع أن يقول حتى اليوم أن هذا الصراع قد حسم نهائيا لصالح أحد الطرفين ؟ .

الفصل السادس

عمادة الطب العالمى

ان إيمحتب ، وزير الفرعون «زوسر» والذى أصبح فيما بعد اله الطب المصرى ، يملك أسانيد قوية لحقه فى أن يعترف به العالم المتمدين عميداً لفن الطب العالمى ، وهذه الأسانيد هى أولا خدماته التى أداها لمليكه ووطنه ، وثانيا شهرته كطبيب ساحر والتى استمرت قرونا كثيرة وأدت فى النهاية إلى تأليهه . وإلى هذين السببين الأساسيين يمكن أن تضاف حجة ثالثة لها وزنها هى أن إيمحتب كان أقدم طبيب يمكننا أن نعرف بعض التفاصيل عن حياته . وعلى ذلك فإن موضوع هذا الفصل يمكن أن نبحثه تحت هذين العنوانين :

أولا : من أحق بعمادة الطب .. اسكلبيوس أم إيمحتب ؟
ثانيا : إيمحتب فى كتب تاريخ الطب .

أولا : من أحق بعمادة الطب ؟

لقرون طويلة ظل «اسكلبيوس» فى نظر العالم المتمدين إلها رمزياً للطب ، ويهمنا هنا أن نبحث الأساليب التى دعت إلى تمتعه بهذه المكانة الرفيعة .

ربما كان «هوميروس» هو أول من ذكر اسم «اسكلبيوس» ، ووصفه بأنه «الطبيب الذى لا يلام» وقال عنه انه كان والداً لبطلين هما «ماخون وبوداليريوس Makhaon and Podaleirios» وكانا أيضا طبيبين فى معسكر الاغريق أثناء حصار طروادة .

ولكن كثيراً من المؤلفين الكلاسيكيين القدماء ينسبونه إلى أصل أسطورى ، فيقولون أنه ابن «أبوللو Apollo» والحورية «كورونيس Coronis» وأنه تدرب على يد القنطور [١] شيرون الذى علمه فن علاج الأمراض ويؤكد آخرون أن اسكلبيوس لم

يكن مطلقا رجلا من لحم ودم وانما كان مجرد تجسيد لأفكار معينة [٢] ، ومعظم الباحثين المحدثين يعتقدون أن اسكلبيوس كان فى الأصل إلهاً وأن صفته البشرية مجرد انعكاس لأسطورته . ومهما كانت حقيقة اسكلبيوس فإننا نعرف أنه مع مرور الزمن أخذت حالات شهيرة من الشفاء تتبلور حول شخصية حقيقية أو خيالية رفعت فيما بعد إلى مستوى الآلهة عرفاناً بفضلها على البشرية [٣] . وأقيمت معابد عديدة تكريما له فى مختلف أنحاء بلاد اليونان وكل مكان ، أقدمها فى «تريكا» باقليم «تيساليا Thessaly» . أما معابده الرئيسية فكانت فى «أبيدوروس وكوس وبرجاموس Epidauros, Cos and Pergamos» ، وهذه المعابد كانت مقامة بالقرب من الينابيع أو على قمم التلال ، وكانت تجرى فيها مزاولة النوم العلاجى حيث يقال أن اسكلبيوس يظهر للمرضى اللائذين بمعابده فى الأحلام ويقوم بشفائهم مباشرة أو يصف لهم الأدوية التى تؤدى بهم إلى الشفاء ، وكان هؤلاء المرضى بعد شفائهم يقدمون النذور إلى معبده ، وغالبا ما يكون النذر ديكاً ، كما كانوا يعلقون فى المعبد لوحات يسجلون عليها أسماءهم والأمراض التى كانوا يعانون منها ، والوسائل التى أدت إلى شفائهم .

ويبدو أن عبادة اسكلبيوس لا ترجع إلى أبعد من زمن «هوميروس» الذى من المعتقد أنه عاش حوالى عام ٨٥٠ ق.م. وأدخل «سوفوكليس Sophocles» هذه العبادة إلى أثينا فى عام ٤٢٠ ق.م. ثم انتشرت تدريجيا فى كل أنحاء بلاد اليونان والبلاد المجاورة ، وفى زمن «الاسكندر الأكبر» أصبحت معابد اسكلبيوس تتراوح بين ثلثمائة وأربعمائة معبد . وكان العلاج فى هذه المعابد يشمل التطهر ، والمسح بالزيت ، والتبخير ، والنظام الغذائى ، والصلوات ، وتقديم الأضاحى ، وأيضا أداء مراسم رمزية لها قوة ايحاء قوية توحى بتوقع الشفاء .

وأدخلت عبادة اسكلبيوس إلى روما فى زمن الطاعون الكبير فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد حيث أقيم له معبد خاص فى جزيرة «بنهر التيبر» . ومنذ ذلك الحين انتشرت شهرة اسكلبيوس تدريجياً فى كل أنحاء العالم المتمدين باعتباره إلها رمزياً للطب قادراً على شفاء البشر ومواساتهم ، وظهرت صورته على عدد لا يحصى من التماثيل [٤] والمواثيق والدبلومات والعملات والأختام التى لها علاقة بالمستشفيات والمدارس الطبية والجمعيات المتناثرة فى مختلف أنحاء العالم .

ولكن ، من ناحية أخرى ، وكما رأينا فى هذا الكتاب ، كان يعيش فى مصر قبل زمن «هوميروس» بألفى عام وقبل قرون كثيرة من الاعتراف باسكلبيوس كإله أسطورى للطب فى بلاد الاغريق . رجل من لحم ودم ، طبيب ساحر بلغ من شهرته ومهارته فى شفاء الأمراض حداً جعل الناس يرفعونه إلى نصف إله للطب ثم يعترفون به فيما بعد كإله كامل للطب المصرى .. هذا الرجل يستحق بكل تأكيد أسمى اجلالنا ، ويجب أن ينظر اليه الأطباء فى كل أنحاء العالم باعتباره المنشئ العبقرى لفن الطب ، إنه الإله الرمزى للطب ، إن اسمه يجب أن ينقش على رأس قائمة قديسى الطب ، وصورته يجب أن تكون شارة لمهنتنا .

السبب الوحيد الذى أدى إلى اهمال إيمحتب وحرمانه من حقه الطبيعى فى عمادة الطب العالمى أن الحضارة الغربية قد شيدت على أدبيات روما واليونان ، ولم يعرف العالم المثقف تاريخ مصر القديمة إلى أن استطاع «يونج وشامبليون» أن يحلا رموز الكتابة الهيروغليفية منذ حوالى قرن من الزمان [١٩٢٨] وحتى ذلك الوقت كانت كل الوثائق المصرية سواء منقوشة على جدران المعابد والمقابر أو مكتوبة على أوراق البردى لايمكن حلها وقراءتها ، كما حدثت أكتشافات باهرة فى سوريا وكريت وميسنيا ألقت فيضاً من الضوء على حضارات قديمة لم يكن يعرف بوجودها أحد منذ أجيال قليلة فقط . وفى نفس الوقت كان الباحثون فى التراث الاغريقى والرومانى ، قبل هذه الأكتشافات ، قد ألفوا لقرون كثيرة قصة اسكلبيوس إله الطب الاغريقى ، وكانت النتيجة أن التراث الأسطورى لهذا الإله الكلاسيكى أصبح جزءاً من نسيج تاريخ الطب فى الأدب الحديث طارداً بذلك الإله المصرى الأقدم عهداً ، ولكن ، الآن ، بعد أن برز إيمحتب من وراء الضباب الأثرى وعُرفت سيرته ، فإن الوقت قد حان بكل تأكيد لاقرار العدل الذى يستحقه هذا الانسان المبجل ، وأن يمنح المكانة الشرفية التى اغتصبها منه اسكلبيوس قروناً كثيرة [٥] .

وبغض النظر عن الحجج التاريخية التى تؤيد حق إيمحتب فى أن يحل محل اسكلبيوس فى عمادة الطب يمكننا أن نضيف انه من الأفضل أن يكون على رأس مهنتنا رجل من لحم ودم ، شخصية شهيرة متعددة الجوانب ، بدلاً من شخصية غامضة المنشأ إلى حد أنها نسبت إلى عالم الأساطير . كما اننا لا نعرف سوى النذر

القليل عن حياة اسكلبيوس وأعماله فى حين أنه يبقى من إيمحتب على الأقل تحفته المعمارية الجبارة المسماة بالهرم المدرج بسقارة ، كما يبقى شاهداً عليه كثير من النقوش والكتابات على الصخور وأوراق البردى ، وكثير من التماثيل والتصاوير الجدارية كلها تشير إلى أنه قضى حياة بارزة أنفق بعضها فى الخدمة العامة ، وبعضها الآخر فى علاج المرضى .

باختصار ان مهنة الطب إذا وضعت إيمحتب على رأسها سوف تجد فيه من يمثلها خير تمثيل ، وسوف تعترف بفضل هذا الطبيب المصرى الشهير الذى ظل ينظر اليه قرونا طويلة قبل عصر المسيح على أنه إله الطب المعبود . على كل هذه الأسس يستحق إيمحتب أن يتربع على عرش فن الطب أكثر من منافسه شبه الأسطورى . إنه الأجدر بلقب عميد الطب العالمى .

ο ο ο

ثانيا : إيمحتب فى كتب تاريخ الطب

من المؤسف أن إيمحتب لم يحظ إلا بأقل قدر من الاهتمام فى مختلف المؤلفات التى تتناول تاريخ الطب حتى أكثرها حداثة . ان هذا الرجل ذا الفضل العظيم على مهنة الطب لم يلق العدل الذى يستحقه ، ويمكن أن نقدم دليلا على ذلك بايراد بعض المقتبسات من المؤلفات الحديثة فى تاريخ الطب مرتبة ترتيبا تاريخياً ، فحتى فى حالة ذكر إيمحتب لا نكاد نجد اشارة إلى شخصيته البشرية أو إلى مرحلة نصف الإله فى تاريخه .

ربما كان أول مرجع فى هذا الشأن هو كتاب «هاير» الذى يتحدث عن «معبد إيمحتب بن بتاح ، أو اسكلبيوس المصرى» [٦] .

يلى ذلك «ويشنجتون» الذى يشير إلى إيمحتب بقوله : «وفى فترة أكثر تأخراً نجد إلها خاصا بالطب هو إيمحتب بن بتاح وسخمت ، وكان له معبد فى منف يزاول فيه النوم العلاجى» [٧] .

ويكتفى «نيوبيرجر» بالاشارة إلى «ابن بتاح ، إيمحتب (اسكلبيوس وربما كان طبيبا كاهنا تم تأليهه) وكان معبده الرئيسى فى منف .. وقد ازدادت أهمية إيمحتب (ومعنى اسمه : الذى يأتى فى سلام) مع ارتفاع شأن منف ومدرسة كهنتها» [٨] .

ويدخل «ج.ل. باجل» فى تفاصيل أكثر بعض الشىء : «فى أيام الملك زوسر ، من الأسرة الثالثة ، كان يعيش طبيب يدعى إيمحتب أصبح بمثابة اسكلبيوس رجلا مؤلهاً أو نصف مؤله ، وقد عُبد فيما بعد فى منف كإله للشفاء ، وفيما بين عام ٧٠٠ ق.م. ومقدم الاسكندر الأكبر لقى إيمحتب أكبر قدر من التكريم ربما أكثر من إله الطب سيرابيس الذى أصبح شهيراً فى أيام الاسكندر» [٩] .

ويزيد «أوسلى» تفاصيل أخرى عن إيمحتب : «أن إيمحتب هو أول صورة لطبيب يخرج بوضوح من الضباب الأثرى .. [تعبير قاله برستيد] لقد أصبح إلها شعبياً محبوباً ليس لأنه كان يشفى الأحياء فحسب ، وانما لأنه كان يرعى أيضا الأموات فى رحلتهم بعد الموت . ويمكن الحصول على معلومات عنه بصفته «المخترع الأول لفن الطب» – كما يدعى – من دراسة «كورت زيته» ، ويبدو أنه يعادل تماما اسكلبيوس الاغريقى ، وقد أصبح إلها فى فترة متأخرة نسبياً ترجع إلى ما بين عامى ٧٠٠ ق.م. و٣٣٢ ق.م. وله تماثيل برونزية عديدة لا تزال موجودة ، وأقدم ذكر له نجده على تمثال لواحد من كهنته يدعى «أمازيس» محفوظ حاليا فى متحف برلين . وقد أقام له «الملك بطلميوس الخامس» معبداً خاصاً فى جزيرة فيلة ، وازدادت عبادته انتشاراً فى الأيام المتأخرة ، وأقيم له معبد خاص بالقرب من منف ، ويعتقد «زيته» أن عبادة إيمحتب هى التى أوحت بالأدب الهرمسى ، وارتباط إيمحتب مع المعبد الشهير فى إدفو له أهمية خاصة» [١٠] .

ويعطى «باور وثومبسون» مزيداً من التفاصيل عن إيمحتب :

«إيمحتب .. الذى يأتى فى سلام» «الطبيب الجيد للآلهة والبشر» أُعتبر ابناً لبتاح وإلها رئيسياً للطب ، أُنشىء أول معبد له فى منف ثم أصبح فيما بعد مركزاً للعلاج ، وفى فترة اكثر تأخراً أقيمت له معابد فى «إدفو» ومختلف أنحاء مصر العليا ، ومن المحتمل أنه كان شخصاً حقيقياً يعيش فى عهد الأسرة الثالثة ، وكان

كاهناً لرع إله الشمس ، وارتفع نتيجة لمهارته الكبيرة فى العلاج إلى مستوى نصف إله ، ويقال أنه كان يزور المرضى ليعطيهم «نوماً هادئاً ويشفى آلامهم وأمراضهم» وطبقاً لمختلف السجلات نراه «الإله الخيّر الذى يستمع إلى دعوات الناس ويمنح بحمايته الحياة لكل البشر فى كل مكان» و«الاله الذى يحمى البشر ، الذى يهب لنجدة من يدعوه ، الذى يعطى الحياة للرجال والنساء والذى يعطى الحياة لكل من يدين له» وكان يدعى أيضا «الإله الذى يعتنى بالمريض» و«المعبود أو الإله المقدس الذى يعطى الإبن لمن لا ابن له» [١١] .

ويقنع «ف.هـ . جاريسون» بوصف مختصر :

«إيمحتب» الذى يأتى فى سلام «كان شبه إله للطب ، بمثابة اسكليبوس المصرى ، عاش فى الأسرة الثالثة (٤٥٠٠ ق.م. !) وعُبد فيما بعد فى منف ، وأقيم له معبد لتكريمه فى جزيرة فيله ، وهو أقدم طبيب معروف ، وتدل قصاصة بردية من القرن الثانى الميلادى نشرت أخيراً بواسطة جمعية الاستكشاف المصرية أنه كان يعبد حتى فى زمن منكاورع» [١٢] .

ويعطى «و.أ. جاين» اشارات أكثر تفصيلا عن إيمحتب ، والواقع انه أول مؤرخ طبى يقدم مادة كافية عن هذا الإله ، ونحن نشير على قرائنا بأن يرجعوا إلى بحثه الممتع [١٣] .

ومن كتبوا فى هذا الموضوع «س.ح. كومستون» ، الذى أعطى اشارات مختصرة عن إيمحتب ووصفه بأنه «إله الشفاء الحقيقى فى مصر» وأنه «المعادل لاسكليبوس الاغريقى» [١٤] ونفس الملاحظة تنطبق على المجلد الممتاز الذى نشره «كاستليونى» مؤخرا [١٥] .

هذه المقتبسات تكفى لإثبات ان هذا المصرى الخالد إيمحتب لم يحظ بالعناية الكافية ، ومما لاشك فيه أنه من الممكن الاعتذار عن ذلك بأن حقيقة إيمحتب ومعاصرته للملك زوسر كشخص طبيعى لم تعرف إلا فى السنوات الأخيرة ، وأكثر من ذلك فان المرحلة التى كان فيها إيمحتب نصف إله لم تعرف بوضوح إلا بعد اكتشاف «جرينفل وهنت» لبرديات البهنسا . والمؤكد أن من سوف يكتبون فى المستقبل عن تاريخ الطب سوف يضعون إيمحتب فى دائرة الضوء ويرفعونه إلى المكانة الرفيعة التى يستحقها [١٦] .

خاتمة

لقد أتممنا الآن قصة ذلك الطبيب المبجل الذى يسميه «أوسلى» «دكتور إيمحتب» من زمن ظهوره المبرز كوزير وطبيب ساحر فى عهد الملك زوسر حتى تم رفعه إلى مرتبة الإله الكامل للطب المصرى .

وخلال هذه القصة حاولنا ترتيب المعلومات التاريخية التى وصلت الينا عنه فى سياق زمنى ، وتجميعها فى سرد متصل يقدم رؤية شاملة «بانوراما» لنشاطات إيمحتب على نحو متكامل بالقدر الذى تسمح به المعلومات المتاحة .

إن تأمل مثل هذه الحياة المتعددة الجوانب ، النبيلة المقاصد ، التى كانت محل ثقة مطلقة من البشرية المعذبة والتى رفعت إلى أعلى مستوى التكريم .. لشيء يملؤنا بالاعجاب .

إن سجل إيمحتب يمتد من زمن بناء الأهرامات ، إلى الدولتين الوسطى والحديثة ، إلى مرحلة العبودية المصرية ، بل وإلى زمن الفتح العربى لمصر عام ٦٤٠ ميلادية .. خلال كل هذه الحقب الطويلة ظل إيمحتب يشغل الأذهان بفضل حياته التى كرسها للصالح العام .

والتاريخ لا يذكر لنا شيئا عن الخطوات التى اتخذها إيمحتب ليرتفع تدريجيا من مركز متواضع فى البلاط الملكى إلى ذلك المنصب البالغ المسئولية ، منصب رئيس الوزراء وطبيب البلاط ، ولسنا بحاجة إلى كثير من الخيال لنفترض أن إيمحتب بشخصيته القوية ، ومزاياه الرفيعة ، وقلبه الحنون المواسى ، قد استطاع أن يشق طريقه بهدوء وثبات نحو المكانة الرفيعة التى وصل اليها . والواقع أنه من العسير أن نجد شبيهاً تاريخياً لانجازات مثل هذا الشخص سواء فى فترة حياته الأرضية أو فيما بعد وفاته .

وقد امتدت عبادة إيمحتب خلال شطر كبير من العصر الرومانى ، بالتأكيد حتى القرن السادس المسيحى ، ولذا فان سجله يغطى ثلاثة آلاف عام ويساعدنا على الغوص بعيداً فى أحشاء التاريخ .. إن اسمه يستحق أن يظل خالداً لا يمحى من الذاكرة كواحد من كبار العباقرة فى سجلات مصر القديمة ، إنه يتلألأ كأحد النجوم الثوابت فى سماء مصر الزرقاء ، وقد ظل نفوذه مسيطراً لمدة طويلة بعد أن اجتازت الحضارة المصرية نقطة ذروتها وبدأت مسيرة منحدرها الطويل حتى أصبحت تابعاً لليونان ثم الرومان ، وحتى خلال تلك الفترة المتأخرة نجد أثرياء اليونان والرومان يزورون أطلال معابده ومقابره فى مصر ، ويتركون نقوشاً على جدرانها تشيد بذلك «الإله الطيب» ، ونجد الايمان بمقدرته على شفاء المرضى يسوق الحجيج إلى أضرحته .

وخلال الفترات المتأخرة من التاريخ المصرى صار إيمحتب ، أو «إيموتس» ، ممتزجا أكثر وأكثر باسكلبيوس الاغريقى الذى أصبح فيما بعد إلهاً للطب لدى الرومان ، وشيئا فشيئاً اختفى إيمحتب بالكامل وراء ذلك الإله الأخير .

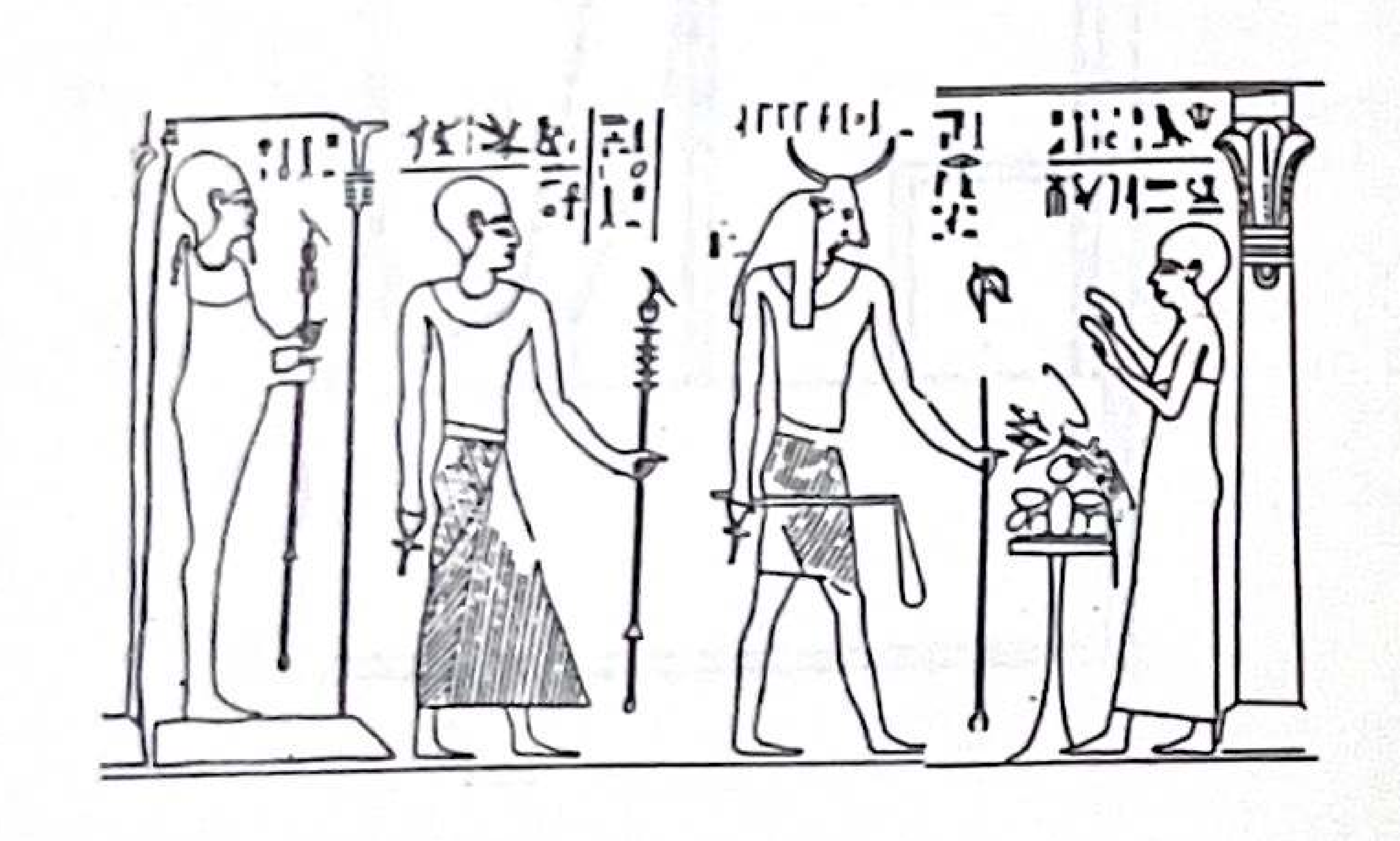
وفى مصر ، كما فى كل مكان آخر ، لابد للنظام القديم أن يتغير تاركا المجال للجديد ، وخلال مجرى القرون أخذت أصابع الزمن النحاتة ، وهمجية البشر ، تعبثان بتلك المعابد الجليلة التى كان فيها إيمحتب المحبوب يحكم كإله مانح للحياة والصحة للمرضى والتألمين ، وأصبح معبده الرئيسى فى منف صورة للخراب ، وبعد أن كانت أعمدته وجنباته المقدسة يتردد فيها وقع أقدام الكهنة والعابدين ، صار كل شئ صامتاً الآن فيما عدا خفقات أجنحة الوطاويط والبوم والجعارين ، أما أصوات التراتيل والأناشيد ، ونبرات التضرع والدعاء ، فقد توقفت إلى الأبد .

لم يعد الباحثون عن الشفاء يتلمسون السماح لهم بالنوم فى جنبات معبده إيماناً بان «الإله الذى يسمع لكل من ناداه» سوف يظهر لهم فى المنام ويعطيهم الأكسير الذى يشفى مرضهم ، ولم يعد الذين مَنّ عليهم بالشفاء وخلصهم من العبء الذى يثقل كواهلهم يرقصون ويغنون أمام ضريحه ، وقلوبهم تتفجر فرحاً وعرفاناً ، لما حصلوا عليه من فرصة جديدة فى الصحة والحياة ، لقد اختفى كل مجد الاسكلبيون العتيد فى منف ، حيث كان فى وقت ما يضج بالأنصار

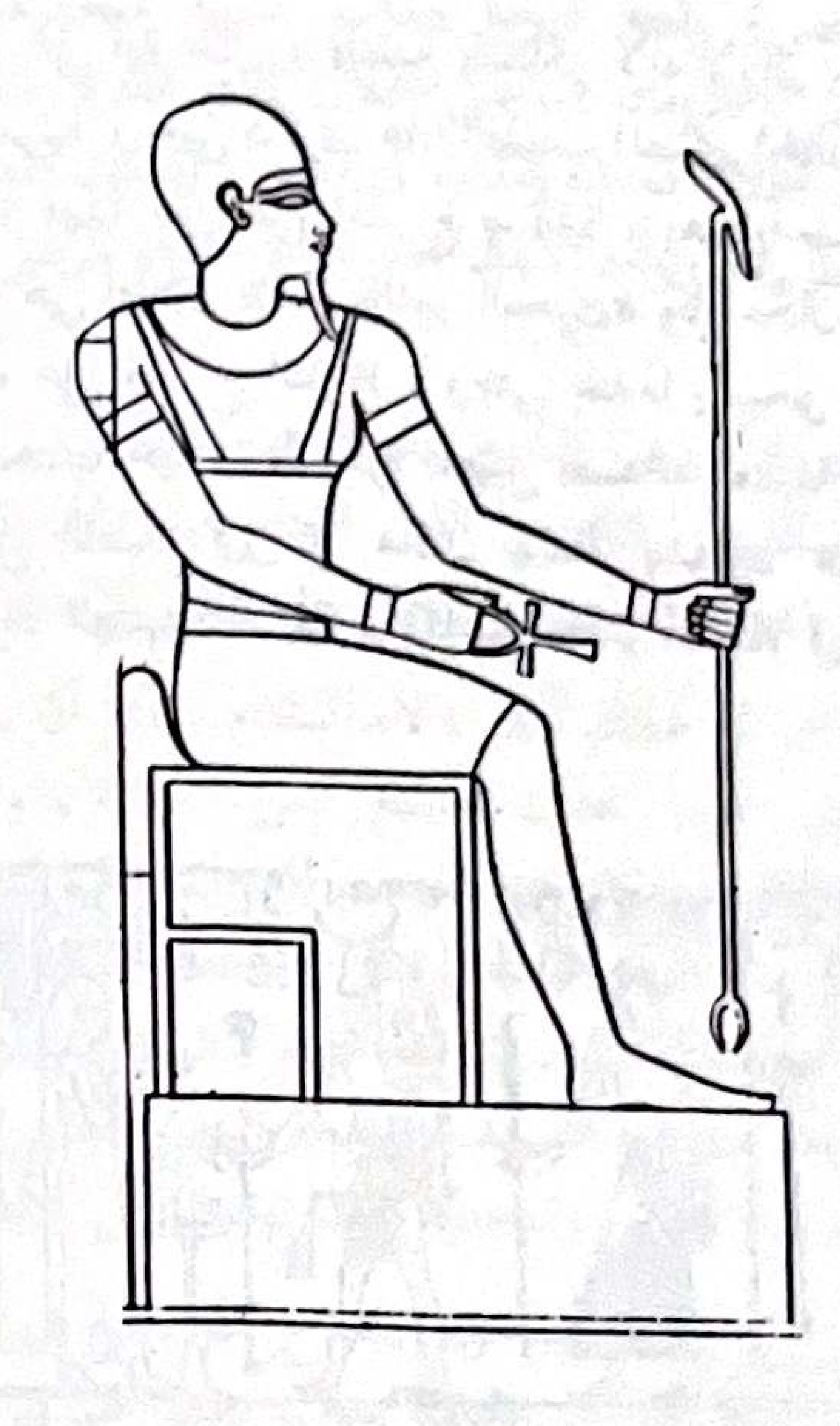
المتحمسين الذين قدموا من كل فج حاملين أتلالاً من الآلام والمعاناة آملين أن يخلصهم منها إلههم المحبوب .

أما معبد إيمحتب الصغير فى فيلة فقد أصبح مغموراً الآن فى مستودع هائل من الماء [قبل نقله إلى جزيرة ايجليكا] يراد به أن يجلب الخيرات المادية للبلاد بدلاً من بركات الشفاء التى كان يجلبها المعبد .

ولكننا ، على أية حال ، فلنقنع ولنشكر لأنه لاتزال حتى هذا اليوم شواهد كثيرة ، مادية ومرئية ، تحيى ذكرى هذا الطبيب المصرى الخالد الذى حفر اسمه على صفحة الزمن ، فهذا هو الهرم المدرج بسقارة ، وهو واحد من أقدم آثار مصر الخالدة ، وهذه هى أطلال «فيلة والدير البحرى» وكل مكان ، شواهد باقية تحكى جزءا من قصته على مسرح التاريخ ، وحتى عندما ينسحق الهرم والمعبد إلى تراب سيظل اسم إيمحتب حياً فى الذاكرة بفضل بصماته العميقة التى خلفها على رمال الزمن ، وسيظل الأطباء فى كل مكان بالعالم يشعرون نحوه بالإكبار والإجلال كواحد من رواد مهنتهم العريقة ، وكإسم جدير بالبقاء فى سجلات الطب إلى الأبد .



الهوامــش



هوامش الفصل الأول :

١ - تعود بردية « إدوين سميث » إلى عام ١٥٥٠ ق.م. وتعد أقدم كتاب للجراحة فى العالم . وهى محفوظة حاليا فى متحف الجمعية التاريخية بنيويورك .
وتبدأ هذه البردية « بكتاب الجروح » الذى يشتمل على ثمانية وأربعين تشخيصا . وتتسم طريقة العرض بالنظام والدقة . فكل مشاهدة تبدأ بعنوان « تعليمات بشأن ...» ، ثم يجىء الفحص ويبدأ بعبارة « اذا فحصت رجلا ... » ، ويتبعه التشخيص « قل فيما يخصه أنه يشكو ... » ثم التوقع وبعد ذلك يأتى العلاج .
ويمتاز الجزء الأول من البردية بالتبويب المنطقى المرتب ، ويضاف إلى ذلك خلوه من النظريات والسحر والشعوذة التى تزخر بها المؤلفات الطبية الأخرى .
ويعتقد العلماء بأن كاتب هذه البردية كان يلازم المرضى ليالى طوال ، ويترقب أى علامات الابراء فيهم ، ثم يرتب ويبوب ملاحظاته .
وعلى ظهر هذه البردية دونت اشارة لعلاج أمراض المستقيم ، وأخرى لمرهم يعيد الشباب إلى الشيوخ .

٢ - يلقب هيرودوت « بأبى التاريخ » وهو من مدينة « هاليكارناسوس » فى آسيا الصغرى . ولقد زار مصر عام ٤٥٠ ق.م ، وخصص الجزء الثانى من كتابه الشهير « التاريخ » لمصر . فتحدث عن جغرافيتها ومدنها ، والأحداث التاريخية التى مرت بها . وأعمال ملوكها ومظاهر حضارتها .

٣ - كان مركز عبادة « تحوت » مدينة الأشمونين قرب مدينة ملوى حاليا . عبده المصريون على هيئة الطائر ابيس وأحيانا على هيئة القرد . ورأى فيه الاغريق معبودا مماثلا لمعبودهم « هرمس » .

٤ - أطلق المصريون القدماء اسم « رع » على الشمس وعلى إلهها . وفى مدينة « أون » (هليوبوليس – عين شمس) كان رع على رأس تاسوع يتألف منه كأول خالق للكون ، والذى أنجب من ذاته « شو » إله الهواء واخته « تفنوت » المكملة لروحه . واللذان تزاوجا وأنجبا « جب » إله الأرض و« نوت » إلهة السماء . واللذان بدورهما أنجبا « أوزوريس وإيزيس وست ونفتيس » ليكتمل التاسوع .
ومنذ الأسرة الرابعة أصبح « رع » هو الإله الرسمى للدولة . ولقد اندمج معه العديد من الآلهة ليكتسبوا قوة مثل الإله آمون إله الامبراطورية المصرية فى الدولة الحديثة تحت اسم « آمون رع » .

٥ – كانت « ايزيس » أشهر آلهات مصر . وهى ابنة ربة السماء « نوت » ورب الأرض « جب » ، وشقيقة كل من « أوزيريس » زوجها ، و« ست ونفتيس » . وهى كذلك أم الإله « حورس » وترمز إلى الأمومة بالاضافة إلى الاخلاص للزوج .
من أهم ألقابها « العظيمة فى السحر » نظرا لالتجائها للأعمال السحرية للعثور على جثمان زوجها واعادة الحياه إليه والدفاع المستميت عن ابنها . ولقد انتشرت عبادتها فى أوربا حتى وصلت إلى انجلترا .

٦ – يُعد حورس من الآلهة الرئيسية ويمثل على هيئة الصقر أو رجل برأس صقر عيناه الشمس والقمر .
منذ البداية كان حورس رمزا للملك سواء كان حيـا أو متوفيا . ولقد ارتبط هذا الإله بالشمس منذ العصر العتيق تحت اسم « رع حور آختى » .
اشتهر الإله « حورس » بصراع عنيف مع عمه الإله « ست » الذى اغتصب المُلك من أخيه «أوزيريس » أب « حورس » .

٧ – كان « بتاح » هو المعبود الرئيسى لمدينة منف حيث كون ثالوثا منه ومن زوجته « سخمت » وابنهما الإله « نفرتم » .
تخيله المصريون على هيئة آدمية يغطى رأسه بقلنسوة ، ويلتف برداء تبرز منه يداه التى تقبض على صولجان مكون من علامة « العنخ » (الحياه) و« الواس » (القوة) و« الجد » (البقاء) .
وحسب نظرية الخلق فى منف كان بتاح أول الوجود وقد خلق العالم بدءا من إله الشمس كفكرة نشأت فى قلبه ثم أوجدت لنفسها نطقا على لسانه . ولم يقتصر « بتاح » على خلق الآلهة والناس والعالم بأسره ، ولكن بصفته الصانع الإلهى ، فقد صنع تماثيل الآلهة التى كانت تعبد فى المعابد .
اتخذ الإله « بتاح » لنفسه لقب « تاتنن » بمعنى (الأرض البارزة) لكونها تشخيصاًلأول تل ظهر من الحياة الأزلية .
عُبد « بتاح » لقدرته الفائقة فى الصناعة ، وكان يعد راعيا لجميع الفنون والحرف ، ولقبه كهنته تبعا لذلك بلقب « رئيس معلمى الفنانين » .

٨ – اتخذ الإله « خنوم » هيئة الكبش فى بداية الدولة الحديثة ولكنه اتخذ شكل رجل .
ويُعد حارسا لمنابع مياة النيل فى « إلفنتين » حيث يبدأ الفيضان .
من أهمْ وظائف « خنوم » هو تشكيل الطفل المولود على عجلة الفخرانى . وكان فى إسنا خالقا لكل ْشىء بل للعالم بأجمعه .
وقد اندمج « خنوم » مع « رع » رب الشمس ، و« شو » رب الهواء ،

و« أوزيريس » رب العالم الآخر ، و« جب » رب الأرض . وهذا يفسر تمثيله على هيئة كبش بأربعة رؤوس .

٩ – صُورت الإلهة « سخمت » على هيئة سيدة برأس لبؤة . وهى تتميز بالغضب السريع والجبروت . واسمها مشتق من كلمة « سخم » بمعنى القوة .
و« سخمت » إلهة حرب فى المحل الأول ، فهى ترافق الملك فى حروبه لتنشر الذعر فى قلوب الأعداء . وهى كذلك « عين رع » – فى بعض الأساطير – التى فتكت بالبشر عندما خرجوا عن طاعة الإله « رع » .
وقد أدمجها الكهنة فى عصور متأخرة بالإلهة « باستت » ربه « بوباسطة » (تل بسطة) .
واتخذت هيئة القطة .

١٠ – هناك آلهة أخرى عديدة مرتبطة بالولادة منها بصفة خاصة « إيزيس ، ونفتيس ، ومسخنت ، وحكات » .
وكان « خنوم وسخمت » يعبدان فى بعض الأقاليم كإلهين للحمل والولادة . وذلك حسب ما جاء فى « بردية وستكار » المحفوظة بمتحف برلين فى الجزء الخاص بولادة ملوك الأسرة الخامسة .
وكانت الإلهة « تاورت » بمعنى (العظيمة) تحمى كذلك الحوامل من الوضع العسر ، ولهذا السبب قدسها المصريون تحت اسم « إبت » بمعنى (الحريم) .
ومن معبد أرمنت كان هناك نقش – فقد الآن ولكنه مسجل فى مجموعة رسوم لبسيوس – يصور امرأة تلد تحت رعاية الإلهة « نيت » ربة سايس .
ومنذ الدولة الحديثة انتشرت فكرة « الحتحورات السبع » وهن أشبة بحوريات يرعين أى أم أثناء حملها وعند ولادتها . وقد نقشت صورهن على جدران بيت الولادة فى العصر اليونانى الرومانى .
وكان الإله « بس » يُعد حاميا للمرأة الحامل عندما تلد ويبعد عنها العين والحسد .



هوامش الفصل الثانى

١ – الملك زوسر ثانى فراعنة الأسرة الثالثة تذكر آخر الأبحاث أنه حكم مدة ١٩ عاماً (من ٢٦١٧ حتى ٢٥٩٩ ق.م) .

٢ – ينسب انشاء مدينة منف إلى الملك « منا » أول ملوك الأسرة الأولى . وكانت تسمى قبل عهد الملك « بيتى الأول » من الأسرة السادسة « بالقلعة البيضاء » أو الجدار الأبيض » ثم أطلق عليها منذ ذلك الحين « من نفر » والتى حرفها الاغريق إلى ممفيس . وكان اختيار هذا الموقع ذو أهمية كبرى لحكم الشمال والجنوب حيث تلتقى الدلتا بالصعيد .
وتقع أطلال منف عند قرية ميت رهينة الحالية بمركز البدرشين .

٣ – شهر أبيب : ويبدأ من ٨ يوليو إلى فرح السماء لأنهم كانوا يفرحون به لاعتقادهم أن حورس انتقم فيه لأبيه « أوزيريس » من « ست » . أى انتصار الخير على الشر أو الفيضان ضد التحاريق . ويقول المثل العامى حاليا : « أبيب ماء النيل يدب فيه دبيب » أى يزداد فيه ماء الفيضان المتدفق.

٤ – فصل « الشمو » هو الفصل الثالث فى العام ويوافق أشهر بشنس وبؤونه وأبيب ومسرى ويبدأ من فبراير حتى يونيو . وقد رمز المصريون له بعلامة « عنخ » أى أنه فصل « الحياة »
وفى وقت وضع التقويم الشمسى كان يوم رأس السنة الجديدة يقترن بظهور النجم « سوتيس » (سيريوس : الشعرى) فى اليوم الأول من شهر توت = ١٩ يوليو . وعلى ذلك فإن يوم ١٦ أبيب يأتى بعد ٣١٦ يوما من بداية السنة فإذا أضفنا هذا الرقم بعد ١٩ يوليو نحصل على ٣١ مايو وهو يوم ميلاد إيمحتب . وعلى أيه حال ، فإن السنة كانت تبدأ فى تواريخ مختلفة فى الأزمنة المختلفة ، أكثر من ذلك فإن الشهور لم تأخذ أسماءها المعروفة بها إلا فى العصر الفارسى ، ويمكن الرجوع الى مناقشة رائعة لهذه المشكلة فى كتاب جاردنر : قواعد اللغة المصرية

٥ – انظر هامش رقم ١ .

٦ – استبدل اسم والده « كانفر » باسم إلاله « بتاح » الذى اعتبر أنه والده الحقيقى .

٧ – هناك احتمال كبير أن « خردوعنخ » يعود وطنها الأصلى إلى حيث عثر على جزء تمثال حاليا فى متحف رودن Musée Rodin بباريس وهو منحوت فى أوائل العصر البطلمى

لكاهن يدعى فيلوت Philatas . ويوجه هذا الكاهن كلامه إلى ايمحتب قائلا : « أنا من أتباعك ، يا إبن بتاح ، يا من أنت مولود من « خردوعنخ » إبنة الكيسن ، سيد مندس » .
وكان اسم ايمحتب غالبا ما يذكر مقرونا باسم امه حتى بعد تأليهه . دون اسم أبيه كانفر الذى استبدل به إسم الاله بتاح .

٨ – يقع إقليم منديس : الى الشمال الشرق من مدينة السنبلاوين بمحافظة الدقهلية . عبد فيه الإله « آمون رع » على هيئة الكبش .

٩ – أرسطو : الفليسوف اليونانى الشهير ولد عام ٣٨٤ وتوفى فى ٣٢٢ قبل الميلاد .

١٠ – معنى إسمه « الذى يأتى فى سلام »
كلمة « حتب » دخلت فى تركيب عده أسماء فى اللغة المصرية مثل : بتاح حتب ، منتوحتب وأمنحتب .

١١ – كان الوزير أعظم رجل فى الدولة بعد الفرعون فمن أهم ألقاب إيمحتب أنه كان « الرجل الأول بعد الملك » . يشبه إلى حد كبير منصب رئيس الوزراء فى العصر الحديث . فكانت تعرض عليه جميع الأمور الهامة ، وله الاشراف على ادارة المحفوظات الملكية حيث كانت تحفظ المراسيم ، وتسجل العقود والوصايا وغيرها من المستندات الهامة .

١٢ – يوسف : المقصود هنا سيدنا يوسف نبى الله .

١٣ – شغل سيدنا يوسف منصب وزير الخزانة فقط .

١٤ – لم تصلنا معلومات كافية عن إيمحتب بوجه عام من عصر الملك زوسر .

١٥ – ولعل أشهر هذه الواجبات ما نراه مكتوبا على جدران مقبرة « رخميرع » وزير الملك تحتمس الثالث . وهى بالبر الغربى من طيبة .

١٦ – كان الوزير « مشرف على سجلات الملك » أو على « دور المحفوظات » وكان من ألقاب الوزير فى الدولة القديمة « كبير خمسة دار الإله تحوت » (إله الكتابة) .

١٧ – ظل لحملة الأختام دورهم فى شئون الدولة ، وهم أصحاب لقب « سجاوتى بيتى » ولقب « سجاوتى نثر » ، ويبدو أن اللقب الأول أصبح لقبا تشريفيا ، أو اقتصر مدلوله على أكثر تقدير على الشئون المالية ، بينما اتسعت اختصاصات اللقب الثانى ، وأصبح أصحابه ينظمون ويرأسون بعثات استثمار المناجم والمحاجر وبعثات التجارة البرية والبحرية والنهرية .

١٨ – من ألقاب الوزير « خادم العدالة » ومن خطاب الملك « تحتمس الثالث » من الأسرة الثامنة عشرة إلى وزيره « رخميرع » « ان الفصل فى القضايا لا ينقطع سببه ، وليتك تعمل حسب ما اقول فعندئذ تأوى العدالة إلى مثواها .. سلح نفسك ، وكن قويا فى العمل ، ولاتكل ، وناهض الشر » .

١٩ – أحيانا كان الميت المؤله يحتل قبل وفاته مركزا مرموقا كمنصب وزير الملك وأعظم موظفيه مثل « كاجمنى » من الأسرة السادسة ، ورغم ذلك لم يطلق عليه اسم إله ، وان كان شيئا قريبا من القديسين . وترك لنا العديد من الحكم والنصائح .

٢٠ – « بتاح حتب » : كان وزيرا للملك « إسيسى » (٢٤٧٦ – ٢٤٤٨ ق.م) من الأسرة الخامسة ، وقد إشتهر بمجموعة نصائحه وإرشاداته ، وهى تدعو إلى الحكمة والارشاد إلى السلوك المستقيم وقد إعتز بها المصريون فى كل عصورهم .

٢١ – نقشت هذه الأسطورة على لوحة فى جزيرة سهيل فى وسط الشلال الأول جنوب أسوان . والنص عبارة عن ٣٢ سطرا . وهو نموذج من العام الثامن عشر من حكم الملك زوسر من الأسره الثالثة بالرغم من ارجاعه الى العصر البطلمى من حيث الاسلوب واللغة وأهم دراسة لهذه اللوحه قام بها عالم الآثار الفرنسى بارجيه فى كتابه
P. Barguet, La Stèle de la famine à Sèhel, Le Caire, 1953.

٢٢ – هذه الأسطورة منقوشه على حجر جرانيتى فى جزيرة سهيل التى تقع جنوبى أسوان ، يقول نص الأسطوره على لسان الملك زوسر : « لابأس أن أعرفك ... أنا فى غم العرش العظيم وأولئك الذين فى العصر ، كانت قلوبهم فى حزن من شيء عظيم جدا ، طالما أن النيل لم يأت فى عهدى لمدة سبع سنوات ، والحبوب ناقصة والفواكة قد جفت ... » .

ويرجع هذا النقش إلى العصر البطلمى (٣٢٣ – ٣٠ق.م) ، ولكن الأسطوره تعود فى أصلها إلى الأسرة الثالثة . وبالرغم من أن الأسطوره قدمت من كهنه إيزيس فى زمن البطالمه كنوع من التأييد الشرعى لمطالب معينه إلا أن القصه قد تكون مع ذلك صحيحه ولو جزئيا على الأقل . وهناك نظرية أخرى تقول أن الأسطورة إصطنعها كهنة خنوم فى زمن البطالمة كى يثبتوا كرم الفراعنة الأقدمين توصلا للحصول على كرم مماثل من الفرعون الحاكم . والمعروف أن قصة مشابهة عن السنوات السبع العجاف وردت فى الكتب المقدسة .

٢٣ – كان خنوم إلها خالقا ، اشتق اسمه من فعل « خنم » بمعنى يخلق . كان يصور على هيئة رجل برأس كبش وأقامه عجلة الفخرانى يشكل عليها الطفل « والكا » الخاصه به

وكان منذ أقدم العصور إلها محليا فى منطقة الشلال الأول . ويكون فى الفنتين ثالوثا مع زوجتيه « عنقت وساتت » ومن ألقابه « سيد فيله » « وخالق البشر » وأب الآلهة منذ البداية» .

٢٤ – ومن الملاحظ هنا أن تعبير « زى رأس الايبس » يستخدم من باب المفارقة التاريخية ويدل على التاريخ المتأخر للأسطورة إذ أن إيمحتب لم يلقب بالايبس إلا بعد تأليهه . كما أن لقب « ابن بتاح » الذى منح لإيمحتب فى مناسبات مختلفة هو أيضا من قبل المفارقة التاريخية وتضره كذلك حقيقة أن أسطورة المجاعة فى الشكل الذى وصلتنا به ترجع إلى أزمنة البطالمة عندما أصبح الإله بتاح أبا مقدسا لإيمحتب . أما لقب بتاح « القائم فى سوره الجنوبى » فيرجع إلى أن معبد « بتاح » كان يقع فى ذلك الجزء من منف المعروف بإسم « السور الجنوبى » .

٢٥ – من ضمن ألقاب خنوم فى هذه اللوحة أنه « سيد الحقول » . وهو الإله المسئول عن الفيضان .

٢٦ – المقصود توسيع المنشآت الدينية الخاصة بالإله .

٢٧ – المجاعة الكبرى أو السبع سنوات العجاف .

٢٨ – أو كبير حكام الأقاليم .

٢٩ – ومن ألقاب إيمحتب « ماور » باعتباره « المتطلع إلى رب الشمس الكبير » .

٣٠ – هذا اللقب يشبه إلى حد كبير وزير الأشغال حاليا .

٣١ – أول بناء حجرى كامل فى مصر . ويقع هذا البناء على منحدر على حافة الصحراء إلى الغرب من منف .

٣٢ – ومسطح القاعدة السفلى ١٢٥ × ١٠٩ مترا مربعا .

٣٣ – ثبتت بلاطات القيشانى فى ملاط بثقبين صغيرين يمر فيهما خيط من الكتان أو الجلد ، ورصوا كلا منها إلى جوار الأخرى وقلدوا بها هيئة الحصير الفاخر المجدول الذين كانوا يتخذونه فى البيوت ستارا وزينة .

٣٤ – تضمنت سراديب الهرم وحجراته آلاف من الأوانى الحجرية بلغت مهارة صانعيها درجة عالية من الفن والرقة بحيث كانت سطوحها الخارجية تكاد تشف عن سطوحها الداخلية كأنها زجاج رقيق . وعثر فى مقابر أسرة الملك تحت هرمة على بقايا توابيت رائعة من الحجر الجيرى والمرمر المصرى .

٣٥ – شرع زوسر فى بداية حكمة فى بناء مقبرته على هيئة مصطبة فى بيت خلاف بالقرب من « أبيدوس » ، ثم لم يلبث أن تخلى عن هذا المشروع من أجل بناء هرمة الطموح فى سقارة .

٣٦ – احتل هذا الهرم مركزاً متوسطاً فى مجموعة معمارية كبيرة أحاطت به وشغلت معه مساحة تزيد على ٢٥١ ألف متر مربع . وأحيطت بسور ضخم كبير بلغ ارتفاعه نحو عشرة أمتار .

٣٧ – بعد هرم سقارة المدرج اجتاز المهندسون المصريون عدة تجارب فى بناء الأهرامات إلى أن وصلوا إلى هرم خوفو بالجيزة الذى يعد قمة العمارة فى بناء الأهرامات بدرجة تقرب من الكمال .

٣٨ – أهم هذه الحفريات تمت على يد المهندس الأثرى « لوير » بالاضافة إلى ما قام به من الترميمات وأعاد بناء المجموعة المعمارية . ومن الطبيعى أن يلاحظ القارىء أن هذا الكتاب وضع عام ١٩٢٨ عندما كانت هذه الحفائر فى بداياتها الأولى ، والآن قد تم التنقيب عن الكثير من الآثار الموجودة فى المنطقة ، ومنها السور المحيط بالهرم ودهليز الأعمدة وساحة « حب – سد » ومقبرة « الكا » على هيئة المصطبة وتمثال زوسر .

٣٩ – ويمتاز الهرم المدرج بما ألحق به من مبان وأهمها بهو المدخل والمقبرة الجنوبية ومعبد « الحب سد » أى (العيد الثلاثينى) والمعبد الجنائزى وسرداب التمثال . ومن حولها جميعاً سور عظيم على سطوحة الخارجية مشكاوات عميقة .

٤٠ – تضمن السور فى واجهاته ثلاثة عشر مدخلاً لم ينفتح منها غير مدخل واحد مفتوح على مصراعيه وبقيت المداخل الأخرى رمزية مغلقة .

٤١ – كانت هذه التنقيبات جارية وقت أصدار هذا الكتاب باللغة الانجليزية .

٤٢ – من طقوس دنيوية كفاعة احتفالات « الحب سد » وطقوس جنائزية .

٤٣ – يصف الملك « بطلميوس التاسع » فى أحد نصوصه التى نقشها حول الجانب الداخلى للحائط المحيط بالمعبد « أنه (أى الملك) يحمى المعبد بهذا الحائط فى جهاته الأربع ... وذلك حسب كتاب التعليمات الخاصة بالمعبد الذى أقامه كبير الكهنة إيمحتب العظيم ابن بتاح » .

٤٤ – لم نعثر على أى آثار لمعبد من الدولة القديمة فى إدفو ، ولكن عثرنا على بقايا سور من تلك الفترة .

٤٥ – خلد المصريون اسم « أمنحتب » من أيام بطلميوس السادس إلى بطلميوس الحادى عشر عدة مرات فى معبد إدفو .

٤٦ – بالاضافة إلى الدير البحرى والدكة ودابود .

٤٧ – كان الملك « دارا الأول » ثانى حكام الأسرة السابقة السابعة والعشرين الفارسية ولقد حكم من عام ٥٢٢ إلى ٤٨٥ قبل الميلاد .

٤٨ – كان هذا اللقب مع لقب المتطهرين يرجعان ويرجع إلى عقيدة الشمس فى مدينة « أون » وكان لقب « خادم الإله » تترجم فى العصر البطلمى « بالمتنبى أو النبى » يشيرون بذلك إلى أنهم يقومون بوظيفة تفسير ارادة الإله .

٤٩ – الكاهن « وعب » يعنى المتطهر .

٥٠ – حفظت لنا الخدمة فى سجلين رئيسين أحدهما يتكون من سلسلة الرسوم والنقوش المصاحبة فى عدة هياكل بمعبد « أوزوريس » فى أبيدوس ، والثانى يؤرخ بالأسرة الثامنة والعشرين ، ويعود إلى الإله آمون ونجده فى بردية هيراطيقية بمتحف برلين .

٥١ – كانت تبرم أحياناً عقود حقيقية بين مالك المقبرة وبين كاهنه الجنائزى وكانت شروط العقد تنقش على حوائط المقبرة أو على لوحة .

٥٢ – كان الكهنة المسمون « سم sem » يوجدون بين كهنوت آلهة معينين فقط ، ويبدو أنهم أقل نوعيات المهنة أهمية وهم صامتون تماماً وكان من واجبهم حمل وتقديم القرابين ورفع أذرعهم فى أوضاع محددة .

٥٣ – كان طقس « فتح الفم » يتكون من عدد من الطقوس القديمة فى أصلها والتى ذكرت أول اشارة لها فى بداية الأسرة الرابعة .
أول وصف متكامل لها فى حوزتنا يعود إلى الأسرة التاسعة عشرة .

٥٤ – غالباً ما كانت هذه الأغانى تتناقض مع معتقدات المصريين عن الحياة بعد الموت .

٥٥ – الكاهن المرتل Lector-Priest بالمصرية القديمة « خرى حبت *Khery-Hebet* » كان مسئولا أيضاً عن التحنيط .
ويلاحظ أن التفاصيل المذكورة فى النص تعود أساسا إلى الأسرة الثامنة عشرة ولكن معظمها بلا شك يرجع إلى أصل أكثر قدماً .

٥٦ – فى طقس « فتح الفم » بمقبرة « أمنمحات » وغيرها نجد أن الدور الرئيسى يقوم به الكاهن الملقب بـ « سم » ويقتصر دور الكاهن المرتل على التلقين . أنظر ..
A.H. Gardiner, *the Tomb of Amenmhat*, 1915 p.p 57 pp.

٥٧ – كانت التعاويذ تتلى بواسطة الكاهن المرتل أى القائم على كتاب احتفالات الأعياد .

٥٨ – لذلك فإن أداء الطقوس الجنائزية وصيانة المقبرة كان يعهد بها إلى أشخاص مستعدين بأن يهتموا بصالح الميت فى مقابل دخل يرصد من وقف جنائزى .

٥٩ – فى الواقع هو أعظمهم وأكبرهم تقديساً وشهرة .

٦٠ – كثيراً ماردها المصريون فى مقابرهم وكانت تنقش فوق رأس عازف القيثار الذى غالبا ما كان أعمى . وكانت تغنى كذلك فى الولائم التى يقيمها أهل الميت عند قبره . وقد وصلتنا فى بردية (هاريس ٥٠٠) المحفوظة بالمتحف البريطانى ، وكانت مكتوبة أيضا على جدران مقبرة الملك أنتف فى أوائل الأسرة الحادية عشرة أى منذ حوالى أربعة آلاف سنة فوق عازف قيثار . كما نراها مكتوبة فى مقبرة « نفر حتب » بطيبة فى الأسرة الثامنة عشرة .

٦١ – « حوردف » (أو حرجدف) أحد أبناء الملك « خوفو » ورد اسمه فى قصة خوفو والسحرة (بردية وستكار) وهو مشهور بالحكمة .

٦٢ – وهى نفس فلسفة عمر الخيام الشاعر الفارسى .

٦٣ – هناك عدة ملوك يسمون « الأنانفة » من الأسرة الحادية عشرة والمعتقد بصفة عامة أن « انتف » المشار إليه فى الأنشودة واحد منهم ، كما أن هناك سلسلة أخرى من الملوك يحملون أيضا إسم « انتف » من الأسرة السابعة عشرة ، ويعتقد « إرمان » أن الأنشودة تشير إلى واحد من هؤلاء لأن قواعدها وبناء جملها تتفق مع قواعد اللغة فى الأسرة السابعة عشرة أكثر من الأسرة الحادية عشرة إنظر :-

Erman, The literature of the Ancient Egypt, 1927, p. 133.

٦٤ – وهى ذات تفكير فلسفى خاص يدعو إلى الاستمتاع بالحياة ونبذ الهموم . ويذكر « هيرودوت » فى [الكتاب الثانى فقرة ٧٨] عادة غريبة لدى المصريين ، إذ يقول : « فى المآدب الاجتماعية التى يقيمها الأغنياء بمجرد أن ينتهى الحفل يأتى رجل يحمل نموذجا خشبيا لجثة فى تابوتها منحوتة ومدهونة بحيث تقترب من الحقيقة بقدر ما يمكن ، وطولها بين ذراع وذراعين ، ويقول وهو يعرضها على كل واحد من الضيوف « أنظر إلى هذه واشرب ، وامرح ، لأنك عندما تموت سوف تصبح مثل هذه » . ولكن قصة « هيرودوت » ليس لها ما يؤيدها ، والمحتمل أنها نشأت من سوء فهمه لصور المآدب المرتبطة بالموميات فى كثير من مناظر القبور ، ثم خلط « هيرودوت » بين المآدب الجنائزية ذات الغرض الدينى والمآدب الاجتماعية .

٦٥ – هذه الاشارة إلى تداعى جدران مقبرة « إيمحتب » لها مغزى خاص ، فبالرغم من أنه كان المهندس الشهير للملك زوسر إلا أن مقبرته قد اختفت تماما « كأن لم تكن بالأمس » .

٦٦ – استخدمت مادة الراتنج منذ عصور متقدمة جداً . وكانت العطور فى مصر القديمة تتألف على الخصوص من الزيوت والشحوم العطرية وكثيراً ما نص فى الكتابات المصرية القديمة ، وفيما خلفه عدة مؤلفين من اليونان والرومان على استعمالها . ومن الطبيعى فى جو حار كجو مصر أن توضع الشحوم والزيوت على الجلد والشعر . وهذه عادة شائعة حاليا فى السودان وجهات أخرى فى افريقيا . ويقول بلينى « إن مصر أكثر بلاد العالم جميعا صلاحية لانتاج الدهانات » .

٦٧ – أوزيريس ، إله الموتى .

٦٨ – وردت حكم « كاجمنى » و« بتاح حتب » فى بردية بريس المحفوظة الآن فى المكتبة الأهلية بباريس منذ عام ١٨٤٧ .

٦٩ – هو الملك « جد كارع إسيسى » (٢٤٧٦ – ٢٤٤٨ ق.م) الذى حكم عهداً طولا لم يقل عن ثمانية وعشرين عاماً . واهتم هذا الملك بتأمين حدوده واستغلال المناجم والمحاجر فأرسل حملة إلى بلاد النوبة وأخرى إلى وادى الحمامات . وحملات إلى جبل المغارة فى سيناء حيث تركت أربعة نقوش باسمه . ودفن الملك إسيسى فى هرم بسقارة القبلية وهو ما يسمى بالهرم الشواف .

٧٠ – فى هذه الفترة بدأت ظاهرة ثراء الفقراء مما أدى إلى الثورة الاجتماعية بعد الأسرة السادسة .

٧١ – مثل تعاليم « آنى وأمنموبى » .

٧٢ – يقع معبد دابود على الضفة الغربية للنيل بعد حوالى سبعة كيلو مترات جنوبى السد العالى . ولقد أهدته الحكومة المصرية إلى أسبانيا لتعاونها فى انقاذ آثار النوبة .

٧٣ – الملك بطلميوس الخامس « أبيفانيس » (الظاهر الكريم) ولد عام ٢٠٩ ق.م وارتقى العرش طفلاً عام ٢٠٣ ق.م وتوفى عام ١٨٠ ق.م. ويعتبر من أهم مصادر عصره نقش حجر رشيد الشهير الذى تضمن قرار مجمع الكهنة المصريين المنعقد فى مدينة منف عام ١٩٧ ق.م.

٧٤ – لارتباطه بالاله « تحوت » .

٧٥ – اطلق الاغريق على الأشمونين موطن الاله « تحوت » اسم « هرموبوليس بارفا » نسبة إلى الاله « هرمز » .

٧٦ – كان الاله « تحوت » فى الأصل إلهاً للقمر وحاسباً للوقت والكاتب الأول الذى علم البشر العلم والكتابة .

وتوجد إشارات كثيرة إلى الأدب الهرمسى فى زيته [إمحتب ص ٢٣] وهناك أسطرلاب إغريقى يرجع إلى عام ١٣٨م . يربط بين إيمحتب والإله « هرمس » كحجة فى الفلك .

٧٧ – كان رصد النجوم منذ عصور مصر الأولى من الوظائف الكبرى التى يتولاها الوزير وكبير الكهان فى عين شمس التى أتخذت اسمها أولاً من برج المرصد . فكان أن عرف المصريون كثيراً من النجوم وخصائصها . ورسموا الخرائط وعينوا مواقع النجوم من برج السماء ، حيث نجد مناظر لها فى سقف بعض المعابد والمقابر وأغطية التوابيت .

٧٨ – لاحظ المصريون أن أول بشائر الفيضان وظهور المياه الحمراء عند رأس الدلتا مع بزوغ نجم الشعرى اليمانية قبل الشروق ، وحسبوا ما بين بزوغها وعودتها للظهور بخمسة وستين وثلاثمائة يوما كانت عندهم أمد العام ، ثم جعلوا عدة الشهور اثنى عشر شهرا من أيام ثلاثين ، ثم أضافوا إليها خمسة أيام نسيىء .

٧٩ – لايوجد دليل معاصر لإيمحتب يثبت أنه كان طبيبا ، ولكن فى الحقيقة أنه أصبح نصف إله للطب فى عهد « منكاورع » بالأسرة الرابعة ثم عبد كإله كامل للطب فى العصر الفارسى وهذا يعد بمثابة قرينة قوية على أنه كان بارزا فى السحر والطب .

ولدينا دليل من المؤرخ المصرى مانيتون على أن إيمحتب كان طبيبا فى زمن « زوسر » ، هذا إذا قبلنا التعديل المقنع الذى أدخله زيته على عبارة « جوزيف » التى نقلها عن « مانيتون » . إذ أن عبارة مانيتون كما نقلها « جوزيف » تشير إلى أن الملك « زوسر » كان بارعاً فى الطب وكان ينظر إليه على أنه « اسكلبيوس » . واقترح زيته ان العبارة كانت فى الأصل تشير إلى إيمحتب الذى كان يعيش فى عصر الملك زوسر وكان بارعاً فى الطب ... إلخ . ولم يصل إلينا نص من عصره يؤكد هذه النظرية ، وإنما كل ما وصلنا حول هذا الشأن من عصور متأخرة .

وأخيرا فإننا فى أوراق « هرمس Hermetica » نجد أن إيمحتب يوصف بأنه « أول من اخترع فن العلاج » .

٨٠ – ولعل قيمة السحر فى مصر القديمة لا تبرز على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن المصريين كانوا يعتقدون منذ الحقبة الأولى من تطورهم أن كل شىء فى الطبيعة مشحون بقوة سحرية

وله قوة خفية . ومن الأساليب كذلك الالتجاء إلى الآلهة لطرد الأرواح الشريرة مثل ... « السلام عليك يا حورس ... يا أيها الموجود فى بلاد المئات ... ياحاد القرنين ، يا بالغ الهدف ... إنى قصدتك لأمدح جمالك ... الا فلتقض على الشيطان الذى يتملك جسدى » .

٨١ – كانت تلاوة التعاويذ مصحوبة بحركات معينة ، مرتبطة بشروط خاصة تتصل بموعد قراءتها ، وبكيفية هذه القراءة وبالأشياء التى تقرأ عليها ، وكذلك بطريقة إستعمال هذه الأشياء وبرداء القارىء وما ينبغى عليه من نظافة ... ثم أن بعض هذه التعاويذ أو العمليات السحرية كان يقرأ على نماذج من الشمع تمثل المريض أو العضو المصاب .

وكان السحر يزاول فى انجلترا حتى عهد قريب ، بل أنه لم يقض عليه قضاءاً كاملاً حتى اليوم .

٨٢ – تضم بردية « وستكار » قصة شعبية عن السحرة وأعاجيبهم تحكى على مسامع الملك « خوفو » لتسليته ، وتنسب هذه البردية إلى رجل يدعى « وستكار » كان قد إشتراها من أحد لصوص الآثار ثم أودعت فى متحف برلين بعد ذلك .

وتسمى هذه البردية فى بعض الأحيان « بقصة الملك خوفو والسحرة » وصيغت باللغة المصرية الحديثة التى ساد إستعمالها فى عهد الدولة الحديثة . وتتميز فى هذه القصة مرحلتان متباينتان :–

الأولى :– ما سرده أولاد الملك « خوفو » من قصص السحرة .

الثانية :– ما حكت من أمر الأطفال الثلاثة الذين سينتقل إليهم زمام الأمر فى البلاد خلال الأسرة الخامسة .

وهذه القصص كان الغرض منها أولا تسلية الملك « خوفو » وإدخال السرور على قلبه ، وانتهت فى مرحلتها الأخيرة بالدعاية لملوك الأسرة الخامسة . وأنهم من نسل الإله « رع » ، وهى فى جملتها تمجيد لفن السحر .

٨٣ – تعد بردية « إيبرس » هى المرجع الأساسى لمعرفتنا للطب المصرى القديم . وقد وصلت إلينا كاملة دون تشويه . وهى ترجع إلى عام ١٥٥٠ قبل الميلاد . وهذه البردية عبارة عن مجموعة من البحوث فى المواضيع الآتية :–

١ – توسلات الآلهة .
٢ – الأمراض الباطنية وعلاجها .
٣ – علاج لأمراض العيون .
٤ – علاج لأمراض الجلد .
٥ – علاج لأمراض الأطراف .

٦ – وصفات مختلفة .
٧ – أمراض النساء وعلاجها .
٨ – مؤلفان عن القلب والشرايين ، وهما المؤلفان الوحيدان اللذان وصلا إلينا فى علمى التشريح
وظائف الأعضاء .
٩ – الأمراض الجراحية وعلاجها .

٨٤ – على قاعدة تمثال فى المتحف البريطانى حاليا نجد تقويم الأعياد منحوتا ويصف بالتفصيل ستة أحداث هامة فى حياة إيمحتب . مولده من الإله « بتاح » و« خردوعنخ » ، وتقديمه أمام « بتاح » والإلهة « سخمت » . ثم هزيمة الآسيويين على يد « سخمت » (فقد كان لإيمحتب دور سحرى فى هزيمة الأعداء) ، كذلك مرضه وموته ثم تحنيطه ، وأخيرا تقديسه وتأليهه .

هذه التواريخ حسبت بالطبع طبقا للتقويم السائد فى تلك الفترة المتأخرة ، والواقع أنه فى زمن الأسرة الثالثة كانت الشهور والأيام لاتتطابق مع تلك المستخدمة فى العصر الفارسى وما بعده .

٨٥ – قد تكون هذه الصفة هى سبب اشتهار إيمحتب كطبيب بعد ذلك ، ثم إلها للطب .

٨٦ – كان كهنة « الخرحب » أى العلماء يقومون خلال الاحتفالات بتلاوة الصيغ الدينية القديمة . وهم كذلك يعرفون أسرار السحر ويمارسون هذا العمل بصفتهم أطباء كذلك .

٨٧ – كان الكشف عن مقبرة إيمحتب حلما طالما راود عالم الآثار الانجليزى « إمرى » . كما راود الكثيرين من قبل وعلى رأسهم الأثرى الانجليزى الشهير « فيرث » .

وبدأت فكرة الكشف عن المقبرة تراود « إمرى » منذ عام ١٩٣٦ . وقام بعمل بعض المجسات فى منطقة على بعد حوالى ٧٠٠ متر إلى الشمال مباشرة من هرم زوسر المدرج . ومما عثر عليه « إمرى » عدد من اللوحات الحجرية ، منها لوحة تؤكد صحة البحث فى هذا المكان ، وكانت بمثابة الباعث على الاستمرار فى الحفائر . فقد قدم هذه اللوحة صاحبها إلى جوار قربان منه ، عبارة عن صندوق من الخشب يحوى مومياء الصقر رمز الإله « حورس » ويقول فيها :-

« إلى الإله العظيم إيمحتب ، ابن الإله العظيم الذى يرقد فى هذا المكان مع الآلهة الآخرين ، محيطين بالاله إيمحتب ، تسطع أنوارهم عليه ، أطلب حمايتهم جميعا ، وشفاعتهم لى كمخلوق ضعيف أمام عدالة الآلهة طالبا الرحمة والغفران » .

وقد توفى « إمرى » عام ١٩٧٠ دون أن يتحقق أمله فى العثور على هذه المقبرة .

٨٨ – هناك فقرة فى أوراق هرمس Hermetica تشير إلى أن إيمحتب دفن فى التلال الليبية ، بالقرب من مدينة التماسيح (أرسينوى) بالفيوم . إذ يتحدث « هرمس » إلى تلميذه الذى يوصف بأنه حفيد إيمحتب قائلا :- « ان جدك اسكليبيوس ، أول من اخترع فن العلاج ، والذى كرّس من أجله معبد فى الجبل الليبى بالقرب من شاطىء التماسيح ، هناك يرقد الجزء المادى فى الانسان ، وهو الجسد . أما بقية الانسان أو بالأحرى كل الانسان – وهى الحياة الواعية – فقد عادت إلى السماء . وهو إلى اليوم يعطى للمريض بقوته المقدسة كل العون الذى تعود أن يعطيه له بفنه الطبى » .
انظر :-

W. Scott: Hermetica, I, p.p. 358-9, III p.p. 221, 223-4.

ولكن من المؤكد تماما تقريبا أن سقارة هى المكان الذى دفن فيه « إيمحتب » ، ومما لاشك فيه أن قبره يقوم بالقرب من الهرم المدرج الذى بناه لسيده « زوسر » ، طبقا لعادة قدماء المصريين .

كان الإغريق ينظرون إلى الديانة المصرية نظرة إجلال واحترام ، بسبب قدم عهدها وغموض أسرارها . ودرج الإغريق منذ عهد « هيرودوت » على تشبيه الآلهة المصرية بالآلهة الإغريقية .

وبوجود الإغريق فى مصر رأوا من الفطنة وأصالة الرأى كسب عطف الآلهة المصرية . ولذلك فإنهم عبدوا بعضها تحت أسماء إغريقية . وأوضح مثال على ذلك تشبيه « إيمحتب » « باسكليبيوس » إله الطب عند الإغريق . ولكن أعطوه إسما خاصا به وهو « إيموثيس » Imuthes وتقول إحدى النصوص الإغريقية :-

« سيقص كل لسان إغريقى قصتك ، وسيقدس كل رجل إغريقى ابن بتاح ، إيموثيس » .

٨٩ – هذا يوحى إلينا أن مهنة الهندسة كانت وراثية .

٩٠ – كان يذكر دائما إسم « خردو – عنخ » كأم إيمحتب مع الإله « بتاح » كأبيه .

٩١ – نقش لشكل إيمحتب مصحوبا – لأول مرة – بعائلته . حيث كانت تقف خلفه أمه على هيئة الإلهة حتحور ومن ألقابها « أم الإله ، المربية الجميلة خردو – عنخ » . وتقف خلفها زوجته ولقبها « أخت الإله رنبت نفرت » وهى تلبس علامة السنة (رنبت) على رأسها .

كانت أسماء إيمحتب ، وكانفر ، ورنبت نفرت شائعة أيام الدولة القديمة ، أما إسم « خردو – عنخ » فلا يظهر قبل العصر اليونانى الرومانى ، وتوجد لوحة محفوظة فى متحف برلين لشخص يدعى « إيمحتب » يرى فى صورة وهو يصلى أمام الإله

« أوزيريس » ، وفى صورة أخرى يصلى أمام « أوزيريس – أبيس » .
وهناك مقبرة مصطبة لرجل آخر يدعى « إيمحتب » كان موظفاً شهيراً عند أحد ملوك الأسرة السابعة . ويوجد « إيمحتب » آخر كان يحمل لقب « الكاتب الملكى » ولقب « طفل بيت الحضانة » كان يعيش فى طيبة فى عهد « أمنحتب الثالث » (حوالى ١٤١٠ – ١٣٧٥ ق.م.) ويوجد قبره فى طيبة .
وقد أصبح الاسم « أيمحتب » ونظيره الإغريقى « إيموثيس » شائعا فى العصر البطلمى . ويبدو أنه كانت فى مصر القديمة قلعة تسمى « بوابة إيمحتب » . ويقترح روجر أن هذه القلعة إنما بناها إيمحتب الشهير صاحب هذه الدراسة .

٩٢ – كتب « جريفث » يقول : « لم يكن التاريخ المصرى القديم ليخلو من العباقرة ، وهناك حكيمان هما إيمحتب مهندس الملك زوسر فى الأسرة الثالثة ، وأمنحتب بن حابو الحكيم الذى عاش فى عهد « أمنحتب الثالث » فى الأسرة الثامنة عشرة حصلا على شرف الألوهية . ويأتى « حر – ددف » ابن خوفو فى الأسرة الرابعة قليلا وراء هذين الحكيمين فى درجة التقدير وفاقت شهرته بعض الفراعنة .

٩٣ – هذا أمر مؤكد ولاحظ أن هذا الكتاب صدر بالانجليزية فى عام ١٩٢٨ ، وعلى ذلك فإن إشارة المؤلف إلى حداثة الإعتراف بمعاصرة إيمحتب لزوسر يجب أن تؤخذ فى هذا الإطار ، أى إنها تأتى متقدمة عن هذه الطبعة العربية بنحو ستين عاما .

٩٤ – كان ثالوث منف يتكون من « بتاح » الإله الرئيسى ، و« سخمت » الربة ذات رأس اللبؤه ، « ونفرتم » الإله الشاب الذى يضع فوق رأسه زهرة اللوتس وقد أخذ « إيمحتب » دور الإله « نفرتم » ابن الإله « بتاح » فى ثالوث منف .

٩٥ – « ماعت » إلهة صورها المصريون على هيئة سيدة رقيقة تعلو رأسها ريشة كانت رمزا لها . وهى فى الأساطير زوجة للإله « تحوت » وإبنة للإله « رع » . وهى ربة الحق والعدل ومن الآلهة الرئيسية التى تحضر محاكمة الميت فى العالم الآخر ، إذ توزن ريشة ماعت فى مقابل قلب المتوفى .
و« ماعت » فى مجمع الآلهة المصرى هى إبنة إله الشمس « رع » ، وزوجة الإله « تحوت » رب الحكمة .

٩٦ – « تحوت » فى الأصل هو إله القمر ، وحاسب للوقت ، والكاتب الأول الذى علم البشر العلم والكتابة ، وكان مركز عبادته مدينة الأشمونين .
و« تحوت » أو « جحوتى » باللغة المصرية القديمة ، ظهر أولا كإله القمر ، وأصبح رباً للحساب والتعليم بوجه عام ، كما ينظر إليه على أنه مخترع الكتابه ، ومؤسس النظام

الإجتماعى ، ومؤلف اللغات ، وهو أيضا الكاتب والمترجم والمستشار للآلهة ، وممثل الإله « رع » على الأرض . وقد تركزت عبادة « جحوتى » فى خمنو [وهى هرموبوليس باللاتينية والأشمونين بالعربية] إحدى مراكز المنيا ، ويرمز له بالطائر أبيس والقرد .

٩٧ – كان الثالوث المنفى فى الأصل يتكون من : « بتاح » كأب ، و« سخمت » كأم ، « نفرتم » إبنهما . ثم أصبح يتكون من « بتاح » ، و« إيمحتب » وأحيانا أمه « خردو – عنخ » .

٩٨ – **Oxyrhynchus Papyri** مجموعة ضخمة من لفائف البردى وجدت تحت أطلال وكيمان مدينة البهنسا (وهى بلده بمصر الوسطى فى محافظة المنيا ، كانت من مدن مصر الهامة فى أيام الفراعنة وعاصمة للإقليم ١٩ من أقاليم الوجه القبلى أطلق عليها اليونان إسم « أوكسيرينوكس » كانت بلدة هامة فى جميع العصور القديمة) وقد اشتغل فى كشفها أولا « جرنفل وهنت » (١٨٩٧ – ١٩٠٧م) . ثم مجموعة من الأساتذة الإيطاليين فى أوائل القرن العشرين .
وترجع هذه اللفائف إلى الفترة الممتدة من حوالى ٢٥٠ ق.م. إلى حوالى ٧٠٠ ميلادية وهى مكتوبة بصفة أساسية باللغتين الإغريقية واللاتينية ولكن بعضها بالديموطيقية المصرية والقبطية والعبرية والسريانية والعربية . وتحوى نصوصا دينية من العهدين القديم والجديد للمسيحية ، وأعمالا أدبية وشعرية لكتاب إغريق ورومان بعضها كان ضائعا ، كما تلقى الضوء على الحياة الفكرية والاجتماعية فى مصر تحت حكم الرومان .

٩٩ – ويعتقد عالم الآثار الألمانى « زيته » أن هذه الأسطورة والتى تسمى كذلك بلوحة المجاعة ، ترجع إلى عصر الدولة القديمة . ولكن اللوحة الأصلية تعرضت للتلف بفعل الزمن ، فأمر الملك « بطلميوس الخامس » بإعادة نقش النص من جديد فى جزيرة سهيل بأسوان .

١٠٠ – عثر على قاعدة هذا التمثال وهو محفوظ فى المتحف المصرى ، فى إحدى الحفائر بالقرب من مدخل بهو الأعمدة . ومن النقوش التى على قاعدة التمثال ما يمثل طائر « الرخيت » الذى يُرمز به إلى العامة من المصريين ، وقد مثل ثلاث مرات بجناحين متشابكين ، أبدع الفنان تمثيلهما . وتتضمن النقوش الهيروغليفية إسم الملك « نترخت » (زوسر) وإسم إيمحتب .

١٠١ – فوكار من الأثريين الفرنسيين فى أواخر القرن الماضى .

١٠٢ – هذه آراء قديمة ثبت عدم صحتها .

هوامش الفصل الثالث

١ – هذه الظاهرة باقية حتى الأزمنة الحديثة ، وتتمثل فى اضفاء هالة شبه دينية على هؤلاء الأشخاص المتميزين ، فيرتفعون إلى مرتبة القديسين فى الحضارة المسيحية ومرتبة الاولياء فى الحضارة الاسلامية .

٢ – لذلك كان الشكل المعتاد لتماثيل « إيمحتب » هو أن يجلس مرتديا مئزرا طويلا (لباس الكهنة) ويضع على حجره لفافة بردى مفتوحة كرمز للرجل الحكيم والقارىء . ولقد كرس له رجل يدعى « واح إيب رع » تمثالا من البازلت حالياً فى متحف اللوفر وكتب عليه : « تقدم قطرات من الماء من محبرة كل كاتب لروحك يا إيمحتب » .

٣ – راجع : Grenfell and Hunt, Oxyrhynchus Papyri, Part XI (1915) pp.221 ff.
والبردية المشار اليها (وهى تحمل رقم ١٣٨١) منسوخة عن بردية سابقة أقدم منها وجدت فيما يبدو فى معبد إيمحتب فى زمن « نختانبو الثانى » (٣٦١ – ٣٤٣ ق.م) وقد تختلف الأراء فى مدى حجتيها كوثيقة تاريخية ، إذ علينا أن نقبل بتحفظ الزعم بالقدم الشديد للاشياء ذات الطبيعة الدينية خاصة أنه أثناء العصر الصاوى كانت هناك رغبة شديدة فى الرجوع إلى الماضى أدت إلى انتاج وثائق دينية تؤله الفراعنة الأقدمين . ومع ذلك يقول « جرينفل وهنت » أن الوثيقة على أية حال تؤيد وجهة النظر القائلة بأن عبادة إيمحتب بدأت منذ أقدم العصور فى التاريخ المصرى . وقبل اكتشاف هذه الوثيقة كان المعتقد لدى « إرمان » وغيره من علماء المصريات أن إيمحتب بلغ مرحلة نصف الاله فى زمن الدولة الحديثة أى حوالى عام ١٥٨٠ ق.م .

٤ – معنى ذلك إن عبادة إيمحتب كنصف إله بدأت حتى قبل عصر « منكاورع » .

٥ – لم أجد تعبيرا أدق من « النوم الشفائى أو العلاجى » لترجمة كلمة in cubation فى الأصل الانجليزى ، والتى ترجمتها الحرفية فى القاموس : دور الحضانة أو الفترة بين الاصابة بالمرض وظهور اماراته . وعلى أية حال فالمقصود بالتعبير أن يقضى المريض ليلة أو أكثر فى المعبد حتى يحل به الشفاء .

٦ – تقول بردية البهنسا أن الملك « نقتانيبو الثانى » اهتم اهتماما كبيرا بقصة إيمحتب حتى أنه أهدى ذلك الإله ثلاثمائة وثلاثين أرورا (حوالى ٢٤٧ فدانا) من الأراضى المزروعة قمحاً ، وذلك بصفة خاصة لأنه سمع كما تقول البردية أن الملك القديم « منكاورع » كان يعبد ذلك الاله بتكريم بالغ

٧ – فى بلاد الاغريق كانت هناك اختلافات واضحة من حيث الزمان والمكان والطبيعة بين عبادة الأبطال أو أنصاف الآلهة وعبادة الآلهة الكاملة ، فبالنسبة للأبطال كانت مراسم التضحية تتم فى المساء أو الليل ، على مذابح منخفضة ولاتستخدم فيها سوى ذكور الحيوان ذات اللون الأسود . أما مراسم التضحية للآلهة الكاملة فكانت تجرى فى وضح النهار على مذابح مرتفعة حيث توجه رءوس الحيوان إلى السماء بدلا من أن توجه نحو الأرض فى حالة الأبطال .

٨ – أنظر هامش رقم ٢ .

٩ – توجد بردية فى متحف اللوفر (رقم ٣٢٢٩) تحوى صيغاً وتعازيم لأحداث الأحلام .

١٠ – عاش « آنى » فى الدولة الحديثة وان كانت كتاباته قد وصلت الينا من نسخة نقلها تلميذ من تلامذة الأسرة الثانية والعشرين . وهى نصائح « آنى » إلى إبنه « خنسو حتب » .

١١ – من الجمل الأدبية التى كانت شائعة فى مصر القديمة الزعم بأن المؤلفات الدينية أو الأدبية قد عثر عليها فى المعابد ، وتعود إلى أزمنة قديمة وذلك من أجل أن تزيد قيمتها وأهميتها ، ومن الأمثلة على هذا التقليد : (١) البردية الجنائزية التى تعود إلى العصور المتأخرة والمحفوظة فى المتحف البريطانى تحت رقمى ١٠٠٨١ و١٠٢٥٥ عليها ملاحظات بالحبر الأحمر تقول أن محتوياتها نقلت عن رق جلدى من عصر « أمنحتب الثالث » عثر عليه فى معبد « أوزيريس » بأبيدوس (٢) الفصل ٦٤ من كتاب الموتى عليه ملاحظة بالحبر الأحمر يقول أن « حرددف » عثر عليه فى Chemmis تحت قدم تمثال الاله فى حكم « منكاورع » (٣) بعض الفقرات فى بردية ايبرس الطبية تعزى إلى ملك من الأسرة الأولى ويقال أن النص عثر عليه تحت أقدام تمثال « أنوبيس » .

١٢ – حمى الملاريا التى تعاود المريض على فترات كل أربعة أيام واسمها العلمى Qurtan ague .

١٣ – للحصول على التفاصيل الكاملة يجب الرجوع إلى ترجمة جرنفيل وهنت وهناك أيضا ملخص ممتاز للقصة فى مجلة « لانست » ١٩١٥ ، المجلد الثانى ، ص ١٢٠٤ .

١٤ – Oxyrhynchus Papyri, Part XI (1915) p.p.224, 229, 231
وفى هذه المخاطبة نجد ألقابا جديدة قد أضفيت على ايمحتب منها « حامى الأطباء » و« مقتفى أثر الفضيلة » و«حامى الذين يركبون البحر » .

١٥ – لاحظ ان وضع « هيفايستوس » هنا معادلا لبتاح يدل على التأريخ المتأخر للبردية .

١٦ – يوجد فى متحف القاهرة تمثال (رقم ٣٨٠٦٣) لكاتب يضع لوحة أقلام على ورقة البردى بالقرب من اليد اليسرى .

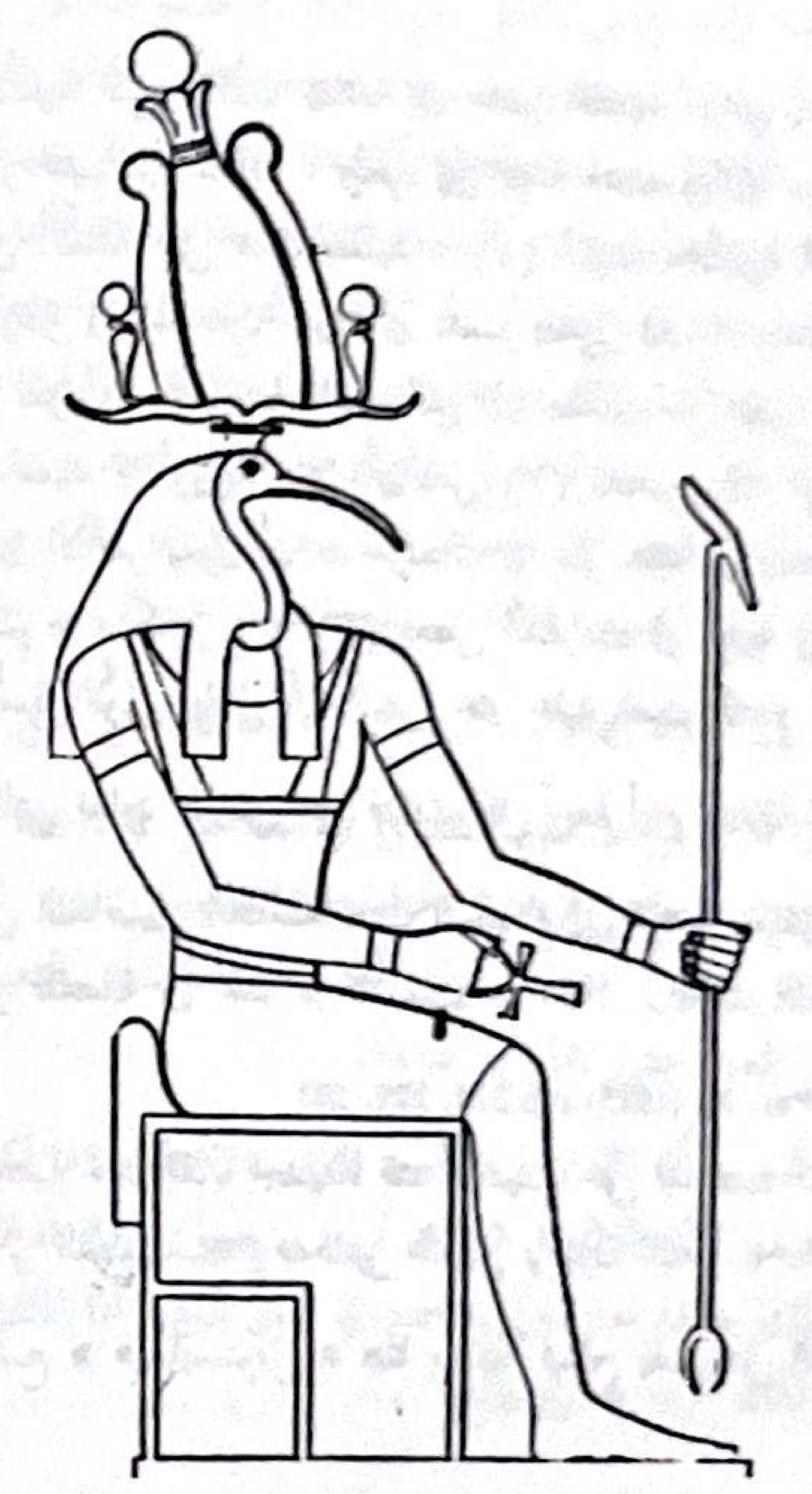
١٧ – يوجد تمثال لإيمحتب مصنوع من البازلت ارتفاعه ٤٥ سنتيمترا (حوالى عام ٦٦٠ ق.م) محفوظ بمتحف اللوفر .

١٨ – لما كان « إيمحتب ينظر اليه كاله للعلم والحكمة لذلك أصبح مرتبطا بالحيوانات المقدسة « لتحوت » وهى الايبس والبابون . وفى الأزمنة المتأخرة اكتسب إيمحتب صفات « تحوت » بصفته « كاتب للآلهة » .

١٩ – أنظر كلا الهامشين « ٢ ، ٨ » .

٢٠ – عالم الآثار الالمانى الذى سبق ذكره .

٢١ – ظهر هذا واضحا فى النقوش الحائطية بالمعابد ، ولم يظهر فى تماثيل ذلك العصر .



هوامش الفصل الرابع

١ – اعتبر « مانيتون » الأسرة السابعة والعشرين مكونة من ملوك الفرس الذين اتصلوا بمصر . ونحن نعلم أنه بعد استقرار الحكم الفارسى فى مصر قام « قمبيز » ببعض الأعمال العدائية التى جعلته مكروها من المصريين ، وتحدث « هيرودوت » عن هذه الأعمال ووصفها بأنها كانت من عمل الشيطان . فقد قطع الجزء الأكبر من ايرادات المعابد عنها ، ولم يستثن من هذا الأمر سوى ثلاثة معابد سمح لها بأن تبقى على ايراداتها المعتادة دون تخفيض . ونحن نعرف أن « قمبيز » أمر أثناء اقامته بالعاصمة « سايس » بعمل تحقيق شامل عن الأسباب التى جعلت مدرسة الطب الملحقة بمعبد الإلهة « نيت » ربه سايس – فيها تواجه عقبات كادت تمنعها عن أداء رسالتها ، وفى آخر الأمر سمح لهذا المعبد أن يحصل على ايراداته القديمة دون أن يشملها التخفيض . وهذا الحادث سجل مفصلا على تمثال رجل اسمه « أودجاحور » كان قد اصطحبه الملك « دارا » الفارسى معه إلى بلاد عيلام ، ولم يلبث أن أرسله مرة أخرى إلى « سايس » ليعيد تنظيم « مدرسة الطب السالفة الذكر والملحقة بمعبد « نيت » . والتمثال الذى نقش على جوانبه هذا النص الطويل محفوظ الآن بمتحف الفاتيكان .

٢ – يعرف هذا العصر بالعصر الصاوى أو الصائى نسبة إلى « صا الحجر » بمحافظة الغربية وقديما كان اسمها « سايس » . ولقد أسس هذه الأسرة الملك « بسماتيك الأول » الذى حرر مصر من الآشوريين .

٣ – كان هذا الثالوث يضم قديما الآلهة « بتاح وسخمت ونفرتم » ثم حل « إيمحتب » محل « نفرتم » .
ومن الجدير بالملاحظة أن أعضاء هذا الثالوث جميعا – « بتاح وسخمت وإيمحتب » – كانوا آلهة للشفاء . وكان « بتاح » وهو واحد من أقدم الآلهة المصرية مشهورا بمعجزات الشفاء التى كانت تتم فى معبده بمنف فى حين أن « سخمت » كانت معبودة للكهنة الذين يزاولون السحر وبعضهم كان يتسمى باسمها .

٤ – تعد حالة إيمحتب من الحالات العديدة التى حدث فيها اندماج بين الآلهة الاغريقية والآلهة المصرية تحت تأثير الهيلينية . بل يعتقد البعض أن تأليه إيمحتب إنما يرجع إلى النفوذ الهيلينى .

٥ – المقصود بإله الحائط الجنوبى هو الإله « بتاح » . حيث أن الحائط الجنوبى إسم من أسماء مدينة منف .

٦ – عالم آثار أمريكى .

٧ – السرابيوم أو مدفن العجول المقدسة عبارة عن ممرات طويلة يبلغ طولها قرابة نصف كيلو متر منحوتة فى باطن الجبل ، وتتفرع منها حجرات جانبية . وهو يقع فى أقصى غرب منطقة سقارة الشمالية ؛ ولقد قام « ماريت » بإكتشافها عام ١٨٥٠ .

٨ – « مراسم التحفيظ » اسم اعطاه « ماسبيرو » لنص جنائزى يرجع إلى الحقبة « اليونانية الرومانية » . وهو مكتوب على ورقتى بردى . أحداها فى متحف القاهرة وتعرف باسم (بردية بولاق رقم ٣) والأخرى محفوظة فى متحف اللوفر بباريس تحت رقم ٥١٥٨ .

٩ – بعد أن ذكر النص أن المتوفى يرى الإله « آمون » يستمر مخاطبا المتوفى قائلا له : « إن روحك سوف تتحد مع الإله إيمحتب بينما أنت فى وادى الجنازة ، وان قلبك سوف يبتهج لأنك لن تذهب إلى حيث يقبع الإله سبك ، ولأنك سوف تكون مثل الابن فى منزل أبيه ، وتفعل ما يطيب لك فى مدينة طيبة » .

١٠ – كنموذج لذلك تقديس « كاجمنى » فى نهاية الدولة القديمة ، فنجد أفرادا من أتباع عقيدته – يحملون جميعا اسم « جمنْ » وهو أختصار « كاجمنى » – يبنون مقابرهم حول مصطبته قرب منف . ورغم ذلك لم يطلق عليه لفظ إله ، وربما كان شيئا قريبا من القديسيين . وهناك عقيدة وزير آخر من نفس العصر هو « إزى » أو « إسى » كانت منتعشة لعدة قرون بعد وفاته فى مدينة إدفو ، حيث يحتمل أنه قد أمضى بها بقية عمره وحيث دفن . وقد أقام العديد من أتباعه لوحات مكرسة . بإسمه أو شيدوا هياكل جنائزية فى قبره ووجهوا صلواتهم إليه وإلى الإله « حورس » رب إدفو ، وإلى أوزيريس داعين إياه « إيزى الإله الحى » ، وإن لم يكن لدينا دليل على استمرار عبادته فى عصر الانتقال الثانى . هذا بالإضافه إلى تأليه « أمنحتب بن حابو » وزير الملك « أمنحتب الثالث » .

١١ – أدمج الإله إيمحتب فى بعض الأوقات مع آلهة شفاء أخرى مثل « حربوقراط » فى طيبة ، و« خنوم » فى إلفنتين . ومن المثير أيضا أن نجده قد امتزج مع « أشمون » إله الشفاء الفينيقى .

١٢ – أوضح عالم الآثار الألمانى « زيته » فى مؤلفه عن « إيمحتب » أن أقدم نقش يشير إليه كإله ، يوجد على تمثال لأحد كهنته ويدعى « أمازيس » [محفوظ حاليا فى

متحف برلين تحت رقم ١٤٧٦٥] ويرجع إلى العصر الفارسى . ويقول النقش الموجود على التمثال إن الجد الأكبر للكاهن « أمازيس » الذى كان يدعى « نفر إيب رع » كان يشغل منصب الكاهن الثالث فى معبد « إيمحتب بن بتاح » . وهذا الجد « نفر إيب رع » ذُكر مقترنا بالملك « بسماتيك الثانى » . وعلى ذلك فإنه قد ولد على الأقل أثناء حكمه ويستخلص « زيته » من ذلك أن عبادة إيمحتب كإله إنما ترجع إلى عصر الملك أمازيس . ويؤكد « زيته » كذلك أن دفع إيمحتب إلى مرتبة التأليه كان عمليه تدريجية لم يصحبها أى احتفال بعكس ما حدث فى حاله تأليه الاسكندر الاكبر عند زيارته لمعبد آمون حيث أقيمت مراسم واحتفالات واسعة .

K. Sethe, **Imhotep-Der Asklepios der Aegypter, (UGAA II14)**, Leipzig, 1902.

١٣ – هذا مظهر نادر من مظاهر الإله حورس .

١٤ – تظهر أحيانا برأس حية . ولقد ورد ذكرها فى نصوص التوابيت (فقرة رقم ٦٢٢) .

١٥ – كان الرمز الهيروغليفى لكلمة طبيب مكون من قنينة ومشرط فقد كان الطبيب يعد الأدوية بنفسه .

١٦ – كانت هناك مدارس طبية أخرى فى طيبة وسايس وأون (هليوبولس) وكان الكاهن الاكبر فى سايس يحمل لقب « أعظم الأطباء » .

١٧ – من الغريب أن منف رغم أنها كانت من أكثر عواصم العالم القديم ازدحاما بالسكان وامتلاء بالمعابد الهامة قد تعرضت لخراب هائل بحيث أن موقع المدينة نفسه ظل مجهولا قرونا عديدة ، واليوم لا تبدو فيها سوى خرائب لا شكل لها وأكوام من الأطلال بين أشجار النخيل والحقول . ومن أشهر معابدها معبد بتاح (هيفايستوس) الاله الحامى للمدينة ، ومعابد أنوبيس وإيمحتب وسيرابيس وأبيس وحتحور . وهذه المعابد ومنها معبد إيمحتب دمرت على نطاق واسع بمقتضى أمر ثيودوسيوس (٣٨٠ م) بتدمير رمز الوثنية .

١٨ – فى أوراق البهنسا – الجزء ١١ (١٩١٥) صفحة ٢٢٢ . نقرأ عن وجود معبد لإيمحتب كان قائما فى زمن الملك « منكاورع » ، ولاشك أن هذا المعبد كان مجرد مزار صغير بالقرب من مقبرة إيمحتب حيث كان يعبد فيه كنصف إله ، كما ذكر أن نفس الملك قدم أموالًا وفيرة لمقبرة إيمحتب – الاسكلبيوس – إبن هيفايستوس (فولكان) كما تذكر البرديات أن الملك نختانبو الثانى بعد ذلك بسنوات عديدة أهدى الأسكلبيون ٣٣٠ أرورا من الأرض المزروعة قمحاً .

وتورد بردية هاريس العظيمة الموجودة الآن فى المتحف البريطانى والتى تعود إلى زمن الملك « رمسيس الرابع » من الأسرة العشرين قائمة بالأوقاف الواسعة التى كانت تملكها المعابد المصرية فى تلك الفترة .

١٩ – السرابيوم هو مدافن العجول المقدسة . وقد كان العجل « أبيس » بمثابة الرمز الحى للإله « بتاح » معبود منف والذى أصبح أب الإله إيمحتب .

٢٠ – « عشتارت » إلهة آسيوية قدمت إلى مصر خلال الأسرة الثامنة عشرة وصورها المصريون على هيئة إمرأة برأس لبؤة يعلوه قرص الشمس . وكانت تمثل وهى تقف فوق عربة حربية تجرها أربعة جياد . ومن ألقابها « سيدة السماء » و« سيدة الخيل والعربات » .

٢١ – بطلميوس السابع « نيوس فيلوباتور » (المحب لأبيه الجديد) أنجبه بطلميوس السادس من كليوباترة الثانية .

٢٢ – يوجد فى متحف القاهرة صندوق نذور مأخوذ من معبد « اسكلبيوس وهيجيا » فى مدينة « بطلمية » Ptolemais كان مخصصاً لتلقى تبرعات العباد . وصناديق النذور هذه كانت شائعة الاستخدام فى المعابد المصرية فى العصر اليونانى الرومانى ، والصندوق الموجود فى متحف القاهرة تحيط به رأس أفعى كرمز بلاشك للدور الهام الذى كانت تلعبه الحيات فى مراسم عبادة اسكلبيوس .

٢٣ – هذا النص الاغريقى له أهمية تاريخية خاصة لأنه هو الذى جعل « هنرى سالت » القنصل العام البريطانى فى مصر يلفت الأنظار إلى معبد إيمحتب فى فيلة ، وبالتالى اكتشاف إله الطب المصرى . وقد أعلن ثالث اكتشاف فى خطاب مؤرخ بالقاهرة فى ٢٦ ابريل ١٨٢٢ وفيه يقول « فى فيلة .. وجدت وأكتشفت واجهة معبد صغير تحمل نقشاً باللغة الاغريقية يثبت أن هذا المعبد مكرس بواسطة بطلميوس إبيفانس للإله أسكلبيوس » .

٢٤ – تنطق كذلك « حوت عات » وتعنى قلعة أو معبداً كبيراً .

٢٥ – هذا يدل على المكانة العظيمة التى حظى بها إيمحتب فى هذه العصور .

٢٦ – « أرسينوى » هو الاسم الذى عرفت به عاصمة الفيوم منذ أواخر عهد الملك « بطلميوس الثانى » عام ٢٨٣ – ٢٤٦ قبل الميلاد . واجلالا وتقديرا لزوجته واخته « أرسنوى » الثانية وهى التى أطلق اسمها فيما بعد على الفيوم بأكملها فأصبحت

تعرف « آرسينويتس » بعد آن كان الاغريق يطلقون عليها اسم « البحيرة » وقد كان الاسم المصرى القديمة لعاصمة الفيوم هو « شدت » .
ولما كان التمساح هو معبود هذه المنطقة ، فإن الاغريق أطلقوا على هذه المدينة أصلا اسم « كروكود يلوبوليس » أى مدينة التماسيح .

٢٧ – المقصود معبد بتاح بالكرنك .

٢٨ – نرى نقوشا للملك بطلميوس الحادى عشر وهو يتعبد « لبتاح وحتحور وإيمحتب » .

٢٩ – نجد أن المنظر الذى على اليمين يمثل موكب الآلهة وقد تقدمهم « أمنحتب بن حابو » وعلى اليسار نجد موكباً آخر للآلهة يتقدمهم إيمحتب .

٣٠ – الغنوصية مذهب يقول بأن المادة شر وان الخلاص يأتى عن طريق المعرفة الروحية ، وقد انتشر هذا المذهب فى العالم اليونانى الرومانى خلال القرن الثانى الميلادى وهاجمه رجال الدين المسيحى المبكرون . ويشتق المذهب اسمه من الكلمة الاغريقية gnosis ومعناها « المعرفة ذات الطبيعة الروحية » ، ويشار إلى الغنوصية أحيانا باعتبارها مذهب المادية فى المسيحية ، وقد ازداد اهتمام الباحثين بهذا المذهب نتيجة لاكتشاف مكتبة غنوصية كبيرة بالقرب من نجع حمادى فى منتصف هذا القرن .

٣١ – أى إلى الجنوب الغربى من المعبد الجنائزى للملك « أمنحتب الثالث » .

٣٢ – أقيم معبد دير المدينة تكريما لإيمحتب وأمنحتب بن حابو . وهو يقع فى البر الغربى بالأقصر على بعد حوالى نصف ميل غرب معبد الرمسيوم .

٣٣ – تعود كل معابد النوبة التى نقش على جدرانها الإله إيمحتب إلى العصر اليونانى الرومانى .

٣٤ – G. Maspero: **Popular Stories of Ancient Egypt, 1915, p.p 144 ff.**

٣٥ – F. Ll. Griffith; **Stories of the High Priests of Memphis, 1900 P;P. 42, 143**
والقصة الأصلية واردة فى البردية DCIV المحفوظة بالمتحف البريطانى ، وهذه القصة مكتوبة بالديموطيقية على ظهر وثيقة بردية تحوى كتابات رسمية باللغة الاغريقية ، وترجع إلى السنة السابعة من حكم القيصر كلوديوس (٤٦ – ٤٧م) .

٣٦ – هذه الصيغة معتادة فى مراسم النوم العلاجى المصرى .

٣٧ – هذه اشارة تستحق الانتباه عن استخدام التمائم ، والتميمة عبارة عن شكل أو حلية لها قوة سحرية ويرتديها الشخص لتحفظه من المرض أو سوء الحظ .

٣٨ – تفاصيل هذه القصة واردة فى لوحة شهيرة من العصر البطلمى ، وهى محفوظة الآن فى المتحف البريطانى .

٣٩ – كان أداء الطقوس الجنائزية وصيانة المقبرة يعهد بها إلى أشخاص مستعدين أن يهتموا بصالح الميت ، وفى كثير من الحالات كان هؤلاء الأشخاص هم أبناء صاحب المقبرة ، الذى كان عليهم صيانة المقبرة واجراء الطقوس الجنائزية المتعلقة بتقديم قرابين الخبز وسكب الماء أمام تمثاله .

٤٠ – لم يكن النوم العلاجى قاصراً على معابد إمحتب ، فمثلا فى معبد مدينة هابو كانت تحدث معجزات أثناء النوم العلاجى بواسطة « تحوت » عندما يهبط على المعبد كل ليلة فى شكل الطائر إيبس .

٤١ – حفظ الزمن نماذج من مثل هذه الوثائق وهى محفوظة الآن فى مختلف المتاحف .

٤٢ – مثل المكتبة التى كانت موجودة فى معبد إدفو ، والتى يمكن اعتبارها نموذجا لمكتبات المعابد ، حيث نرى قائمة بأسماء الكتب منقوشة على جدران المعبد .

٤٣ – إن أهم اللفائف التى اكتشفت حتى اليوم ثمان ، وقد أطلق عليها أسماء : كاهون ، وإدوين سميث ، وإيبرس ، وهيرست ، وبرلين ، وبتى ، ولندن ، وكارلزبرج . وهناك مخطوطات أخرى فى مجموعات فردية مثل برديات جوتكيرز وليدن ، ووستكار ، وهى لفائف ثانوية . وتقع كل مجموعة من أوراق البردى فى لفائف أفقية يتصفحها القارئ من اليمين إلى اليسار .

٤٤ – كان للالهة « إيزيس » دور كبير فى الشفاء بالسحر حتى أنها لقبت « بالساحرة » .

٤٥ – ولد جالين فى عام ١٣١ م .

٤٦ – عاش ديوسفوريدس فى القرن الأول الميلادى .

٤٧ – لعل استعمال العقاقير يعتبر مثلا طيبا لتأثير النظريات الدينية على الطب . وكانت معلومات الكهنة فى الكيمياء تسمح لهم بتجهيز الكثير من العقاقير كالمراهم وغيرها . وكانت العقاقير تتكون غالبا من مواد معدنية ونباتات ومواد حيوانية .

٤٨ – كانت أغلبية الوصفات مركبة من أصناف عدة ومكونة من القاعدة أى الجوهر الفعال مضاف إليه المصحح corrective والسواغ excipient .

٤٩ – أنظر هيردوت : ٢ : ٩٤ . ولكن بالرغم فى أن العديد من الكتاب الكلاسيكيين ذكروا هذا الاسم المصرى لزيت الخروع إلا أنه لم يعثر عليه فى أى نص هيروغليفى أو هيراطيقى .

٥٠ – تعد بردية « إيبرس » هى المؤلف الأساسى لمعرفتنا الطب المصرى القديم . وقد وصلت إلينا كاملة دون أى تشويه . وهى ترجع إلى عام ١٥٥٠ قبل الميلاد من عهد الملك « أمنحتب الأول » .

٥١ – لا يخفى أنه كان للطب المصرى شهرة ذائعة فى البلاد الأجنبية إذ ذكر « هيرودوت » أن « قورش » و« دارا » هدفا إلى مصر للبحث عن أطباء ماهرين . وقال « بلينى » إن المصريين كانوا يفتخرون بأنهم أول من أوجد علم الطب .
وقال أيضا « هوميروس » فى الأوديسة . ان مصر بلد خصبة تخرج أرضها العقاقير الكثيرة التى لا يمكن احصاؤها فمنها النافع ومنها الضار . وبها أطباء يمتازون عن غيرهم بمعارفهم الواسعة .
ويقال أن كلمة كيمياء ترجع إلى أصل مصرى وهو « شيما » الذى كان مستعملا فى مصر القديمة ويرجع البعض أصل كلمة pharmacy إلى كلمة (ph-arma-ka) التى اكتشفت منقوشة على تمثال للاله تحوت ، والتى تعنى « الذى يمنح الصفاء » .

٥٢ – ومن عقائدهم أن الاله « رع » اعترته يوما آلام شديدة فصنع له المعبود « حورس » تمثالا صغيرا على هيئة الالهة « إيزيس » وانه بهذا التمثال وبمساعدة تأثير السحر المأخوذ عن معبودات مدينة عين شمس توصلت الآلهة إلى دفع الآلام عن « رع » . ومع ما ذكر عن السحر كان يوجد عندهم أطباء لا يعتقدون فى تأثير السحر ، ومن ثم كانت العزائم أى التراتيل السحرية فى بعض البرديات الطبية نادرة كبردية « إيبرس » .

٥٣ – نظرا لكون الطب المصرى يشمل الفحص وتحضير الدواء فكان يتحتم على الطبيب معرفة علم النبات وخواص كل نبت ليدرجه فى الدواء اللازم . وقد ورد إلينا وصف لبعض النباتات الطبية فى بعض البرديات مثل بردية « ايبرس » .

٥٤ – كانت رحلات « تحوتمس الثالث » إلى سوريا غير مطبوعة بالطابع الحربى فقط بل إنها كانت مطبوعة أيضا بطابع آخر . فقد أصدر « تحوتمس » أوامره إلى رجاله بأن يدخلوا إلى مصر كل ما يجدونه صالحا من حيوانات أو فواكه أو نباتات ، حيث نقش الكثير منها على جدران احدى القاعات التى بناها فى معبد الكرنك . ونعرف أنه كان ضمن ما أدخلوه إلى مصر فى ذلك الحين الدجاج والرمان .

٥٥ – وصل إلينا تصوير جميل لعدة آلات جراحية على جدار معبد كوم أمبو . وكذلك تزخر المتاحف بآلات لهذا الغرض منها المخالب والمقصات والمشارط والابر .

٥٦ – مثل الدواء الموصوف لعلاج الأمراض الباطنية فى بردية « إيبرس » وكذلك وصفات لأمراض العيون والجلد وأمراض الأطراف .

٥٧ – لعل خير مثال على ذلك عيد الاله « آمون » المسمى بعيد « الأوبت » والذى يبدأ فى اليوم التاسع عشر من الشهر الثانى من العام ويستمر لمدة ٢٧ يوما ، وهو عبارة عن احتفال دينى لرحلة الاله « آمون وزوجته موت » وابنهما « خونسو » من معابدهم بالكرنك إلى معبد الأقصر والعودة .

٥٨ – H. Gauthier,BIFAO XIV, (1918),p33.

٥٩ – تجدر الملاحظة هنا أن وفاة إيمحتب جاءت قبل تأليهه .

٦٠ – المقصود بهم المحتفلين .

٦١ – اقترن غالبا إيمحتب بأمنحتب بن حابو فى بعض المعابد مع أن الفارق الزمنى بينهما كبير .

٦٢ – ظهر هذا النقش فى المقصورة التى تعلو المعبد والتى أنشئت فى عصر لاحق.

٦٣ – هناك تشابه كبير فى صفات « تحوت وإيمحتب وأمنحتب بن حابو وتيوس » ، خاصة فى الحكمة .

٦٤ – كان إيمحتب وأمنحتب بن حابو هما الالهان الرئيسيان فى معبد الدير البحرى فى العصر البطلمى .

٦٥ – من الملاحظ فى العصر اليونانى الرومانى ظهور إيمحتب فى كثير من الأحيان مع « تحوت » بالإضافة إلى أمنحتب بن حابو .

٦٦ – المقصود أن الملك هنا ممسك بإحدى شارات الحكم أمام إيمحتب .

٦٧ – وهما المكانان الذى يعتقد أن « حورس وست » تقابلا فيهما أثناء الصراع بينهما .

٦٨ – ويسمى هذا الملك المروى « أديخلمان Adikhalamani وقد قام ببناء مقصورة صغيرة بالقرب من معبد دابود الذى قام بتشيده الملك بطلميوس الخامس .

٦٩ – الى الشرق من السنبلاوين بمحافظة الدقهلية يقع تل الربع مكان عاصمة الاقليم السادس عشر من أقاليم الوجه البحرى ، والتى أطلق عليها الأغريق اسم « مندس » . كان معبودها المقدس على هيئة الكبش أحدى مظاهر الإله « امون رع » . ويوجد بالموقع حاليا جبانة للكباش المقدسة .

٧٠ – من الملاحظ التصاق صفة القراءة والكتابة بالاله إيمحتب فى هذا العصر .

٧١ – حيث ظهر إيمحتب فى صحبة الآلهة .

٧٢ – يمسك بصولجان « الواس » وعلامة « الحياة » .

٧٣ – كانت مروى هى أقصى مكان وصل اليه ايمحتب جنوبا .

٧٤ – بعكس شمال البلاد التى استمرت فيها عبادة ايمحتب لفترة طويلة تالية .

٧٥ – يبدو أن إيمحتب استمر يحتفظ أيضا بشهرته كرب للسحر والكيمياء حيث نجد الكيميائى « زوسيموس » الذى عاش فى القرن الثالث الميلادى يجعل اسم « إيمحتب » عنوانا لأحد كتبه .

٧٦ – وإذا كان المصريون قد أخلدوا الى السكينة منذ الثورات التى قاموا بها فى أوائل حكم الرومان ، فإنه فى عهد « ماركوس أورليوس » (١٦١ – ١٨٠م) نشبت بينهم فى الدلتا ثورة عنيفة عرفت (بحرب الرعاة) أو (ثورة الفلاحين) وهزمت فى خلالها الفرق الرومانية ، وكادت الأسكندرية أن تقع فى قبضة الثائرين ، إلا أن النجدة إليها قدمت من سوريا بقيادة « أفيديوس كاسيوس » قضت على تلك الثورة ، والتى يتزعمها كاهن مصرى اسمه اسيدوروس . وليس تاريخ مصر الأقتصادى فى خلال القرن الثالث من حكم الرومان سوى سلسلة من سيئ إلى أسوأ بسبب ازدياد عبء الضرائب والتوسع فى تطبيق مبدأ الالزام فى مختلف النواحى ، مع اهمال نظام الرى فازداد حال الزراع سوءا وأصبح عملهم غير مثمر حتى أن كثيرين منهم لم يجدوا مناصا من أن يفعلوا ما فعله غيرهم من قبل ، أى الفرار من مواطنهم مفضلين إما العمل فى المدن كأجراء أو تكسب قوتهم من السطو والنهب ، ومن ثم تركت مساحات واسعة من الأراضى دون زرع .

٧٧ – كانت المعابد والمقابر ملاذا لرهبان المسيحية قبل الاعتراف بها دينا رسميا فى مصر وذلك لبعدها نوعا ما عن العمران . فإن القديس العظيم أنطونيوس (٢٥٠ – ٣٥٦م) والذى يلقبونه « أب جميع الرهبان » ولد من أسرة غنية فى الصعيد ، ولما توفى والده تاركا له ثروة كبيرة تأثر بما جاء فى الإنجيل : « إذا أردت أن تكون كاملا فاذهب مع كل مالك واعطه للفقراء وتعال فاتبعنى » فنفذ الآية حرفيا ووزع ثروته وتوحد فى الصحراء ، وسكن أولا فى مقبرة قديمة ثم توغل داخل القفر . وعاش حوالى عشرين عاما لا يرى وجه انسان وهو فى نسك وصوم وصلاة وتأمل .

٧٨ – « جوستيان » (يوستنيانوس الأول) هو امبراطور رومانى حكم من عام ٥٢٧ – ٥٦٥ ميلادية . فى عهده تحول النوباديين فى النوبة من الوثنية إلى المسيحية ، وأصبحوا من أنصار الرومان فى محاربة البليمى وفى اجبارهم على اعتناق المسيحية ، وبذلك انتهت الوثنية وأغلقت المعابد فى جزيرة فيلة التى كانت معقل الوثنية ، وأرسلت تماثيل الآلهة

إلى القسطنطينية ، وسجن رجال الدين الوثنيون وحاول الأمبراطور تدمير معاقل الوثنية الأخرى بالبلاد فأغلق معبد « زيوس آمون » فى واحة سيوة . وفى الاسكندرية حرم على المدارس الفلسفية مزاولة نشاطها .

٧٩ – وقد حالف انتشار المسيحية فى مصر انتشار التنسك فى الأديرة والذى انتقل من مصر إلى كل أنحاء أوروبا ، وسرعان ما ازداد عدد الأديرة ، وأصبح القانون فى أواخر القرن الرابع ، يعترف بحقها فى احراز الممتلكات ، كما أنها أصبحت عقبة كئودا فى سبيل الحكومة ، بسبب كثرة عدد أتباعها ، الذين ادعوا لأنفسهم حق الاعفاء من الجندية ومن تولى المناصب قسرا .

٨٠ – كان انهاك الشعب بالضرائب مصدرا من مصادر شقائه ، كما قاسى من مغالاة الموظفين البيزنطيين المستمرة فى ارهاقه ليكونوا لهم ثروة على حسابه . وكانت مصر فى نظر الأباطرة حقلا كبيرا ينتج الحبوب ، ولم يهمهم أمر الأمن فى الريف ولا الفاقة والقحط والجوع الذى كان يجتاحهم بين وقت وآخر . وقد جر البيزنطيون على مصر الخراب بسياستهم السيئة .

٨١ – ظل هذا الاعتقاد سائدا فى الأوساط الشعبية فى كل عصور مصر .

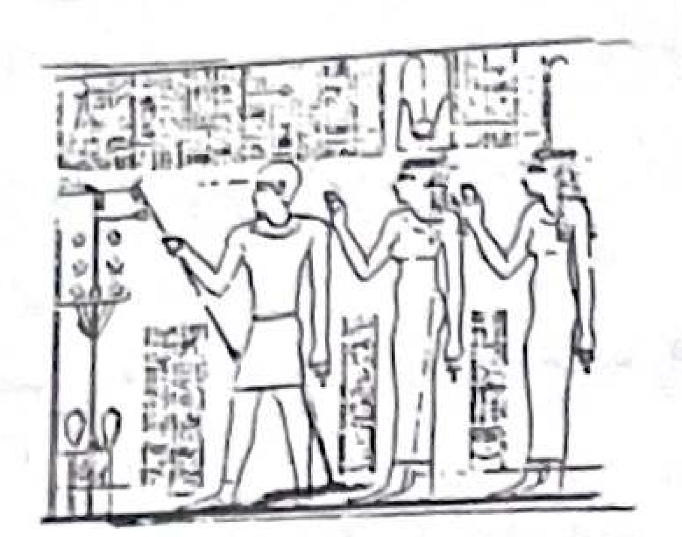
٨٢ – فى عهد الأمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ – ٣٠٥) أغارت قبائل البليمى على الحدود الجنوبية لمصر بوسيلة مزعجة مما اضطره إلى جعل هذه الحدود عند أسوان بدلا من المحرقة ودعوة بعض قبائل بدو الصحراء التى كانت تعرفت باسم النوباديين للسكن فى وادى النيل لحماية حدود مصر الجنوبية .

٨٣ – قام الرهبان فى أول أيام انتشار المسيحية بتدمير للمعابد المصرية لكونها رمزاً للوثنية . وقاموا بتغطية بعض النقوش بالجص راسمين عليها صور القديسيين . ومازالت بعض المعابد محتفظة بهذه التغطية بشكل واضح مثل معبد الأقصر .

٨٤ – تبنت المسيحية فى أيامها المبكرة كثيرا من الممارسات الوثنية ، ومنها التحنيط والمراسم الجنائزية والنوم العلاجى فى معابد أرباب الشفاء . وكذا أصبح الشفاء الذى كان يحدث فى معابد إيمحتب سابقا يمكن الحصول على مثيله فى أضرحة القديسيين المسيحيين مثل القديس « قزماس » والقديس « دميان » . وكان هذا القديسان أخوين توأمين يشتغلان بالطب ولا يقبلان أجرا على علاجهما للناس واعتبرا فى بعض الأحيان من أرباب الشفاء ، وقد استشهدا حوالى عام ٢٨٧ ميلادية . وهناك قصة غريبة تروى حول النوم العلاجى فى معبد « إيزيس » بكانوب ، اذ كان المؤمنون المسيحيون يلجأون إلى هذا المعبد للحصول على الشفاء من الربة « إيزيس » . وأراد البطريرك « سيريل » أن

يضع حدا للجوء المسيحين إلى الربة الوثنية فأخرج جثتى شهيدين هما « قيرش ويوحنا » من كنيسة القديس « مرقس » بالأسكندرية ثم قام بازاحة « إيزيس » من قدس أقداسها ووضع الجثتين مكانها ، وأمر بتحويل المعبد إلى كنيسة لهذين الشهيدين ، وقد استمرت هذه الكنيسة تؤدى نفس الدور الذى كان يؤديه معبد « إيزيس » من حيث قوى الشفاء الغريبة التى كانت تعمل من قبل لصالح الربة الوثنية .

٨٥ – ولقد أنقذت هذه المعابد بما فيها معبد إيمحتب من مياه السد العالى وذلك بنقلها إلى جزيرة أجيلكا بأسوان .



هوامش الفصل الخامس

١ - ذكر « هيرودوت » عبارات بنفس المعنى قائلا إن المصريين هم الذين انفردوا بممارسة فن التحنيط ، واحرزوا فيه النجاح الباهر والتقدم الظاهر وأنهم كانوا على معرفة جيدة بالطب .
ويقول فى الفقرة رقم ٨٤ من كتابه « ينقسم التطبيب عندهم (أى المصريين) إلى الفروع التالية : لكل مرض طبيب لا لأكثر . وبلادهم كلها غاصة بالأطباء ؛ فبعضهم متخصص فى العيون ، وبعضهم فى الرأس ، وبعضهم فى الأسنان ، وبعضهم فى الأمعاء ، وبعضهم فى الأمراض الخفية (يقصد الباطنية) » .

٢ - بردية « إيبرس » هى المرجع الأساسى لمعرفتنا للأمراض الباطنية وعلاجها . وهى تعود إلى السنة التاسعة من عهد الملك « أمنحتب الأول » . وهى عبارة عن مجموعة من مؤلفات وبحوث فى مواضيع مختلفة وصلت إلى الكاتب فنسخها حسب ترتيب أصولها .
ومما يدل على نظرة المصريين إلى المرض أن تستهل هذه البردية على الشكل التالى :
« هنا يبدأ كتاب تحضير الأدوية لكل أجزاء الجسم وأمراضه » .
من البرديات الطبية الهامة الأخرى بردية هيرست وهى فى قدم بردية إيبرس ، وبردية برلين الطبية رقم ٣٠٣٨ وهى مكتوبة فى عصر متأخر قليلا ، وبردية كاهون الطبية التى ترجع كما هو محتمل إلى عهد الأسرة الثانية عشرة مما يجعلها أقدم من بردية إيبرس ، وبردية لندن الطبية المحفوظة فى المتحف البريطانى تحت رقم ١٠٠٥٩ ، وبردية ادوين سميث ، وهناك أيضا بردية أخرى فى متحف برلين تحت رقم ٣٠٢٧ تحوى مجموعة من الرق والوصفات للأمهات وأطفالهن .

٣ - تعد بردية إدوين سميث توأما لبردية إيبرس . والبرديتان ترجعان إلى تاريخ واحد وهو ١٥٥٠ قبل الميلاد . وقد وصف عالم الآثار الأمريكى « بريستد » هذه البردية بأنها أقدم كتاب جراحة فى العالم .
ويرى العالم الطبيب محمد كامل حسين أن مؤلف هذه البردية طبيبا يلازم المرض ليالى طويلة ويترقب أدنى علامات الابراء فيهم ، ثم يرتب ويبوب ملاحظاته ، ولا يقصر فى تشريح الموتى ليعرف سر الوفاة ، ثم يملى ملاحظاته فى لغة سلسلة متجنبا كلام المتفقهين .

وواقعية هذه البردية تتضح أيضا من دقة الملاحظة التى تتصف بها الحالات المرضية . ولنذكر من هذه الحالات مثلا وصف حدوث الشلل والتبول اللاارادى على أثر إصابة العمود الفقرى ، والاصابة بالصمم من جراء كسر فى عظمة الصدغ ، الى جانب وصف التحريكات العلاجية كطريقة وضع يدى الجراح على الفك المخلوع لرده .

٤ - يقصد الأمراض الباطنة . أنظر هيرودوت : ٢ : ٨٤ والفقرة من ترجمة المرحوم الأستاذ الدكتور محمد صقر خفاجة .

٥ - « ان الأرض التى تعطى القمح تعطى أعشاباً كثيرة العدد ، بعضها يهب الشفاء فى الكأس ، وبعضها يهب الفناء » [الأوديسة : ٤ : ٢٢٧] .

٦ - كثير من هذه الأدوية الخيالية كانت مستخدمة فى البلاد إلى وقت قريب يعود إلى القرن السابع عشر وحتى بعد ذلك .

٧ - يقول أوسلر فى كتابه The Evolution of Modern Medicine, 1923, P. 13 أن استخدام السحر وافرازات الحيوانات أو أجزاء من أجسامها يشكلان وسيلتين مألوفتين للتطبيب على نطاق العالم كله وقد ظهرا لأول مرة فى مصر القديمة .
ويصف بلينى فى كتابه « التاريخ الطبيعى » حـ ٢٨ أهمية استخدام افرازات الحيوانات فى العلاج فى العالم القديم . وقد ظل ذلك مستخدماً حتى القرن الثامن عشر الميلادى .



هوامش الفصل السادس

١ – كائن أسطورى نصفه الأعلى رجل ، ونصفه الأسفل حصان .

٢ – انظر : W. Smith, **Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythology**, i, P. 44
وتقول قصة أخرى أن « أسكليبوس » كان فى الأصل ثعباناً ، ثم تحول إلى إله فى صورة انسان .

٣ – مما يثير الانتباه أن « أسكليبوس » كان يعتبر فى بعض المراحل نصف إله قبل أن يصل إلى الألوهية الكاملة . وهناك تفاصيل أسطورية أخرى عن « أسكليبوس » تجدها فى L.R. Farnell, **Greek Hero Cults, 1921** وكذلك فى M. Neuburger, **History of Medicine**

٤ – توجد لأسكليبوس تماثيل عظيمة فى أثينا ونابولى وغيرهما حيث يرى بعصاه المضفرة بثعبان مقدس ، ومما لاشك فيه أن هذه التماثيل ساهمت فى زيادة شهرته ، وفى بعض الحالات يظهر معه شاب يدعى « تيليسفوروس Telesphorus » كان يعتبر من أرباب الشفاء كما فى التمثال المحفوظ بمتحف اللوفر بباريس .

٥ – تنبهت بعض المؤسسات العلمية إلى ريادة إيمحتب لعلم الطب فى العالم فاتخذت « جمعية ريدنج الطبية The Reading Pathological Society » ، وهى أقدم جمعية طبية فى المملكة المتحدة ، إله الطب المصرى إيمحتب شعاراً لها مؤخراً ، هذا الشعار فى شكل ميدالية عليها صورة إيمحتب قدمها إلى الجمعية « سيرستيوارت أبرام » كتذكار لرئاسته للجمعية . وهذا فيما يبدو أول اعتراف من جمعية طبية بإيمحتب كروح حارسه لفن العلاج .

٦ – H. Haeser, **Lehrbuch der Geschichte der Medicin**, 3rd ed. 1875, i, P. 52

٧ – E.T. Withington, **Medical History from the Earliest Times**, 1894, P. 24
يضع وثينجتون فى مقدمة كتابه صورة لمصرى قديم هو « سخت ان عنخ Sekhet-n-Ankh » (حوالى ٧٤٣ ق.م.) كبير أطباء الفرعون « ساحورع » من الأسرة الخامسة ويصفه بأنه أقدم طبيب معروف ، ولكن فى ضوء معرفتنا مؤخراً بإيمحتب لم يعد سخت ان عنخ يستحق هذا اللقب .

٨ – M. Neuburger, **History of Medicine**, 1910,i, pp. 21-2

٩ – J.L Pagel, Einführung in die Geschichte der Medizin, 2nd ed., 1915, p. 29

١٠ – Sir William Osler, **The Evolution of Modern Medicine** 1921, p. 10

١١ – Sir D'Arey Power and C.J.S Thompson, **Chronologia Medica**, 1923, p. 4

١٢ – F.H. Garrison, **History of Medicine**, 1924, p. 48

١٣ – W.A. Jayne, **The Healing Gods of Ancient Civilizations**, 1925, pp. 32, 33, 62-4

١٤ – C.J. Cumston, **Introduction to the History of Medicine**, 1926, pp. 35, 36, 42


١٥ – A. Castiglione, **Storia della Medicina**, 1927, P. 52

١٦ – هناك أيضا كتابان بالرغم من أنهما لا يعدان فى تاريخ الطب بالمعنى الضيق إلا أنهما يشيران إلى إيمحتب ، وهذان الكتابان هما :
D. McKenzie, **The Infancy of Medicine**, 1927, E. Holländer, **Äsculap und Venus**, 1928



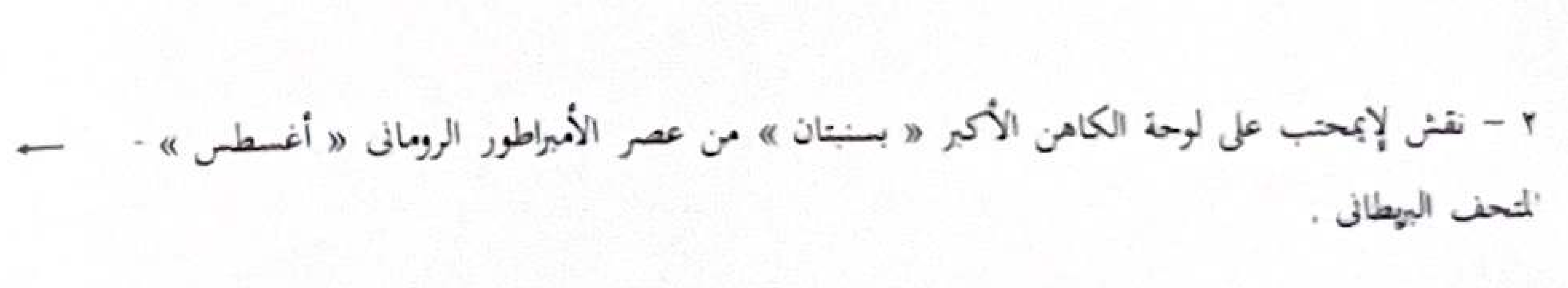
مراجع

EBBELL, B., 'Egyptian anatomical names', Acta Orientalia, 15, 293-310 (p.299), 1937.
EBBELL, B., Die altägyptische Chirurgie, Skrifter utgitt av Det Norske Videnskaps Akademi i Oslo, II, Hist.-filos. Klasse, No.2, s.54, 1939.
EDEL, E., 'Ägyptische Ärzte und ägyptische Medizin am hethitischen Königshof. Neue Funde von Keilschriftbriefen Ramses' II. aus Bogazköy', Rheinisch-Westfälische Akademie der Wissenschaften. Vorträge G 205. Opladen: Westdeutscher Verlag, 1976.
EDGAR, C. C., 'Selected papyri from the archives of Zenon, Nos.67-72', A.S.A.E., XXII, 209-231, esp. p.213, 1922.
EDGERTON, W. F., 'The strikes in Rameses III's twenty-ninth year', J.N.E.S., X, 137-145, 1951.
EDWARDS, I. E. S., Handbook to the Egyptian Mummies and Coffins exhibited in the British Museum. London, 27, 29, 1938.
EDWARDS, I. E. S., 'Lord Dufferin's excavations at Deir el-Bahari', J.E.A., 51, 16-28, 1965.
EMERY, W. B., Archaic Egypt. Penguin Books, 1961.
ENGELBACH, R., 'Steles and Tables of Offerings of the Late Middle Kingdom from Tell Edfu', A.S.A.E., XXII, 113-126, 1922.
ERMAN, A., 'Die Bentrech-Stele', Z.Ä.S., 21, 54, 1883.
ERMAN, A., 'Aus der Perserzeit: Die Stele von Neapel', Z.Ä.S., 31, 91-98, 1893.
ERMAN, A., The Ancient Egyptians. A Sourcebook of their Writings. Translated by A. M. Blackman. New York: Harper and Row, The Academy Library, 1966.
ERMAN, A. and H. GRAPOW, Ägyptisches Handwörterbuch. Darmstadt: Wissenschaftliche Buchgesellschaft, 1961.
FAULKNER, R. O., A Concise Dictionary of Middle Egyptian. Oxford: Oxford University Press, 1962.
FIRTH, C. M. and B. GUNN, 'Excavations at Saqqara, Teti Pyramid Cemeteries', I, p.134, No.45, p.138, No.11, (p.149, pl. 60,3). Cairo: I.F.A.O., 1926.
FISCHER, H. G., Egyptian Studies I, Varia. New York: The Metropolitan Museum of Art, 87-91, 1976.
GAMER-WALLERT, I., 'Die Statue des Harsomtus-em-Hat in Madrid', (MAN 2014), Die Welt des Orients, Göttingen, 7, 195-205, 1973.
GARDINER, A. H., 'Professional Magicians in Ancient Egypt', Proc. Soc. Biblical Archaeology, 39, 31-44, 1917.
GARDINER, A. H., The Library of A. Chester Beatty, pp.27-34, Vo, Section C, IV, 6-10. London: Oxford University Press, 1931.
GARDINER, A. H., 'The Mansion of Life and the Master of the King's Largess', J.E.A., 24: 83-91, 1938a.
GARDINER, A. H., 'The House of Life', J.E.A., 24: 157-179, 1938b.
GARDINER, A. H., Onomastica, I. Oxford: Oxford University Press, 55, 1947.
GARDINER, A. H., The Wilbour Papyrus. London: Oxford University Press, 1941-1948.
GARDINER, A. H., Egyptian Grammar. London: Oxford University Press, 1950.


الصـــــــور

١ - تمثال من البرونز لإيمحتب - متحف بروكلين .



٢ - نقش لإيمحتب على لوحة الكاهن الأكبر « بسنبتان » من عصر الأمبراطور الرومانى « أغسطس » - ← المتحف البريطانى .



٣ – تمثال الملك [illegible]
المتحف المصري .

٤ – تفصيل من التمثال السابق .



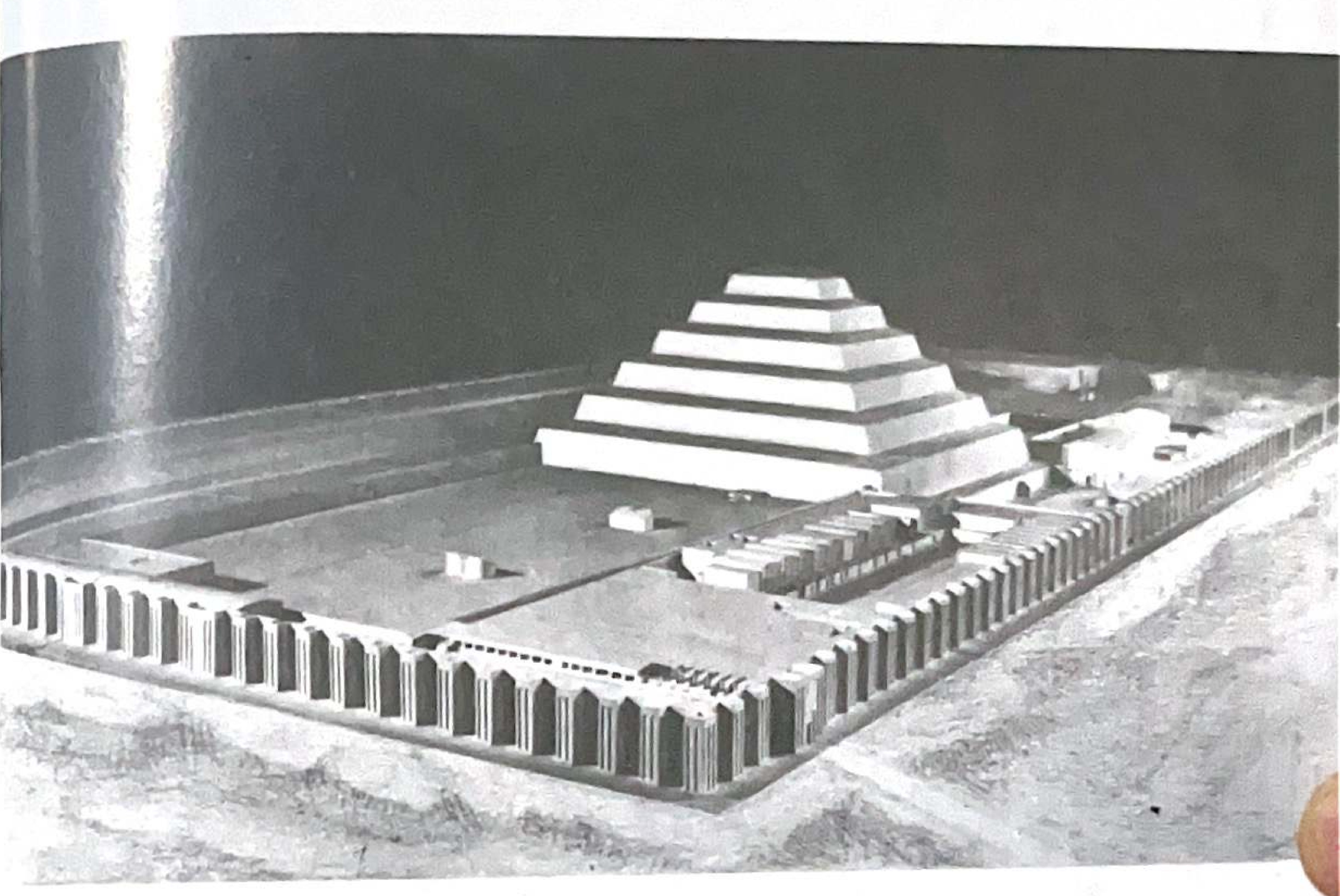
٦ – لوحة المجاعة بجزيرة سهيل – أسوان .

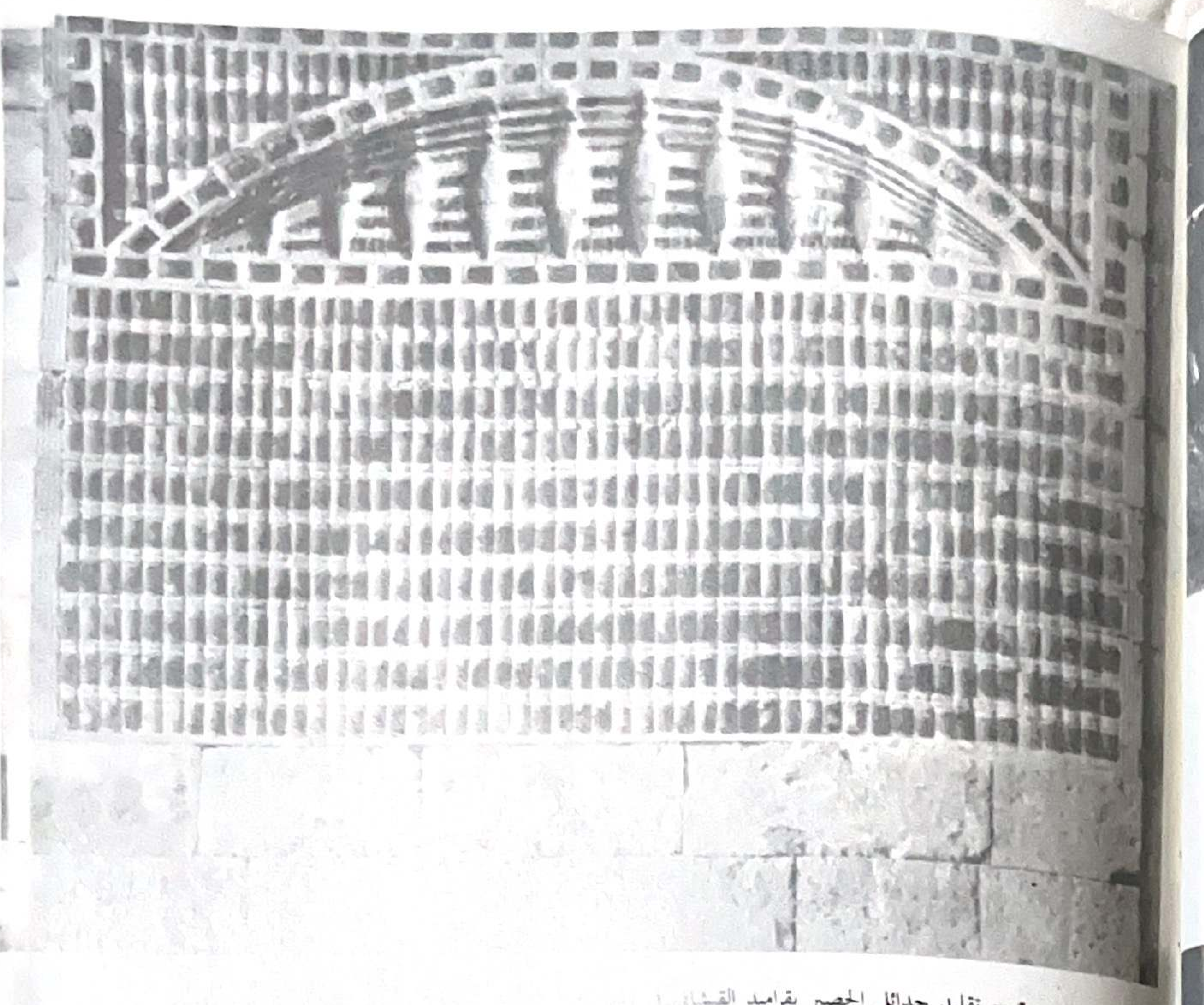
→ ٥ – الإله « خنوم » – معبد أبو سنبل الكبير بالنوبة – الأسرة التاسعة عشرة



٧ – قاعدة تمثال للملك « نترخت » (زوسر) منقوش عليها اسم إيمحتب – المتحف المصرى .


٨ – نموذج تخيلى لمجموعة الملك « زوسر » بسقارة عند انشائها .





٩ – تقليد جدائل الحصير بقراميد القيشاني

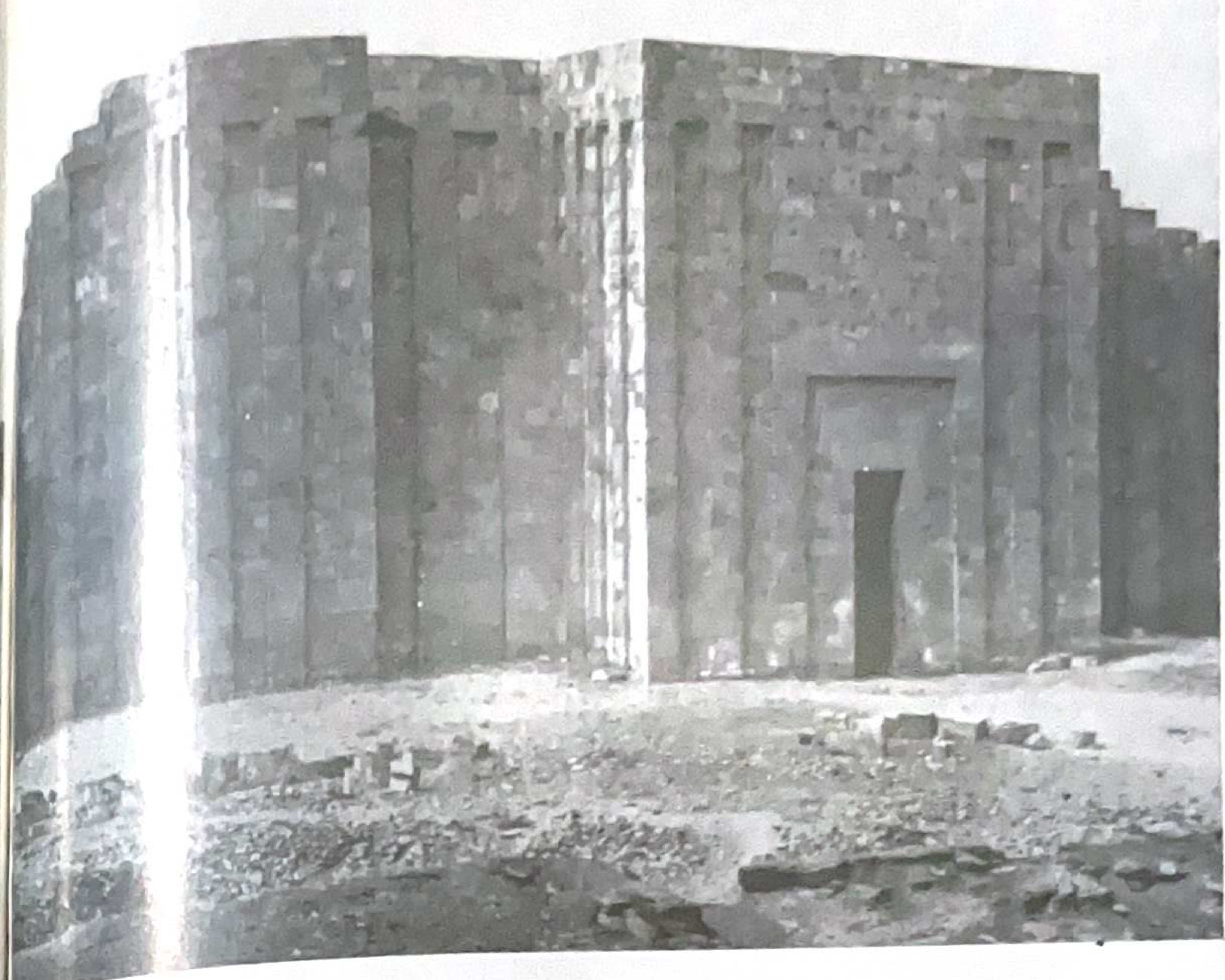
« الجد » كعنصر زخرفى .



١٠ – تابوت من المرمر فى إحدى الممرات تحت الهرم المدرج .

١١ – صورة تكوينية للسور الخارجى لمجموعة « زوسر » بسقارة – منظر من الجنوب الشرق جهة المدخل .

١٢ – مجموعة هرم سقارة كما تبدو حاليا .



١٣ - جزء من السور الخارجى ذات المشكاوات لمجموعة « زوسر » بسقارة ، حيث يظهر المدخل الرئيسى .

١٤ - بهو المدخل لمجموعة زوسر بسقارة .

١٦ – على مقربة من بهو المدخل وفى الناحية الغربية منه ، نرى قاعة صغيرة مستطيلة يحمل سقفها أربعة ركائز مزدوجة .

← ١٥ – صورة تكوينية لما كان عليه بهو الأساطين فى سقارة . ويلاحظ أن الأساطين تقلد حزم الغاب ، وتقاسيم السقف التى تقلد فلوق النخيل .


— ١٧ - أساطين بردية تحلى جدار جانبى لبيت الشمال - مجموعة « زوسر » بسقارة .



١٩ - الفجوة التى يوجد بها محور باب من الحجر ليحاكى الأبواب الخشبية - مجموعة زوسر بسقارة .

← ١٨ - إفريز من الصلال يتوج جدار - مجموعة زوسر بسقارة .



٢١ - نموذج تخيلي يوضح أجزاء مجموعة « زوسر » بسقارة .

٢٢ - الهرم المدرج والمقصورات العربية فى معبد اليوبيل .

٢٠ - نهاية بهو المدخل حيث نرى سور يحيط بساحة متسعة .



٢٣ – معبد إدفو .

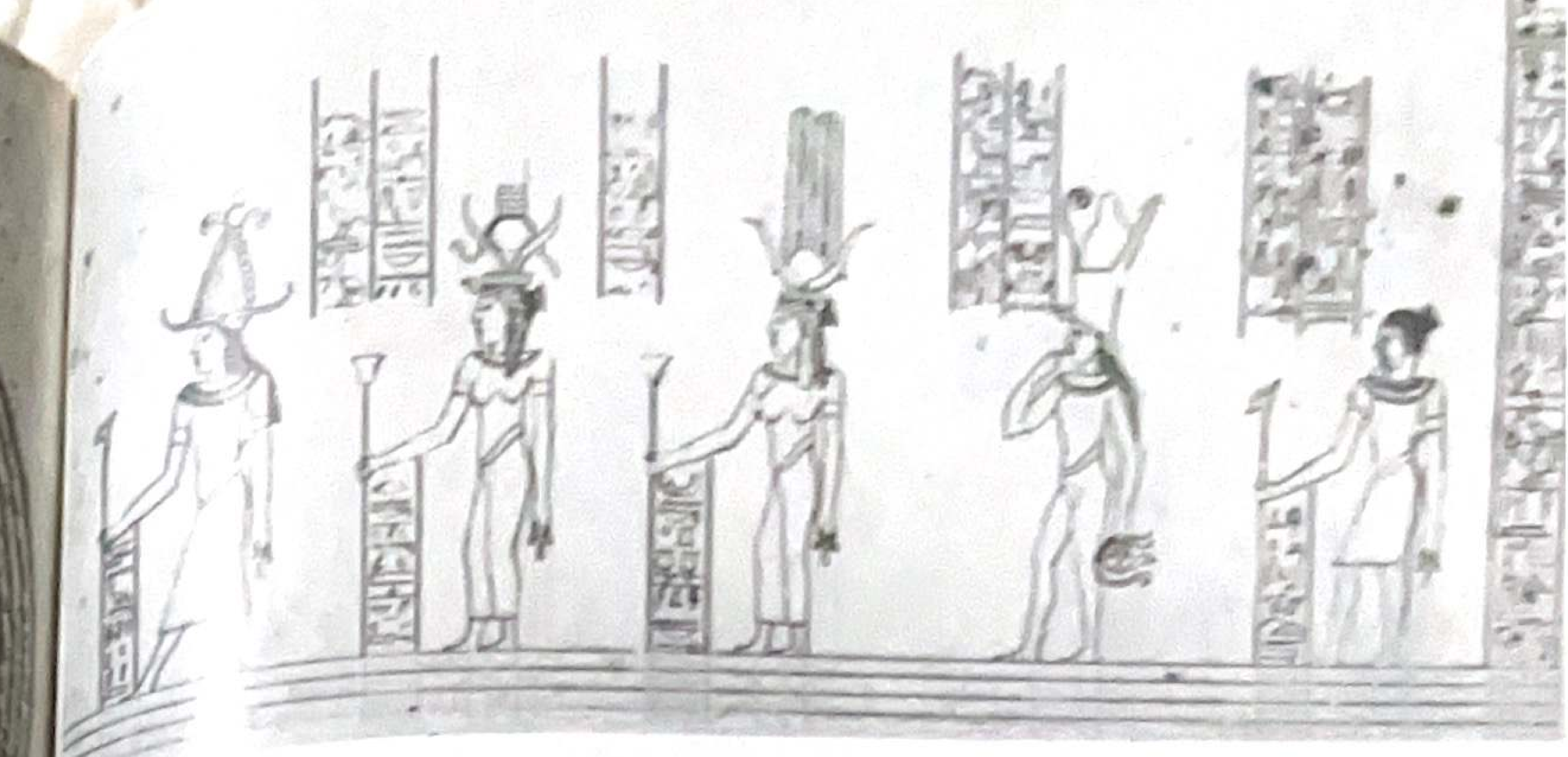


٢٤ – أحد الكهنة ممسكا برمز الإله « آمون رع » .

٢٥ – عملية فتح الفم للمومياء أمام المقبرة – بردية « هو نفر » – ١٣٧٠ ق.م. – المتحف البريطانى .



٢٦ – أغنية عازف القيثار مذكورا فيها اسم إيمحتب – مقبرة « با إتن إم حاب » – حاليا بليدن .



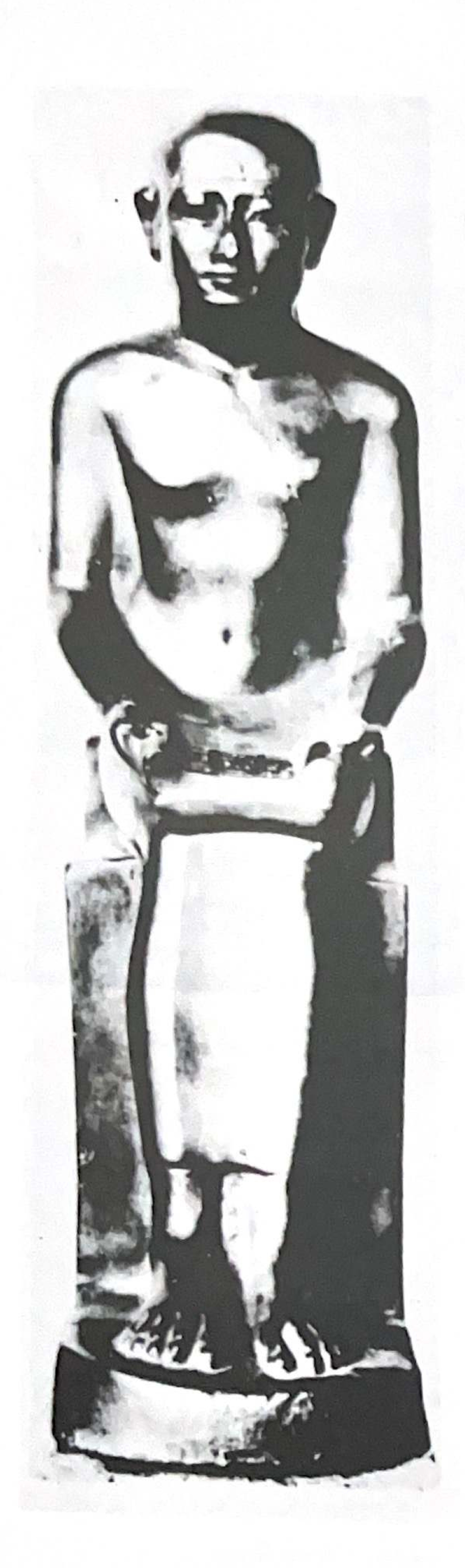
٢٧ – إيمحتب بين الآلهة – معبد دابود بالنوبة .

٢٨ – الأجرام السماوية وإلهة السماء « نوت » كما تخيلها المصرى القديم – نقش على تابوت أحد كهنة الأسرة الثلاثين عثر عليه فى سقارة – بمتحف المتروبوليتان حاليا . ←

٢٩ – أهرام الجيزة كما تبدو من الجو .

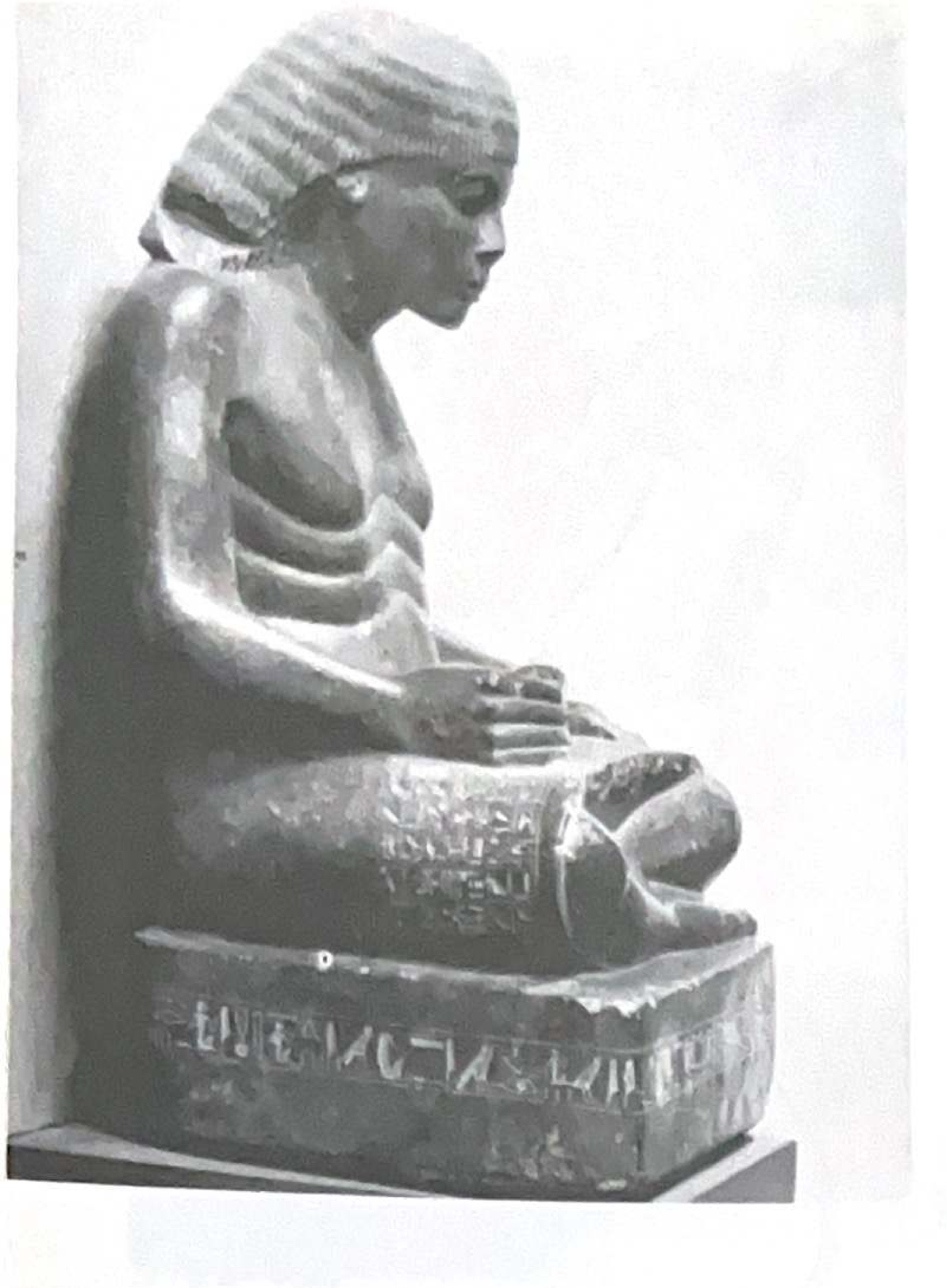
٣٠ – تمثال للملك « منكاورع » من المرمر – الأسرة الرابعة – المتحف المصرى .

٣١ – تمثال من البرونز لإيمحتب – متحف بروكلين .

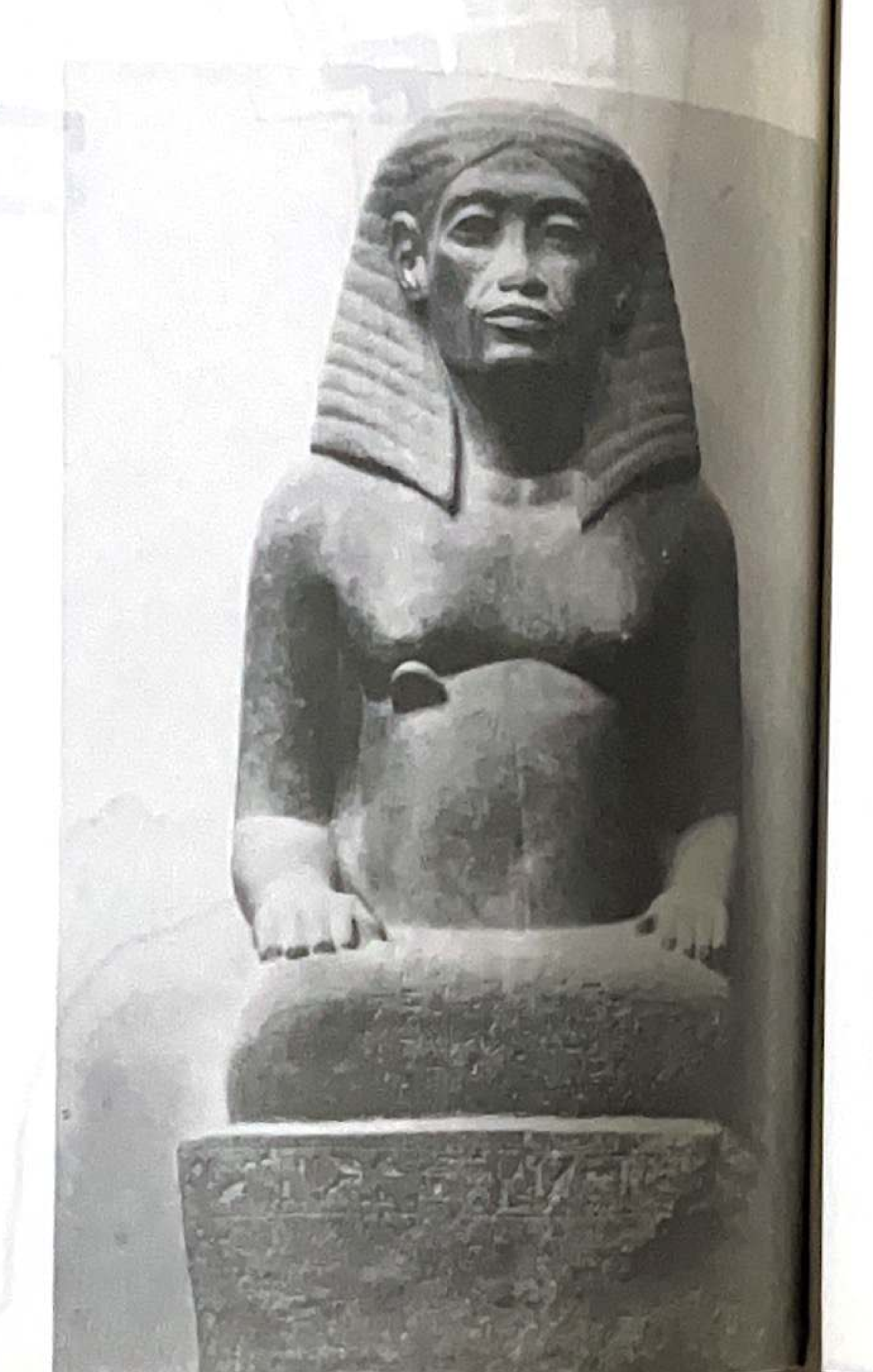


٣٢ – تمثال لإيمحتب – متحف اللوفر .

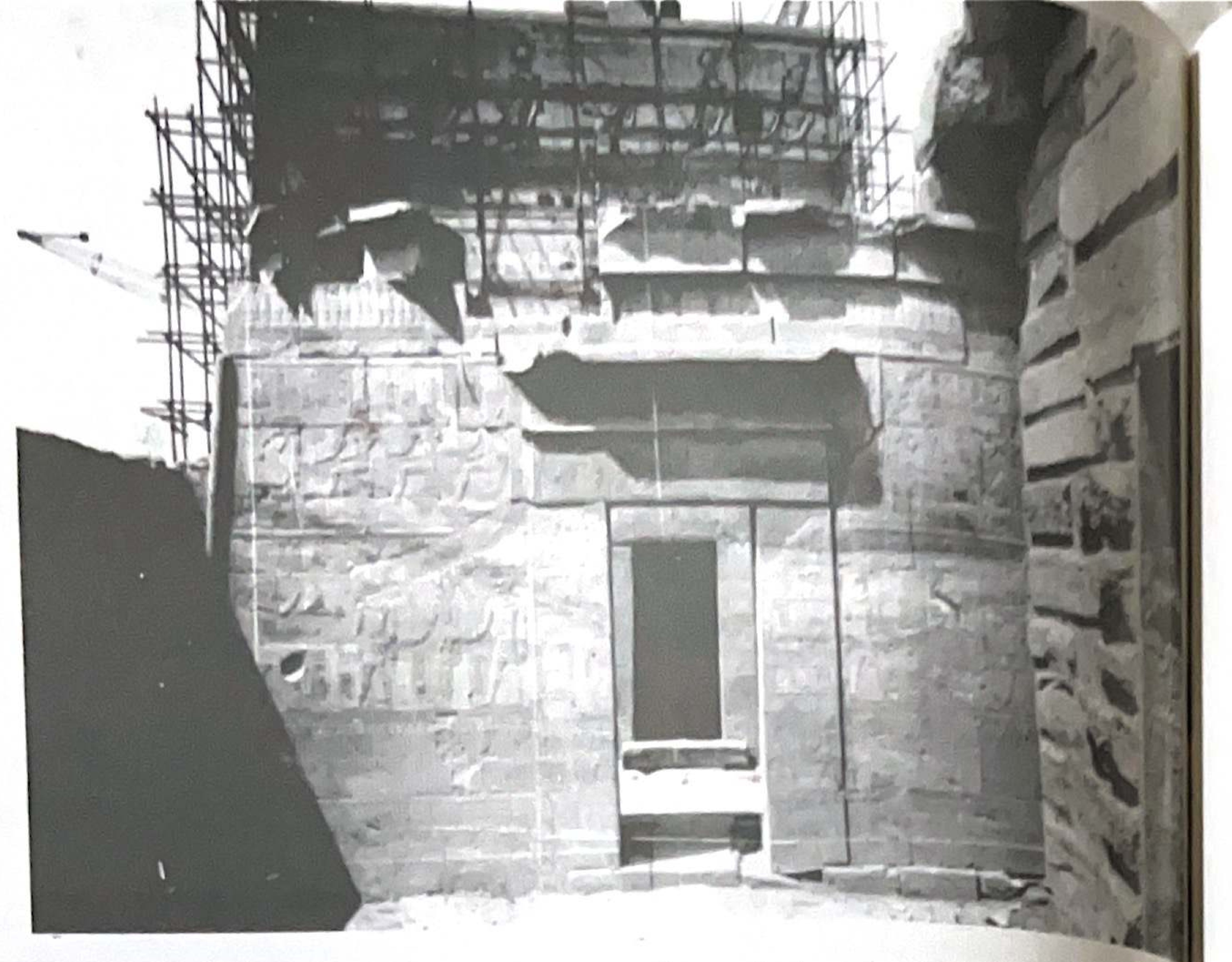
٣٣ - إيمحتب داخل ناووس - المتحف المصرى .



٣٤ - « أمنحتب بن حابو » فى شبابه - المتحف المصرى .



- « أمنحتب بن حابو » فى شيخوخته - المتحف المصرى .


٣٦ – واجهة معبد « إيمحتب » بجزيرة فيلة .

أ معبد أوغسطس
ب معبد حورس منقذ أبيه
(هرندوتس)
ج معبد أرنسنوفيس
د بوابة هدريان
هـ مقياس النيل
و بيت الولادة
ز الصفة الشرقية
ح الصفة الغربية
ط معبد إمحتب
ى معبد مندوليس
ك معبد أرحس نفر
(أرسنوفيس)
ل بهو الاستقبال
م معبد حتحور
ن كشك تراجان

٠ ١٠ ٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ متراً


جزيرة فيله



٣٧ – منظر عام لمعبد « إمحتب » يوضح موقعه بجوار صرح معبد إيزيس – جزيرة فيلة .

٣٨ – معبد حتشبسوت – الدير البحرى – البر الغر لأقصر .

٣٩ – معبد مدينة هابو – البر الغربى بالأقصر .



٤٠ – نقش لإيمحتب بين الآلهة – الحائط الخارجي لمعبد « بتاح » بالكرنك .

٤١ – إيمحتب ككبير للمرتلين فى أسطورة الإله « حورس » – سور معبد إدفو



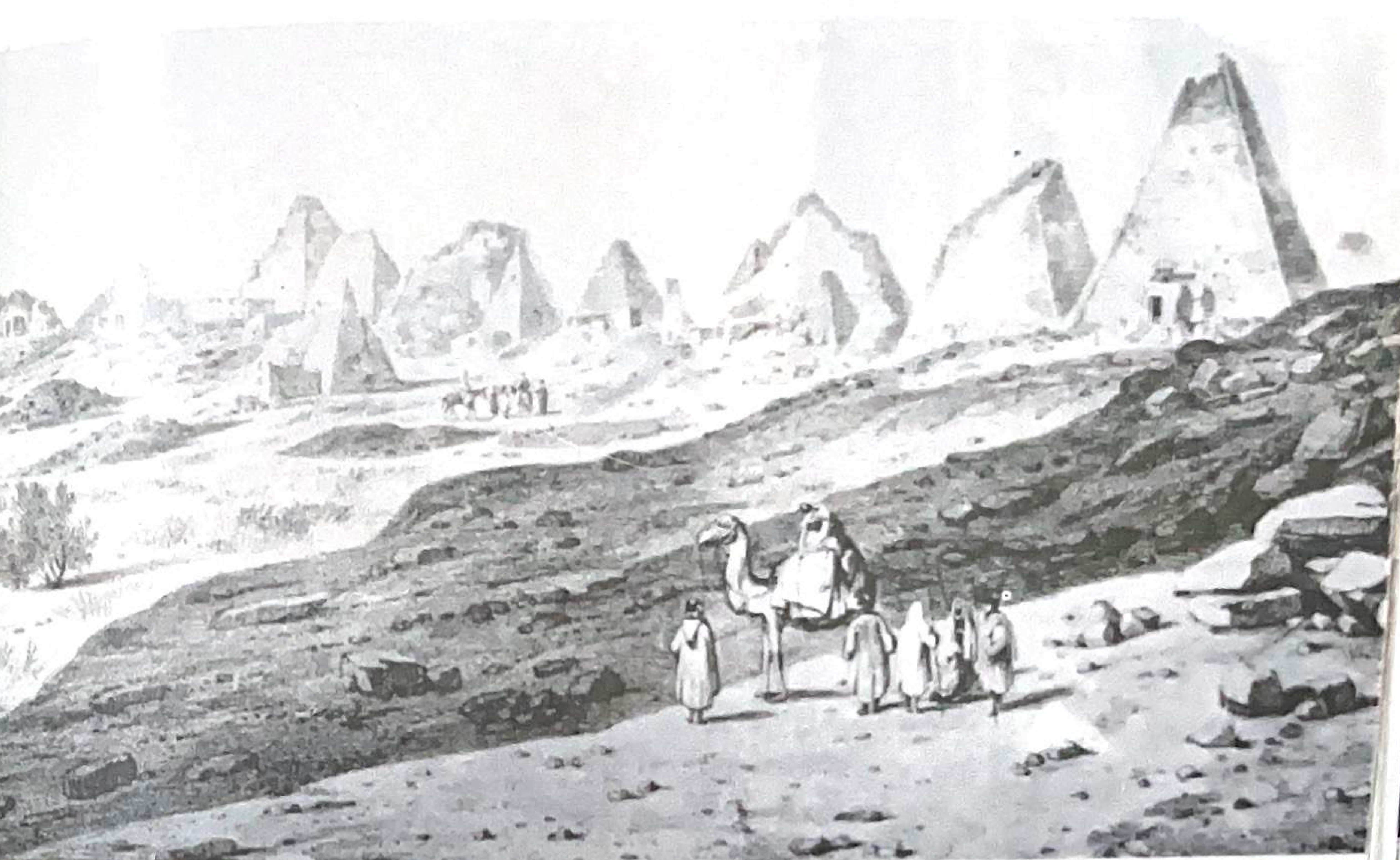
٤٢ – معبد دابود بالنوبة – العصر اليونانى الرومانى .


٤٣ – معبد الدكه بالنوبة – العصر اليونانى الرومانى .

٤٦ – بردية إيبرس – الأسرة الثامنة عشرة .

٤٤ – معبد كلابشة بالنوبة – العصر اليونانى الرومانى .

٤٥ – أهرامات ملوك مروى – لوحة من منتصف القرن الماضى .





٤٧ – مومياء « رمسيس الثانى » – المتحف المصرى .

٤٨ – صورة توضيحية للمنظر السابق ←

محتويات الكتاب

* زودت الترجمة العربية بعدد كبير من الرسوم والصور ، وكذلك التعليقات والمراجع .

سلسلة الثقافة الأثرية
مشروع المائة كتاب

صدر منها

١ - **المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية**
تأليف : د. أحمد قدرى
ترجمة : مختار السويفى - محمد العزب موسى
مراجعة : د. محمد جمال الدين مختار

٢ - **تراثنا القومى بين التحدى والاستجابة**
منجزات ١٩٨٢ - ١٩٨٥
اعداد وصياغة
د. أحمد قدرى
عاطف عبد الحميد
آمال صفوت

٣ - **الشرطة والأمن الداخلى فى مصر القديمة**
تأليف : د. بهاء الدين ابراهيم محمود
مراجعة : د. محمود ماهر

٤ - **الاجازات والتوقيعات المخطوطة فى العلوم النقلية والعقلية من القرن ٤هـ / ١٠م الى ١٠هـ / ١٦م**
تحقيق ونشر : د. أحمد رمضان أحمد

٥ - **لمحات فى تاريخ العمارة المصرية**
تأليف : د. كمال الدين سامح

٦ – **الديانة المصرية القديمة**
تأليف : ياروسلاف تشرنى
ترجمة : د. أحمد قدرى
مراجعة : د. محمود ماهر

٧ – **تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط «العصر الوسيط» (٣٥هـ/ ٦٥٥م – ٩٧٨هـ / ١٥٧١م)**
تأليف : د. أحمد رمضان أحمد

٨ – **فن الرسم عند قدماء المصريين**
تأليف : وليم هـ. بيك
ترجمة : مختار السويفى
مراجعة : د. أحمد قدرى

٩ – **نصوص الشرق الأدنى القديمة**
ترجمة : د. عبد الحميد زايد
مراجعة : محمد جمال الدين مختار

١٠– **الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة**
تأليف : أبى حامد المقدسى الشافعى
تحقيق : د. آمال العمرى

١١ – **دراسات فى العمارة والفنون القبطية**
تأليف : د. مصطفى عبد الله شيحة

١٢ – **إيمحتب**
تأليف : هارى
ترجمة : محمد العزب موسى
مراجعة : د. محمود ماهر

كتب تحت الطبع

١ – **المراسم منذ أقدم العصور حتى اليوم**
تأليف : د. ناصر الأنصارى

٢ – **المسلات المصرية**
تأليف : لبيب حبشى
ترجمة : د. أحمد عبد الحميد يوسف
مراجعة : د. محمد جمال الدين مختار

٣ – **الفن المصرى القديم**
تأليف : سيريل ألدريد
ترجمة : د. أحمد زهير
مراجعة : د. محمود ماهر

٤ – **واحة سيوة**
تأليف : د. أحمد فخرى
ترجمة : د. جاب الله على جاب الله

٥ – **دراسات فى اللغة المصرية القديمة**
تأليف : أحمد باشا كمال

٦ – **نهب آثار النيل**
تأليف : بريان فاجان
ترجمة : عبد الرحمن عبد التواب – محمد غطاس
مراجعة : د. أحمد قدرى

٧ – **مصر القديمة (دراسة طبوغرافية)**
تأليف : هرمان كيس
ترجمة : د. محمود عبد الرازق
مراجعة : د. جاب الله على جاب الله

٨ - التناسب فى عمارة مدارس العصر المملوكى فى القاهرة
تأليف : د. على غالب أحمد غالب
مراجعة : د. آمال العمرى

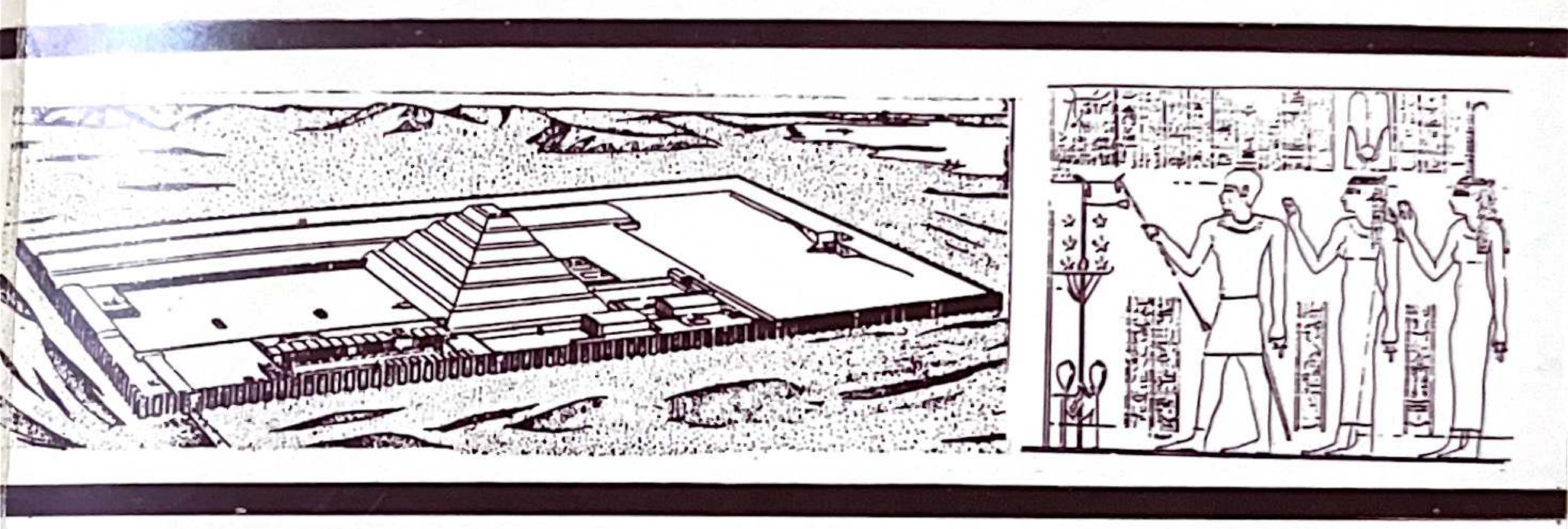
٩ - جبانة البجوات فى الواحة الخارجية
تأليف : د. أحمد فخرى
ترجمة : عبد الرحمن عبد التواب
مراجعة : د. آمال العمرى

١٠ - سجاجيد جورديز فى متحف محمد على بالمنيل
تأليف : كوثر أبو الفتوح

١١ - الدليل العام لرشيد
تأليف : عبد الرحمن عبد التواب

١٢ - العمارة المصرية القديمة (جزء أول)
تأليف : د. اسكندر بدوى
ترجمة : د. محمود عبد الرازق - صلاح رمضان
مراجعة : د. أحمد قدرى ، د. محمود ماهر

رقم الإيداع ٣٨٥٨ / ١٩٨٨
دولى ٧ - ١٧ - ١٥٨٥ - ٩٧٧
مطبعة هيئة الآثار المصرية



ستة جنيهات ونصف